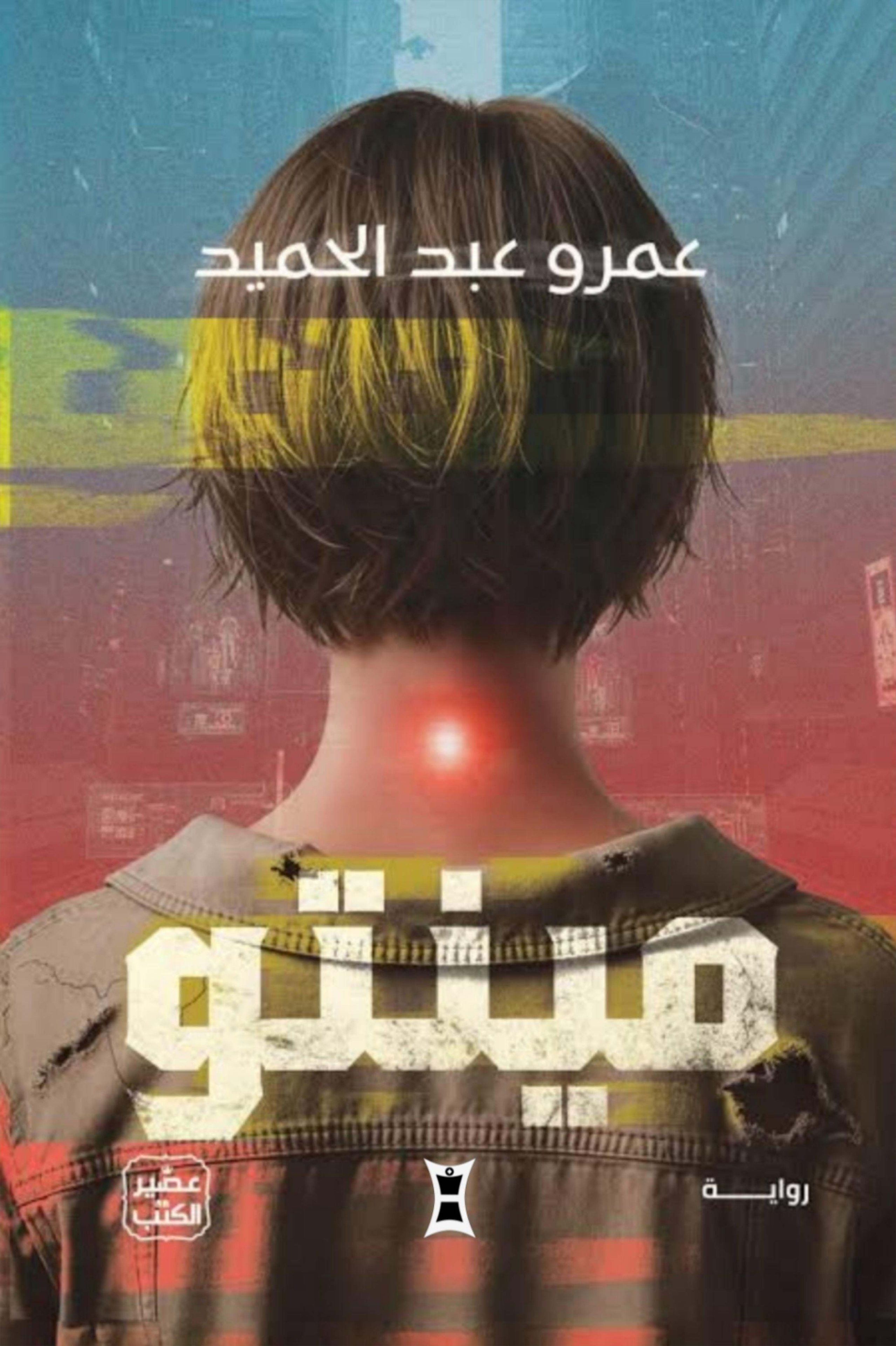
عمرو عبد الحميد
ميثو
رواية
عصير الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuke@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

● الطبعة الأولى يناير / 2026 م
● المؤلف عمرو عبدالحميد
● الترقيم الدولي: 978-977-992-655-1
● محضر هذه النسخه أشرف غالب

● حقوق هذه النسخة محفوظة لدار: مكتبة ضاد الإلكترونية

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

إهداء

إلى

أبي وأمي

(1)

كانت الشوارع أكثر ازدحامًا من المعتاد في مثل هذا التوقيت، حين توقفت سيارة الأجرة ذاتية القيادة من طراز «چوي» أمام الإشارة الحمراء. في مقعدها الخلفي، جلس شاب أنيق في أواخر العشرينيات، على خده ندبة صغيرة قديمة، يحاول جاهدًا السيطرة على توتره بينما تتنقل عيناه بين الشاشة الصغيرة على معصمه وبين الطريق أمامه.

نظر عبر الزجاج نحو الروبوتات التي كانت تنظِّف الممشى الفاصل بين السيارة وإشارة المرور. ثم سأل السيارة دون أن يرفع عينيه عن الروبوتات:

- كم تبقى على وجهتي؟

ردَّ صوت رقيق عبر شاشة السيارة:

- ثلاث دقائق وعشرون ثانية فقط، سيد «يحيى».

زفر ببطء، ثم أسند رأسه إلى النافذة، وأخذ ينظر إلى الشاشات الهولوجرامية التي تملأ الفضاء بالإعلانات المتغيِّرة دون أن يركز على شيء منها، قبل أن تتحرك السيارة من جديد، لتنساب بسلاسة في شوارع المدينة، وكلَّما اقتربت من وجهته، ازداد اضطرابه، فاليوم ليس كأي يوم، اليوم موعد الإفراج عن ليان.

نطقت السيارة من جديد، بصوتها الهادئ:

- يتبقى على وجهتك؛ سجن المدينة المركزي، ثلاثون ثانية فقط.

حاول أن يخفي ما يشعر به خلف ملامح جامدة كي يبدو طبيعيًا، لكنه لم يستطع منع نفسه من التحديق إلى انعكاس وجهه على الزجاج حيث لم يرَ في عينيه سوى سؤال واحد:

- هل سترغب في رؤيتي بعد ما فعلته بها؟

***

توقفت السيارة بهدوء أمام مدخل سجن المدينة المركزي. لم تكن هناك أبواب ضخمة أو أسلاك شائكة كما في السجون القديمة، بل واجهة زجاجية شاهقة، تنفتح بوابتها تلقائيًا أمام كل من يصل، كما لو كانت بوابة فندق من فئة الخمس نجوم. ورغم هذا المظهر الهادئ، كان ذلك المبنى واحدًا من أكثر المنشآت تأمينًا في المدينة، إذ لم يكن سجنًا للجسد فقط، بل للوعي أيضًا.

ترجّل يحيى من السيارة، ثم مضى بخطوات مترددة نحو البوابة، حيث قامت ماسحات الوجه بتسجيل دخوله تلقائيًا دون أن يعرّف نفسه، فالنظام الأمني يعرف بصمة كل وجه في البلاد.

مرّ عبر ممر هادئ يقود إلى صالة الانتظار. كل شيء كان نظيفًا، صامتًا، منظمًا، الجدران من زجاج داكن، الأرضية مصقولة كالمرآة، والهواء مشبع برائحة التعقيم المعتادة في المنشآت الحكومية.

وصل إلى صالة الانتظار، حيث كانت شاشة ضخمة تطفو في الهواء، تستعد لعرض القائمة اليومية لأسماء السجناء الذين شملهم الإفراج. أمامها، وقف أهالي السجناء في صفوف صامتة، يترقبون بوجوه متوترة، وبعضهم يُمسك بأنفاسه.

تردّد قبل أن يقترب، كأن جسده يقاومه. خطا خطوة، ثم توقف إذ كان عقله لا يزال يحذره:

- ما زال بإمكانك التراجع. لم يرك أحد بعد. دعها وشأنها.

لكنه ظلَّ واقفًا، لا يتقدَّم ولا يتراجع، كأن قدميه عالقتان بين رغبة خفية في الرحيل، وخيط رفيع من أمل شبه معدوم، بأن تراه وتسامح.

***

حين أطلقت الشاشة صافرة بدء عرض الأسماء، ارتفعت أنفاس الحاضرين من حوله. كانت الأسماء تتوالى على الشاشة، اسمٌ يظهر، بجواره صورة للسجين المفُرَج عنه بالأبيض والأسود، ثم يتلاشى ليُفسح المجال لغيره:

- سلمى سعيد أكرم.

سامي محمد عواد.

فاطمة باسل سلطان.

خالد إياد فاروق.

حاتم وجيه ساري.

كان يحيى يحدِّق إلى كل اسم يمرُّ، يقرأه بسرعة، ثم يتجاوزه، ليلتقط الاسم الذي يليه، منتظرًا أن يظهر الاسم الوحيد الذي يعنيه؛ ليان مروان الحكيم.

لكن القائمة توقفت، وظهرت العبارة المعتادة:

- انتهى عرض قائمة الإفراج لهذا اليوم.

تراجع خطوة إلى الوراء، ودهشة كبيرة تكسو ملامحه، ثم نظر بدقات قلب متسارعة إلى شاشته الشخصية على معصمه الأيمن، وتحقق من التاريخ:

- 21 أبريل 2100م. تمامًا كما هو مُسجَّل في ملف ليان، اليوم هو موعد الإفراج عنها. لا مجال للخطأ.

رفع عينيه من جديد إلى شاشة عرض الأسماء، كأن اسمها قد يظهر فجأة بعد انتهاء القائمة، كأن خطأ تقنيًا قد يُصحّح فجأة. لكن شيئًا لم يحدث.

توجَّه سريعًا إلى شاشة صغيرة مُعلقة في الهواء بالقرب منه، واستفسر عن اسم ليان مُدخِلًا رقمها المدني الذي يحفظه عن ظهر قلب، فلم يلقَ ردًا.

نظر حوله بتوتر، ثم توقفت عيناه عند ذلك الممر الجانبي، الممتد بصمت نحو أعماق المبنى. كان يعرفه جيدًا، لكنه لم يجرؤ يومًا على الاقتراب منه خلال السنوات الثلاث الماضية. تردَّد للحظة، ثم بدأ يتحرك ليخطو نحو الممر بأقدامٍ ترتجف قليلًا.

***

كان الممر طويلًا، والجدران من حوله تضيء بضوء خافت يبعث على الكآبة. مرَّ بجانبه عدد قليل من الأشخاص، يتحركون بهدوء في الاتجاه نفسه، لكنه بالكاد شعر بوجودهم.

كان عقله غارقًا فيما هو قادم، وصوت ارتباكه الداخلي يعلو على كل صوت. في نهاية الممر ظهرت البوابة الزجاجية للقاعة التي كان يقصدها: قاعة أجساد السجناء.

كان الدخول إلى هذه القاعة مختلفًا. فالقاعة مخصَّصة فقط للمشتركين في تطبيق «جسد». مدَّ يده إلى القلادة البيضاوية الصغيرة المتدلِّية على صدره -تلك التي يرتديها كل فردٍ في المدينة تقريبًا- ثم ضغط الزر الذي يتوسط سطحها بطرف إصبعه، فانبثقت أمامه شاشة شفافة، تطفو في الهواء وتعرض واجهة هاتفه.

مرر إصبعه بهدوء بين الأيقونات، حتى توقفت عيناه عند أيقونة وردية اللون، على شكل جسد إنساني. نقر عليها، فظهر رمز مشفَّر

- عشرون سنة؟ كيف وقد انتهت مدة سجنها اليوم؟ لا بد أن هناك خطأ ما!

لم يعطه الروبوت أي إجابة، فأردف متسائلًا بنبرة الصدمة نفسها:

- هل يمكنك إخباري باسم المستأجر؟

فأجاب الروبوت بهدوء بارد:

- المستأجر اختار إبقاء بياناته سرية. الدفع تم بالكامل. العقد مُفعَّل وغير قابل للنقض.

حينذاك، شعر يحيى بشيء ينهار داخله. كان يظن أنه جاء اليوم ليغلق صفحة مريرة من معاناته، فإذا به يجد فصلًا جديدًا بدا أنه سيكون أشد قسوة وأطول أمدًا.

(2)

خرج يحيى من السجن المركزي في حالة ذهولٍ، لا يشعر بما حوله، بينما تعصف الكلمات التي قالها الروبوت في رأسه بلا توقف.

- عشرون عامًا! جسدها مؤجّر لعشرين عامًا! كيف؟!

تمتم إلى نفسه في صدمة، قبل أن يتوقف أمام الرصيف، لا يعلم إلى أين يمضي. فكر في أن يعود مرة أخرى إلى داخل السجن ويحتج أو على الأقل يعرف ما الذي يحدث، لكنه في داخله كان يعرف أنه لا يملك الحق في الاستعلام عن أي معلومة إضافية تخص قضية ليان، فليان لم توكّله رسميًا، وكل استفسار دون إذنٍ منها يُعتبر انتهاكًا صريحًا لقوانين الخصوصية. وحده محاميها يستطيع معرفة ماذا حدث.

صعد إلى أول حافلة ذاتية القيادة وقفت أمامه، ثم جلس قرب النافذة، وأسند رأسه إلى الزجاج، وبينما كانت الحافلة تسير ببطء عبر الشوارع المزدحمة ترك عينيه تتوهان في المدينة من حوله.

أمام مقعده مباشرة، جلس رجل ضخم، رأسه محلوق، وفي مؤخرة عنقه كان هناك وميض أحمر خافت، ينبض بثبات تحت الجلد. الشريحة الإلكترونية، العلامة التي يعرفها الجميع، الشارة التي يحملها كل جسد في حالة إيجار نشط. تمتم إلى نفسه:

- التطبيق اللعين.

ثم أدار بصره إلى الخارج، إلى الشاشات الهولوجرامية الضخمة التي تملأ الفضاء بين المباني، وتعرض الإعلانات دون توقف:

«جسد.. عِش ما لم تستطع عيشه».

«استأجر القوة، استأجر الجمال، استأجر الحرية».

وجوه مبتسمة، أجساد رياضية، إعلانٌ ترويجي لرجل مقعدٍ يدخل داخل جسد شخص آخر ثم يركض ويقفز بين الجبال بأسارير منفرجة. وبعدها تتوهج الشاشة بأيقونة وردية ضخمة على شكل جسم إنسان، تحتها كلمة واحدة: «جسد».

***

كان هذا التطبيق قد بدأ قبل اثنين وثلاثين عامًا كتجربة مثيرة وفكرة مجنونة تسمح للناس بأن يعيشوا يومًا كاملًا في جسد شخص آخر، بشروط بسيطة: أن يكون المستأجر والمؤجَر من الجنس نفسه، وأن يعود الجسد كما استُلِمَ، بلا أذى، بلا إساءة.

منذ اللحظة الأولى، كان هذا التطبيق مجانيًا، يتيح للكل الاشتراك فيه. لكن بمجرد اشتراكك فأنت تقر بأحقية التطبيق في استخدام جسدك للإيجار أيضًا. ودون موافقة مسبقة منك، قد تجد وعيك قد جُمِّد فجأة لمدة أربع وعشرين ساعة، وجسدك في مكان آخر، يفعل أشياء لا تعرفها، مع وعي شخص لا تعرفه.

ظن البعض أن هذا التطبيق سيُقابَل بالرفض، وأن البشر سيخافون من التفريط في أجسادهم بهذه السهولة. لكن العكس هو ما حدث. ففي شهور قليلة، قفزت أعداد المشتركين إلى الملايين. الطوابير أمام فروع شركة «جسد» امتلأت بشباب يطلبون زراعة شريحة التطبيق في مؤخرة أعناقهم، أملًا في المغامرة، وتجريب شيء جديد، خصوصًا بعد إعلان التطبيق عن ميزة «الأوفلاين» التي تضمن للمستخدم تحكمًا كاملًا به حتى عند انقطاع الاتصال بالإنترنت.

في البداية اعترضت الحكومات على هذا التطبيق، لكن بعد وقت قصير صار الأمر خارج السيطرة، لذا لم يكن هناك مفر من تقنينه مثل

كل شيء غريب طرأ على العالم في العقود الخمسة الأخيرة. ووُضعت له مجموعة من التشريعات لتنظيم استخدامه، فأي جريمة يرتكبها شخص في أثناء وميض الشريحة بمؤخرة عنقه فالمسؤول عنها المستأجِر وليس صاحب الجسد الأصلي، ومن يسيء استخدام الجسد الذي استأجره، لا يكتفي التطبيق بحرمانه من الخدمة لاحقًا، بل قد يُسجن. فإذا تسبب المستأجِر بعاهة مستديمة للجسد المؤجَّر بسبب تهوره أو تورطه في شجار أو حادث في أثناء استئجاره، يُحكم عليه بالسجن مع جسده الأصلي لبضعة أعوام، عقابًا على تلك الجريمة، وإذا كانت المستأجِرة أنثى وأساءت استخدام الجسد بممارسة الرذيلة، فتُعاقب بتهمة الاعتداء الجنسي التي قد تصل إلى السجن مدى الحياة.

غير أنه مع الوقت وضع التطبيق استثناءً للمتهورين من الذكور والإناث، فصار بإمكان هؤلاء أن يوافقوا صراحة على استخدام أجسادهم في هذا النوع من الممارسات، مقابل أن يُتاح لهم الخيار نفسه مع الأجساد التي يستأجرونها، ومن بعدها صار مسموحًا لهذه الفئة أن تتبادل الأجساد وتمارس كل ما هو غير مألوف بعيدًا عن بقية المشتركين الذين يرفضون إساءة استخدام أجسادهم.

بعد سبع سنوات من نشأة التطبيق، تطور النظام أكثر، وابتُكرت تقنيات حفظ الوعي بعيدًا عن الجسد لمدىٍ أطول، فصار من الممكن أن تستأجر أجسادًا أخرى لمدة أكثر من أربع وعشرين ساعة، على أن يكون جسدك متاحًا للإيجار لنفس المدة التي تستأجرها.

أما التطور الأكبر، فكان إدخال أجساد المساجين إلى السوق بأسعار باهظة. إذ لم يعد التطبيق مقتصرًا على المشتركين برغبتهم فقط، بل صار كل من يُسجن لمدة أكثر من عامين منضمًّا رغمًا عنه للتطبيق طوال فترة عقوبته، لكن كجسد مُتاح للإيجار فقط، ليس له الحق في استئجار جسد آخر.

ومنذ تلك اللحظة، تحولت أجساد المساجين إلى سلع، تُجمَّد وتُحفظ في وحدات طبية متقدمة وسط قاعة تعرضها للإيجار، بينما يُسجن وعيهم داخل قوالب رقمية تحاكي بيئة السجن، حيث يعيش الوعي هناك بجسد هولوجرامي منسوخ من جسده الأصلي، ويمارس حياةً افتراضية مع مساجين آخرين، هم في الأصل أوعاء أيضًا، بأجساد وهمية صنعها نظام السجن الجديد.

الحفاظ على أجساد المساجين خلال فترة التجميد يتم وفق نظام صارم ودقيق. فبينما يحصل الجسد على تغذيته عبر أنبوب يصل مباشرة إلى المعدة أو محاليل وريدية تبقيه في أفضل حالة ممكنة، تُراقَب علاماته الحيوية على مدار الساعة بأجهزة طبية متخصصة قادرة على معالجة أي خللٍ طارئ فورًا.

أما العضلات والمفاصل، فلم تُترك عرضة للتيبس أو الضمور. إذ كانت هناك أوقات محددة يوميًا لممارسة الرياضة، حيث يُركَّب على الجسد وعيٌ صناعي مؤقت، يعتمد على الذكاء الاصطناعي، يتولى تحريك الجسد وتنشيطه وفق برامج رياضية مصممة لكل جسد على حدة، لضمان جاهزية الجسد للاستئجار في أي لحظة.

مع هذا التطور، ظهرت طبقات جديدة من الزبائن الأثرياء: مهووسي الجمال، أولئك الذين لم يحبوا أجسادهم يومًا، أصحاب الإعاقات، أصحاب الأمراض المزمنة، حتى أصبح الإعلان الأشهر:

«مع جسد، الصحة تُشترى بالمال».

فقط أمر واحد قد يوقف تلك العملية: أن يموت وعي الشخص الأصلي. فمع كل هذا التطور والقدرة على حفظ الأوعاء ضمن نظام يتم التحكم فيه بالكامل، لا يزال النظام عاجزًا عن إيجاد حل لمعضلة موت الوعي الأصلي، فإذا مات السجين أو قُتل داخل الحياة الافتراضية التي يعيشها في السجن الرقمي، يتوقف قلبه الحقيقي عن النبض، وتتعطل رئتاه

ثم تنهد، وتابع:

- مسكينة الفتاة الأخرى، كانت ستخرج من السجن بعد شهرين فقط.

كان يحيى لا يزال تحت تأثير الصدمة قبل أن ينطق بصوت مرتجف. وهو يحدق نحو الشاشة:

- هل يمكنك أن تقرِّب الصورة على وجه الفتاة المقتولة؟

فأومأ نادر، وحرَّك المقطع حتى توقف عند وجه الضحية، ثم كبَّر صورة الوجه لتصبح ملامحه واضحة رغم الدم الذي يغطيه، فقال يحيى بنبرة الصدمة التي لا تزال تسيطر عليه:

- مستحيل، إنها مرام. مستحيل أن تقتلها ليان.

فسأله المحامي مندهشًا:

- هل تعرف هذه الفتاة؟

فقال بصوت خافت، وكأن الزمن قد توقف من حوله:

- نعم، إنها صديقة ليان الوحيدة، ولقد ذهبت بإرادتها إلى هناك كي لا تبقى ليان وحيدة في ذلك العالم.

- مرحبًا سيد «يحيى»، تفضّل إلى القاعة رقم (2)، المحامي نادر بانتظارك.

فتح الباب ودخل. كان نادر القصبي يجلس خلف مكتب خشبي أنيق، رجل خمسيني بملامح جادة وعينين شديدتي التركيز، يضع نظارة رقمية شفافة فوق عينيه. رفع رأسه حين دخل يحيى، وقال:

- توقعت أن أراك اليوم.

جلس يحيى أمامه والاضطراب لا يزال على وجهه، فقال نادر، وكأنّه يختصر الطريق:

- أظن أنك جئت بسبب ليان.

أومأ يحيى إيجابًا، ثم سأله في ترقب:

- هل عرفت ما حدث؟!

أومأ نادر في حزن، ثم نقر زرًّا بسطح مكتبه، فظهرت فوقه شاشة جانبية، عُرض عليها ملف يحمل اسم ليان مروان الحكيم، وقال:

- نعم، ما حدث كان صادمًا.

فسأله على الفور في حيرة:

- كيف يُستأجَر جسدها لعشرين عامًا وقد انتهت مدة عقوبتها اليوم؟!

قال نادر بصوت أكثر جدية:

- يبدو أنك لا تعرف ما اقترفته ليان في السجن قبل أيام.

نظر إليه يحيى نظرة توحي بأنه لا يفهم ما يقصده، فأردف المحامي:

- لقد ارتكبت ليان جريمة قتل. أو بمعنى أدق، ارتكب وعيها تلك الجريمة داخل محاكاة السجن.

وتابع وهو يحرك يده على الشاشة أمامه:

- قتلت سجينة أخرى. وكما تعلم، موت أي سجين داخل تلك المحاكاة يعني موته في الحقيقة.

ثم نظر من جديد إلى يحيى، وقال في أسف:

- وبسبب تلك الجريمة، حكم القاضي عليها بالسجن عشرين عامًا إضافية.

تجمّد يحيى في مكانه، وكأنه لا يصدّق ما يسمعه. وقال:

- كيف يحدث هذا الأمر؟! ألا يراقب نظام السجن أوعاء المساجين ويجمّدها فورًا إذا شعر بأي خطر؟!

قال:

- لا أحد يستطيع تفسير ما حدث، إنها أول حالة من نوعها، لكن الجريمة تمّت بالفعل وتم توثيقها.

ثم نقر بإصبعه على الشاشة، فانبثق مقطع مصور يظهر ساحة رمادية مغلقة جدرانها عالية، وفي المنتصف كانت ليان الهولوجرامية تقف ممسكةً بقضيب معدني، وملامح وجهها تحمل غضبًا واضحًا، قبل أن تتقدم ببطء نحو فتاة هولوجرامية أخرى، كانت منهمكة في الرسم على الجدار، حتى صارت على بعد خطوات منها، فتدخلت فتاة ثالثة وحاولت باستماتة إيقاف تقدمها، فاستدارت ليان إلى تلك الفتاة، ثم رفعت القضيب المعدني، وضربت رأسها به بكل ما أوتيت من قوة، لتسقطها صريعة في الحال.

تمتم يحيى في ذهول:

- مستحيل!

فقال نادر بنبرة آسفة:

- للأسف، لم أستطع أن أدافع عنها بعد هذا المقطع.

ثم تنهد، وتابع:

- مسكينة الفتاة الأخرى، كانت ستخرج من السجن بعد شهرين فقط.

كان يحيى لا يزال تحت تأثير الصدمة قبل أن ينطق بصوت مرتجف، وهو يحدق نحو الشاشة:

- هل يمكنك أن تقرِّب الصورة على وجه الفتاة المقتولة؟

فأومأ نادر، وحرَّك المقطع حتى توقف عند وجه الضحية، ثم كبَّر صورة الوجه لتصبح ملامحه واضحة رغم الدم الذي يغطيه، فقال يحيى بنبرة الصدمة التي لا تزال تسيطر عليه:

- مستحيل، إنها مرام. مستحيل أن تقتلها ليان.

فسأله المحامي مندهشًا:

- هل تعرف هذه الفتاة؟

فقال بصوت خافت، وكأن الزمن قد توقف من حوله:

- نعم، إنها صديقة ليان الوحيدة، ولقد ذهبت بإرادتها إلى هناك كي لا تبقى ليان وحيدة في ذلك العالم.

(3)

نطق المحامي مندهشًا:

- دخلت السجن بإرادتها كي تبقى معها؟!

هزَّ يحيى رأسه إيجابًا، وقال:

- نعم، لذا أنا متأكد تمامًا أن ليان لا يمكن أن تؤذي مرام.

فقال المحامي وهو يشير إلى الشاشة:

- لكن ذلك حدث بالفعل، كما رأيت في المقطع.

فتمتم يحيى مصرًّا:

- مستحيل أن تفعلها، مستحيل.

ثم رفع عينه إليه، وسأله بنبرة مترددة:

- هل يمكنك أن تدبِّر لي موعدًا مع وعي ليان؟

فأجابه المحامي:

- تعرف أنها لن توافق، لكن بما أنك مَن يدفع لي نيابة عنها، دعني أحاول.

فهزَّ يحيى رأسه في صمت، ثم نهض ليغادر.

***

غادر يحيى مكتب المحامي بخطوات متثاقلة وملامح تائهة، لم يكن يريد العودة إلى المنزل وفي الوقت نفسه لم يعرف إلى أين يذهب، فتابع

سيره على الرصيف وعقله يتخبط بين صدمة وندم وخوف، بينما يردد لسانه:

- ليان تقتل مرام؟!

من حوله، كانت المدينة تمضي وكأن لا شيء حدث. الحافلات تسير بانتظام، الشاشات تواصل عرض إعلاناتها، والمارة يعبرون الشوارع بوجوه عادية، غير مدركين للعاصفة التي تعصف به.

كل شيء في داخله كان قد انهار. الأمل الذي بدأ به صباحه -خروج ليان، وغفرانها له، وإكمال حياتهما معًا- تبخر كله في لحظة. وكلما أغمض عينيه، لم يرَ إلا ذلك المشهد: ليان تمسك بقضيب معدني في يدها، وتحطم رأس مرام.

وبينما يتردد المشهد في ذهنه، عادت إلى ذاكرته تلك اللحظة قبل نحو عامين، حين أخبر مرام بأن ليان قد سُجنت. فلم تبكِ، أو تصرخ. فقط نظرت إليه بعينين جامدتين، وقالت بهدوء لا يُنسى:

- لن أتركها وحدها. ساعدني على الدخول إلى ذلك السجن.

***

قبل ثلاث عشرة سنة، كانت مرام طفلة في السابعة من عمرها، صغيرة، هادئة، وعيناها مليئتان بخوف لم تعرفه من قبل، حين وصلت إلى دار رعاية الأيتام برفقة موظف حكومي، بعدما فقدت والديها خلال أسبوع واحد بسبب مرض تنفسي نادر، ولم يبقَ لها أحد.

عند مدخل الدار، توقفت في صمت. ورفعت رأسها برهبة طفلة لا تعرف ما ينتظرها، فالتقت عيناها بعينين واسعتين تنظران إليها: كانت ليان.

فتاة في التاسعة من عمرها، نحيلة، بشعر بني طويل، وملامح تجمع بين الرقة والقوة. تقدّمت إليها بخطى واثقة متجاهلة الموظف الحكومي الذي يرافقها، ثم انحنت قليلًا وعانقتها بطيبة، وهمست في أذنها:

- من الطبيعي أن تخافي. شعور مؤقت سيزول مع الأيام.

لم تقل مرام شيئًا. فهمست إليها من جديد:

- إن ضايقك أحد، فقط نادي عليَّ. اسمي ليان.

فأومأت مرام في صمت، ومنذ تلك اللحظة، لم تبتعد عنها قط. صارت تلحق بها كظلِّها، تأكل معها، تنام بجوارها، تتعلَّق بها في كل جولة تفتيش مفاجئة. وإذا تحدثت عنها أمام أي شخصٍ لم تكن تقول إلا: أختي ليان. حتى يحيى، حين تعرف على مرام من خلال ليان، ظنَّ في البداية أنهما شقيقتان فعلًا، إذ كانتا متقاربتين في الطول، ومتشابهتين في لون الشعر البني والعيون السوداء اللامعة.

عندما غادرت ليان دار الرعاية بعد بلوغها الثامنة عشرة، لم يكن يؤرق راحتها إلا بقاء مرام وحيدة هناك، فعادت بعد أيام إلى إدارة الدار تطلب إذنًا باصطحابها للعيش معها، متعهدةً بأن تنفق عليها من منحتها الجامعية التي حصلت عليها لدراسة الصيدلة، لكن الإدارة رفضت. وتعلَّلت بأن القوانين لا تسمح بذلك.

يومها، كان يحيى حاضرًا. شاهد دموع الفتاتين في الحديقة الخلفية. وهما تتعانقان بشدة، قبل أن تعطيها ليان سلسلتها الفضية المحبَّبة ذات القلادة المسطَّحة على شكل عنقود عنب، وتعدها بأنها لن تتأخر عن زيارتها إلى أن تلتحق بها في الخارج. لم تكن تعلم أنها ستُسجن بعد عامٍ فقط، ويكون حبيبها الذي يقف على بعد خطوات منها هو السبب المباشر في ذلك.

حاول يحيى أن يطرد تلك الذكرى من رأسه وهو يواصل السير في المدينة، لكنه لم يستطع. بل زادت مرارة الشعور بالندم في حلقه، ثم استدعت ذاكرته تلك اللحظة التي قابل فيها مرام بعد خروجها هي الأخرى من دار الرعاية، وملامحها التي لم تحمل أي شيء سوى سؤال واحد:

- أين ليان؟ ولماذا لم تزرني طوال الفترة الماضية؟

لم تسأل عن جامعة، ولا عن وظيفة، ولا عن مأوى. كل ما أرادته هو أن تراها. أن تفهم لماذا اختفت فجأة دون وداع، دون زيارة، دون حتى رسالة. وحين علمت الحقيقة، وعرفَت منه أن ليان في السجن، انطفأ بريق عينيها في لحظة، وكأن الحياة انسحبت منها. غير أنها لم تصرخ، لم تبكِ، فقط نظرت إليه وقالت بهدوء:

- لن أتركها وحدها. ساعدني على الدخول إلى ذلك السجن.

نظر إليها متعجبًا من جديتها، وحاول أن يناقشها بعقلانية، أن يقنعها بالانتظار حتى تنهي ليان مدة عقوبتها، لكن ردها كان حاسمًا:

- ساعدني في الدخول إليها، وإلا سألجأ لغيرك لمساعدتي.

ومع إصرارها، جلسا معًا في تلك الليلة يخططان لجريمة صغيرة، لا تؤذي أحدًا، ولا تزيد عقوبتها على عامين. وبعد نقاش طويل، توصلا إلى فكرة: تحطيم روبوت حكومي داخل قاعة عرض الأجساد التابعة للسجن المركزي، حتى إنها لم تنتظر إلى اليوم التالي لتذهب إلى أقرب فروع شركة «جسد» كي تشترك بالتطبيق الذي يمكِّنها من دخول تلك القاعة، بل ذهبت في اليوم نفسه وزرعت الشريحة الإلكترونية في مؤخرة رقبتها، قبل أن تعود إلى يحيى وتعطيه سلسلة ليان ليحتفظ بها حتى تخرجا من السجن.

وفي ظهيرة يوم مزدحم، دخلت الفتاة القاعة وكأنها زائرة تبحث عن جسد مناسب للإيجار. ووسط ذهول الحاضرين حملت مقعدًا معدنيًا، وسحقت به رأس روبوت كان يتجول في هدوء بين كبسولات الأجساد النائمة. ثم وقفت مكانها تنتظر وصول الشرطة بابتسامة عريضة. لتُعاقَب بالسجن ستةَ وعشرين شهرًا، بزيادة شهرين عمَّا كانت تتوقع. ورغم أن تلك الزيادة أدخلتها إلى فئة الأجساد المتاحة للإيجار، إلا أنها لم تندم ولو للحظة.

بعد مسافة طويلة من السير، توقف يحيى عن التقدم فجأة، والتفت خلفه بعدما شعر بأنَّ هناك من يتبعه، لكنه وجد المارة يتقدمون في طرقهم بلا اهتمام. فهزَّ رأسه كأنما يطرد وهمًا، ثم تحسس سلسلة ليان التي لم يخلعها عن عنقه منذ أعطته مرام إيَّاها، وواصل سيره.

لكن الشعور بوجود من يتتبعه ظل ملازمًا له، فأسرع في خطواته، ثم انعطف بسرعة إلى زقاق جانبي ضيق. وبعد بضع خطوات، اختبأ خلف عمود خرساني قديم يدعم واجهة أحد المباني، وألصق جسده به، وانتظر وهو يحبس أنفاسه.

كانت هناك خطوات تقترب بالفعل، مدَّ يحيى رأسه قليلًا، فرأى رجلًا يتحرك بحذر داخل الزقاق، ويتلفت برأسه في كل اتجاه كأنه يبحث عن شخص ما، حتى مرَّ بجانب العمود الخرساني دون أن ينتبه إلى وجود يحيى، فأبصر يحيى حينها مؤخرة رقبته تومض بالضوء الأحمر الخافت، فخرج إليه من مخبئه وصرخ به:

- من أنت؟!

استدار الرجل رافعًا يديه كي يهدِّئ يحيى:

- لست عدوًّا أو مؤذيًا، لا تقلق.

تفحص يحيى وجهه، فوجده شابًّا في مثل عمره، شعره أسود، وعيناه مرتبكتان، فسأله في حدَّة:

- لماذا تتبعني؟

أنزل الشاب يديه، ونظر حوله قبل أن يرد:

- لقد رأيتك تسأل عن السجينة ليان مروان قبل ساعات، لذا تتبعتك منذ خروجك من السجن المركزي، حتى أعرف من أنت.

اندفعت الدماء إلى عروق يحيى، وسأله في حدَّة أكبر:

- لماذا؟ ما الذي تريد معرفته؟

قال الشاب:

- أخبرني أولًا، ما علاقتك بليان؟

نطق يحيى سريعًا:

- إنها حب حياتي، وكنا نخطط للـ...

لكنه توقف عن الإكمال فجأة، وكأنه تذكر شيئًا، ثم قال بتوتر واضح:

- لا أثق بالأجساد المؤجَّرة. أخبرني أنت، ماذا تريد مني ومن ليان؟

فقال الشاب:

- لا أنكر أنني أحب أحيانًا استئجار الأجساد، لكنني استأجرتُ هذا الجسد خصيصًا من أجل ليان. لا أريد أن يُكشَف أمري وأنا أبحث عن حقيقة ما حدث لها.

تردد يحيى للحظة، ثم سأله بنبرة أقل حدة:

- ماذا تعرف عن وعيها؟ ما الذي جعلها ترتكب تلك الجريمة؟

قال الشاب بجدية:

- أحتاج إلى دليل على علاقتك بها أولًا.

وأردف سريعًا مبررًا طلبه:

- لم تتلقَّ ليان أي زيارة من حبيب خلال السنوات الثلاث الماضية.

ابتلع يحيى ريقه بعدما شعر أن هذا الشاب لا يتحدث من فراغ، بل يعرف تفاصيل دقيقة عن ليان، وربما يحمل إجابات للأسئلة التي تعصف برأسه منذ ساعات، فقال في توتر:

- كان بيننا خلاف مؤقت، لكننا كنا سنعود.

ثم ضغط زر قلادته البيضاوية، فظهرت شاشة هاتفه في الهواء أمامهما، فحرك إصبعه إلى أيقونة من أيقوناتها، وبعد أكثر من نقرة على أيقونات مختلفة، ظهر أخيرًا مقطع مصوَّر له مع ليان، وهما يجلسان

متقاربين، يضحكان، وذراعه تحيط بكتفيها، بينما تنظر إليه بعينين تفيضان حبًّا. كان ذلك المقطع قد التقطته ليان لهما قبل سجنها بأربعة أشهر تقريبًا، فنطق الشاب بهدوء قبل أن يكتمل المقطع:

- اسمي أسامة حلمي، كنت أحد المشرفين على وعي ليان داخل سجن الأوعاء الرقمي.

تسارعت دقات قلب يحيى، فتابع أسامة وهو يتلفت حوله:

- لقد درستُ وعي ليان جيدًا خلال السنوات الثلاث الماضية، لم تكن عدوانية قط. كانت هادئة، طموحة، تنتظر الخروج من السجن بفارغ الصبر من أجل إنهاء دراستها.

ونظر حوله مرة أخرى، ثم أكمل:

- لقد أشرفتُ على وعي أكثر من سجين، وهناك أشخاص نتوقع منهم العنف، وهؤلاء نراقبهم بحذر، ونجمِّد وعيهم مؤقتًا إذا شعرنا أنهم على وشك ارتكاب شيء خطير. أما ليان، فكان احتمال تورطها في أي عنف شبه مستحيل.

ثم صمت للحظة، وأردف وهو ينظر في عينَي يحيى:

- حتى لو سُجنت بسبب إحداث عاهة مستديمة لأحدهم.

ابتلع يحيى ريقه بتوتر، وكأنه تذكر ما حدث قبل دخولها السجن، فاستطرد أسامة:

- في رأيي، كانت تلك الفعلة دفاعًا عن الشرف وليست جريمة، لكن ليس هذا مجال حديثنا الآن.

ثم خفض من نبرة صوته، وهو يتابع:

- لقد فوجئنا جميعًا بما أقدمت عليه ليان، مثلما فوجئنا بقرار إيقاف مجموعتنا عن العمل في اليوم نفسه. كنت أبرِّر لنفسي ذلك القرار بتقصيري في العمل وسوء تقديري لسلوك ليان، لكن قبل إيقاف

ولوجي إلى النظام بلحظات، اكتشفتُ شيئًا لا أعتقد أن أحدًا غيري قد انتبه إليه.

فسأله يحيى في ترقب:

- ماذا اكتشفت؟!

قال:

- إن التاريخ المُعلَن لاستئجار جسد ليان غير صحيح، لم يكن بالأمس كما هو مُسجَّل في نظام السجن المركزي. لقد رُفع جسد ليان من قوائم الإيجار قبل ارتكابها الجريمة بيوم كامل، واستُؤجر لعشرين عامًا قبل صدور الحكم في قضيتها بساعات.

فاتسعت عينا يحيى ذهولًا، وسأله:

- وماذا يعني ذلك؟!

فأجابه أسامة وهو يحدِّق إلى وجهه:

- هذا يعني أن المستأجر كان يعرف مسبقًا أن ليان سترتكب تلك الجريمة، وأنها ستنال تلك العقوبة، وقد أعدَّ العدة للاستيلاء على جسدها قبل أي شخص آخر.

(4)

احتقن وجه يحيى صدمةً، وتسارعت أنفاسه، قبل أن ينفجر بصوت مضطرب:

- هل تقصد أنه تم التلاعب عمدًا في وعي ليان كي ترتكب تلك الجريمة؟

هز أسامة رأسه نافيًا، ثم قال:

- لو حدث التلاعب بوعيها لظهرت عليها بوادر عدوانية قبل الجريمة، وهذا لم يحدث قط. كانت مؤشرات الغضب والعنف في وعيها في أدنى المستويات حتى آخر لحظة.

ثم صمت لبرهة، وكأنه يعيد ترتيب أفكاره، قبل أن يتابع:

- هناك شيء غير طبيعي قد حدث، لكن ما هو؟ لا أعرف.

سأله يحيى:

- ولماذا لم تبلغ رؤساءك بأمر رفع جسد ليان من قوائم الإيجار قبل ارتكابها الجريمة، واستئجاره لمدة تطابق مدة عقوبتها قبل صدور الحكم، لماذا لم تطلب فتح تحقيق في الأمر؟

قال:

- لقد تم إيقاف حسابي قبل أن أحصل على نسخة من تلك البيانات، إن أبلغت عن الأمر الآن سيتم تعديل التواريخ في الحال، وبعدها

سيلقون بي إلى الهاوية كي لا يعرف أحدٌ عن الأمر. لا بد أن الفاعل يمتلك نفوذًا عظيمًا يمكّنه من فعل أي شيء، أو شراء أي ذمة.

ثم التفت حوله، قبل أن يكمل:

- لذا لم أخبر أحدًا من زملائي بما اكتشفته، وقررت أن أبحث عن الحقيقة بنفسي، ولولا أنني صادفت وجودك منذ ساعات في السجن، ورأيت تعابير وجهك الصادقة وأنت تتلقى صدمة ما حدث لليان، لما تتبعتك إلى هنا.

فقال يحيى بإصرار:

- لن أقف مكتوف الأيدي. لقد خذلتُ ليان من قبل، لكني لن أفعلها مجددًا، لن أسمح بأن تُسرق حياتها وأنا أتفرج.

فقال أسامة:

- وأنا معك، فمن جهة، أنا واثق أن الفتاة بريئة. ومن جهة أخرى، أريد أن أثبت أن فصلي كان قرارًا ظالمًا.

ثم حذّره بسبابته وهو يضيف:

- لكن علينا أن نتحرك في الخفاء كي لا يُكتشف أمرنا. فمن لديه النفوذ لاختراق أهم منظومة في بلدنا سيكون قادرًا على فعل أي شيء بنا إن شعر بأننا نهدّده.

تنفّس يحيى ببطء، وهزّ رأسه موافقًا، ثم سأله:

- حسنًا، من أين نبدأ؟

قال:

- أمامنا طريقان. الأول: أن نبحث عن المستأجرة السابقة لجسد ليان. قد تكون وراء ما حدث، ربما أُغرمت بالجسد ولم ترد التخلي عنه مهما كانت العواقب. والثاني: أن نتتبع خط سير جسد ليان

منذ خروجه من السجن، لنعرف مستأجرته الجديدة إن كان ظنُّنا بالمستأجرة القديمة خاطئًا.

وأضاف قبل أن ينطق يحيى:

- لا تسألني كيف لا أعرف اسم المستأجرة القديمة رغم عملي بالسجن. فقسم الإيجار مستقل تمامًا عن القسم الذي كنت أعمل فيه، لذا لا نهتم بمعرفة أسماء المستأجرين. حتى السجن نفسه الآن لن يمدنا باسم المستأجرة القديمة طالما صار هناك مستأجر جديد.

قال يحيى بهدوء:

- لا، لم أكن لأسألك عن هذا الأمر، أعتقد أنني أعرف من يخبرنا باسم المستأجرة القديمة.

سأله على الفور:

- من؟

قال:

- المحامي نادر القصبي. محامي ليان، لقد زرته أكثر من مرة للاطمئنان على ليان، ولم يذكر لي من قبل أن المستأجرة القديمة قد أخفت بياناتها، لا بد أنه يعرف اسمها. كنت عنده منذ قليل، يمكنني العودة إليه وسؤاله.

قال أسامة:

- ممتاز.

ثم أردف:

- وأنا أعرف صديقة اسمها فريدة، تعمل في إدارة مراقبة الأشخاص عبر بصمة الوجه البيومترية. يمكنها الدخول إلى شبكة كاميرات المدينة، وإخبارنا بمسار جسد ليان منذ خروجه من بوابة السجن

حتى آخر ظهور له. سأتواصل معها من أجل لقائها وإخبارها بما نريده وجهًا لوجه.

فهز يحيى رأسه موافقًا، وسأله:

- هل ستأتي معي إلى محامي ليان الآن؟

قال أسامة:

- لا أظن أن ظهور شخص آخر معك في مكتبه سيكون فكرة جيدة. قد يثير شكوكه. الأفضل أن تذهب وحدك.

ثم قرَّب قلادته البيضاوية من قلادة يحيى، فومض سطحها بضوء أزرق خافت يشير إلى تبادل بيانات التواصل بينهما، وتابع:

- هناك مقهى قديم اسمه «وطن» في شارع 18 بحي الطلائع. لنلتقِ هناك اليوم في الثامنة مساءً. أكون قد رتبت لقاءً مع فريدة بعد انتهاء عملها. وتكون قد أحضرت لنا اسم المستأجرة القديمة من المحامي.

فأومأ يحيى برأسه موافقًا في صمت.

***

في طريق العودة إلى مكتب نادر القصبي، كان يحيى يسرع في خطواته، كأن اضطرابه الداخلي يدفعه للركض. قبل أقل من ساعة، كان يسأل نفسه في شك وإنكار: كيف تقتل ليان مرام؟! أما الآن، فبات كل شيء واضحًا. الفتاة ضحية لمؤامرة خسيسة من أجل أن يُسرق جسدها.

فكر في أن يخبر المحامي بما اكتشفه أسامة، لكنه تراجع، إذ تذكر البرود الذي وجده عليه حين التقاه في وقت سابق من اليوم، وكأن الأمر لا يعني إحدى موكلاته، ولوهلة راودته فكرة أن يكون ذلك المحامي أحد المتورطين فيما يحدث لليان. ولِمَ لا وهو لم يحرك ساكنًا نحو ما أصاب الفتاة.

- أريد اسم مستأجرة جسد ليان خلال السنوات الثلاث الماضية.

فرفع المحامي حاجبيه مستغربًا:

- لماذا؟

كان يحيى قد فشل في إيجاد أي مبرر مقنع لهذا السؤال خلال فترة انتظاره، فأجابه باختصار:

- فقط أخبرني باسمها، أرجوك.

ضم نادر شفتيه متبرمًا، ثم نقر بغير اكتراث على الزر الموجود بسطح مكتبه، فظهرت الشاشة الشفافة أمامه، فحرك إصبعه عليها متنقلًا بين النوافذ، حتى وصل إلى ملف ليان، ففتحه، ثم فتح إحدى الخانات في داخله، وقال:

- زينة حلمي رأفت. سبعة وعشرون عامًا. تسكن في فيلا رقم 4، منطقة الفلل القديمة، حي الياسمين. رقم هويتها: 37306121408

ثم ابتسم ابتسامة سمجة، وأضاف:

- هل تريد شيئًا آخر؟

فنهض يحيى وقال:

- لا، شكرًا.

فأردف المحامي:

- حسنًا، أتمنى ألا تعود مجددًا اليوم. إن لدي الكثير من القضايا الأخرى. وإذا جد جديد في قضية ليان، سأتواصل معك بنفسي.

هز يحيى رأسه، وغادر المكتب ولسانه يردد بيانات زينة بلا توقف.

***

في تمام الثامنة مساءً، كان يحيى يجلس إلى طاولة في مقهى «وطن»، وأمامه كوب من الشاي، وقطعة بسكويت لم يمسها. ثم بدأ

القلق يتسلل إلى قلبه، بعدما مرَّت ساعة ولم يظهر أسامة خاصةً أنه حاول الاتصال به أكثر من مرة ولم يجبه، سأل النادلَ إن كان هناك مقهى آخر في ذلك الحي يحمل نفس الاسم، فأجابه بالنفي، فلم يجد أمامه سوى الانتظار.

بعد نصف ساعة أخرى، ظهر أسامة أخيرًا. جلس واعتذر عن تأخره دون أن يذكر السبب. ثم قال:

- ستصل فريدة بعد قليل. هل حصلت على اسم المستأجرة؟

أومأ يحيى إيجابًا، وقال:

- نعم، حصلت على بياناتها من المحامي، إنها فتاة تسكن في حي الياسمين. سأرسل إلى هاتفك تلك البيانات.

فقال أسامة:

- ممتاز.

بعد لحظات، دخلت إلى المقهى امرأة ثلاثينية، بنظارات طبية، وحقيبة صغيرة على ظهرها. بدت حائرة لا تعرف إلى أي طاولة تتجه وكأنها تبحث عن شخصٍ معين، فرفع أسامة يده وقال:

- هنا يا عزيزتي.

تذكر يحيى حينها أن أسامة لا يستخدم جسده الحقيقي، لذا من الطبيعي ألا تتعرف عليه، حتى إن السيدة لم تتقدم إليهما إلا عندما نهض إليها أسامة وأراها شيئًا على شاشته الصغيرة التي ظهرت مع ضغطِه زر قلادته، لتضربه برفق على صدره، وتقول وهي تتقدم نحو الطاولة:

- أيها الوغد، ما زلتَ تستأجر الأجساد؟ ألم يحذرك أخوك بأنه سيفجِّر جسدك إن لم تتخل عن هذه العادة؟!

ضحك أسامة ونظر إلى يحيى قائلًا:

- لا تصدقها، صحيح أن أخي يعمل في مجال المتفجرات، لكنه ليس عدوانيًا إلى هذا الحد.

ثم التفت إليها وقال مشيرًا إلى يحيى:

- هذا صديقي يحيى.

مد يحيى يده قائلًا:

- يحيى كمال، طبيب بيطري.

صافحته وقالت:

- فريدة الزغبي. تشرفت.

جلسوا معًا، وبعدها قال أسامة لفريدة مباشرةً:

- هناك جسد يخص إحدى السجينات، نريد معرفة آخر مكان ظهر فيه بالمدينة.

رفعت حاجبيها وقالت:

- تعلم أن هذا يستلزم تصريحًا أمنيًا.

قال أسامة:

- أعلم، لكني أعتمد عليكِ. لن تخذليني، كما لم تفعلي من قبل.

قالت:

- آسفة يا صديقي. هناك تشديد كبير مؤخرًا. احصل على التصريح، وسأساعدكما فورًا.

قال أسامة بجدية:

- لقد فُصلت من عملي لسبب يرتبط بهذه الفتاة، وإذا لم أصل إليها في أقرب وقت قد أموت جوعًا مع عدم قدرتي على العمل بوظيفة أخرى.

تغيرت ملامحها قليلًا، لكنها سرعان ما استعادت ثباتها وقالت:

- آسفة يا أسامة. إن تم اكتشاف هذا الأمر، سأفقد أنا الأخرى وظيفتي.

فتدخل يحيى قائلًا:

- لقد أُدينت هذه الفتاة ظلمًا بجريمة قتل، وحُكم عليها بالسجن عشرين سنة إضافية. وتم استئجار جسدها لتلك المدة، نحن نحاول إنقاذها.

ثم أضاف راجيًا:

- أرجوكِ، إنها لا تملك أحدًا في الدنيا قد يساعدها غيرنا، لا بد أن نصل لجسدها ونعرف من تسبب فيما حدث لها.

فقالت فريدة بنبرة حاسمة:

- دون تصريح رسمي، لن أساعدكم.

ثم التقطت قطعة البسكويت الموضوعة على الطاولة، وغادرت بهدوء بينما جلس يحيى وأسامة ينظران إلى بعضهما، حتى قال أسامة:

- لم يعد أمامنا سوى المستأجرة السابقة. ربما نجد هناك شيئًا يفسّر ما حدث.

فأومأ يحيى موافقًا، وقال:

- حسنًا، لنذهب إليها معًا في صباح الغد.

***

في الصباح التالي، كان يحيى وأسامة يقفان أمام بوابة فيلا رقم 4 في حي الياسمين. مسح يحيى وجهه أمام الماسح البيومتري للبوابة، وبعد لحظات صدر صوت رجل عجوز عبر الماسح:

- ماذا تريد؟

أجاب يحيى:

- نودُّ مقابلة السيدة زينة حلمي رأفت.

ساد صمت قصير، ثم فُتح القفل، وانفرجت البوابة قليلًا، لتسمح لهما بالعبور.

تقدما إلى الحديقة الأمامية. كانت بسيطة، بأشجار قصيرة مرتبة وممشى حجري يؤدي إلى باب الفيلا الذي كان مواربًا. دخلا بخطى حذرة مع عدم وجود من يرحب بهما، وجلسا في صالة الاستقبال، في انتظار ظهور أهل تلك الفيلا.

بعد لحظات انتبه يحيى إلى صورة ليان، موضوعة على أحد الرفوف بجوار صور أخرى لفتيات مختلفات. فنهض واقترب من الصورة وأمسك بها وأخذ يتأملها في صمت، بينما نهض أسامة ليتفحص صور الفتيات الأخريات، قبل أن يقول:

- يبدو أن هذه الفتاة كانت تستأجر أجساد الفتيات الجميلات فقط.

أومأ يحيى وهو يلقي نظرة عابرة على صور الفتيات الأخريات، ثم سأله:

- هل تعتقد أن الفتاة لا تزال تحتفظ بجسد ليان؟

وقبل أن يجيبه أسامة، نزل إليهما رجل ستيني نحيف، وجهه مجعد يظهر عليه التعب بشدة، على غير عادة سكان تلك الفلل الفارهة الذين يؤجِّرون أجسادًا شابة متى شاؤوا. رحَّب بهما، ثم سألهما بلطف:

- ماذا تريدان من زينة؟

قال يحيى بتردد:

- أعتقد أنها تستأجر جسد حبيبتي. وأنا على وشك السفر وترك المدينة لمدة طويلة، وأريد أن أراها مرة أخيرة قبل الرحيل.

نظر الرجل إلى الصور الموضوعة على الرف، ثم قال:

- تقصد جسد ليان؟

أومأ يحيى برأسه، فأجاب الرجل:

- لقد تركت ابنتي هذا الجسد منذ قرابة شهر ونصف.

نظر يحيى وأسامة إلى بعضهما بعضًا في اندهاش، مع علمهما بأن مدة إيجار جسد ليان السابقة كانت من المفترض أن تنتهي قبل سبعة عشر يومًا فقط، لا قبل شهر ونصف، وحينها سأل أسامة الرجل متعجبًا:

- لماذا تركت ابنتك الجسد قبل شهر كامل من انتهاء المدة؟ هل رغبت في استئجار جسد آخر، أم أجبرها أحد على التخلي عن ذلك الجسد؟

فقال الرجل بنبرة تخنقها الدموع:

- لأن ابنتي ماتت.

تجمَّد يحيى، وتبادل نظرة صادمة مع أسامة، بينما تابع الرجل:

- وفي اليوم نفسه استعاد السجن جسد ليان.

ثم أشار إلى الصور الموضوعة على الرف، وأكمل:

- كنت أتمنى أن أضع صورة لزينة بجسدها الأصلي بين هذه الصور، لكنها لم تحب جسدها يومًا. ولم تلتقط له صورة واحدة منذ وعت على الدنيا، حتى الصور التي كنت قد التقطتُها لها في الطفولة تخلصت منها جميعها.

ثم أردف وهو يواصل النظر إلى صور الفتيات:

- كل الذكريات بيني وبين ابنتي محفوظة عبر هذه الأجساد فقط، هؤلاء جميعهن ابنتي. وبفضل أجسادهن قضت زينة أجمل أيام حياتها.

ثم التفت إلى أسامة ويحيى وتابع:

- في البداية كنت من أشد المعارضين لفكرة استئجار الأجساد، لكن السعادة التي رأيت عليها زينة مع استئجارها الجسد الأول

جعلتني أغير رأيي، وجعلتني على استعداد لدفع كل ما أملك من أجل أن تواصل حياتها بتلك السعادة.

ثم صمت لحظة، وظهرت دمعة في عينه، قبل أن يقول:

- لكني كنت غبيًّا، كنت أخشى أن يأتي يوم وينتهي العمل بالتطبيق فتعود مجبرة إلى جسدها الأصلي، فحاولت ألا أقطع العلاقة بينها وبينه، فاشترطت عليها أن تعود إلى جسدها الحقيقي ليوم واحد كل شهر كي أواصل تمويلي لاستئجار الأجساد التي تريدها.

وهز رأسه آسفًا:

- لكنها للأسف لم تكن تطيق هذا اليوم حتى، وعندما كانت تذهب إلى المركز الذي يحافظ على سلامة جسدها الأصلي، لاستعادته في ذلك اليوم، كانت تحبس نفسها في غرفة هناك، ولا تخرج منها حتى ينتهي اليوم.

سأله أسامة بتردد:

- هل كانت مريضة بمرض عضال؟

هزَّ الأب رأسه نفيًا، ثم جلس على الأريكة المقابلة وقال:

- لقد وُلدت بمتلازمة «جولدنهار»، حيث يُولد الطفل بتشوُّهات خلقية في الوجه والأذن والعمود الفقري، لكن أعضاءها الحيوية كانت سليمة. وكانت صحتها العامة ممتازة.

فسأله من جديد:

- ما السبب في موتها إذا كانت صحتها العامة ممتازة؟

تنفَّس بصعوبة، ثم نطق بصوت مكلوم:

- لقد انتحرت.

انتفض يحيى من مكانه:

- ماذا؟! كيف يمكن أن تنتحر وهي في جسد فتاة أخرى؟!

قال الرجل بأسى:

- للأسف، لقد أصررت على موقفي بشأن اليوم الذي تستعيد فيه جسدها كل شهر، دون أن أعلم أنها كانت تتناول عقارًا منومًا يجعلها نائمة طوال الساعات التي تقضيها في الغرفة التي تنزوي فيها حتى تستعيد جسدها المؤجَّر.

وتنهد وهو يضيف:

- في المرة الأخيرة، لم تخرج من الغرفة مع بداية اليوم التالي كعادتها. وحين تأخرت، حاولت إحدى الموظفات الاطمئنان عليها، ولمَّا لم ترد، كسروا الباب. فوجدوها جثة هامدة، وبجوارها علبة المنوِّم فارغة.

وانهمرت دموعه على وجنتيه وهو يتمتم:

- جرعة زائدة أنهت حياتها، وكأنها أرادت أن تعاقبني، لأنني لم أسمح لها أن تنسى جسدها الأصلي.

نهض يحيى وربَّت على كتفه مواسيًا، وفعل أسامة الأمر ذاته، ودون أن يسألا أي سؤال آخر غادرا الفيلا في صمت.

***

في الأيام التالية، تواصل يحيى أكثر من مرة مع أسامة ليعرف هل نجح في إقناع صديقته فريدة -مراقِبة بصمة الوجوه- بمساعدتهما، لكن أسامة كان يرد دائمًا بأنه لم ينجح بعد في إقناعها. أما نادر القصبي، فكان يملك ردًّا واحدًا على استفساراته المتكررة بشأن موعد مقابلة وعي ليان: إن الإجراءات لم تنتهِ بعد، وإن عليه الانتظار.

وهكذا، مرت الأيام دون أي تقدم يُذكر.

حتى جاء ذلك اليوم، بعد أسبوعين، عندما كان يحيى يجلس في عيادته البيطرية. ودخلت إحدى الزبائن برفقة قطها المريض، الذي

يعاني من خرّاج في بطنه. وبينما كان يفحص القط، انشغلت السيدة في مكالمة مصوَّرة مع فتاة أخرى عبر شاشة هاتفها التي ظهرت على كف يدها. وحين أراد أن يسألها عن تاريخ بدء مرض القط، تسللت عيناه بغير قصد إلى الفتاة على الشاشة، فشعر أنه قد رآها من قبل، لكنه لم يتذكر أين، فأكمل الجراحة البسيطة للقط، وهو يحاول تذكر أين رآها.

عندما غادرت السيدة العيادة، تذكر يحيى أين رأى تلك الفتاة. لقد كانت صورتها إحدى الصور الموجودة على الرف المُعلَّق في بيت زينة، مستأجرة جسد ليان التي انتحرت. فأسرع خلف السيدة ولحق بها، وسألها:

- هل يمكنني التحدث إلى صديقتك التي كنتِ تتحدثين إليها عبر الهاتف؟

استغربت السيدة، فأردف يحيى:

- أرجوكِ، هل كانت صديقتك سجينة من قبل؟

هزت السيدة رأسها وقالت:

- نعم، إنها أختي الصغرى.

قال يحيى:

- لقد رأيت صورتها عند الفتاة التي استأجرت جسدها من قبل، تلك المسكينة التي انتحرت قبل شهرين تقريبًا.

نطقت السيدة في صدمة:

- انتحرت؟ كيف؟

روى لها ما أخبره به والد زينة، فزمت شفتيها وقالت مستغربة:

- أمر غريب، لقد كانت أختي وزينة صديقتين مقربتين بعد انتهاء مدة عقوبة أختي. ولا أتذكر أن أختي قد أخبرتني من قبل أن الفتاة لديها أي ميول للانتحار.

ثم ضغطت زر قلادتها، وبعد نقرتين على الشاشة التي ظهرت على كف يدها، ظهرت أختها على شاشة الهاتف من جديد. حوَّلت الشاشة إلى الوضع العمودي وسألتها إن كانت قد تواصلت مع زينة مؤخرًا. فقالت الفتاة عبر الشاشة إنها حاولت التواصل معها لكنها لم تتلقَّ أي إجابة، ولم يكن هناك وقت لزيارتها.

قالت السيدة:

- يقول الطبيب البيطري إنها ماتت قبل شهرين.

شهقت الفتاة في صدمة، وصرخت:

- كيف؟!

فأجابتها السيدة:

- يقول إنها انتحرت لأنها لم تكن تطيق جسدها الأصلي ولو ليوم واحد.

فقالت الفتاة:

- مستحيل. لقد أخبرتني أنها تود التوقف عن استئجار الأجساد، وأن تعيش بجسدها الأصلي. لم تكن تكرهه كما يظن الجميع، وكانت تحضِّر تلك المفاجأة لأبيها في عيد ميلاده القادم بعد شهر. لقد كانت تننتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي تخبره فيها بذلك الأمر.

ثم أردفت بتصميم:

- من المستحيل أن تكون قد انتحرت لهذا السبب. أنا متأكدة مما أقول. لقد كانت تنوي إعادة جسد ليان إلى السجن خلال الشهور الأخيرة، لكنها خافت أن تستأجره فتاة أخرى وتسيء استخدامه، فآثرت أن تكمل المدة إلى نهايتها حتى لا يُعرض للإيجار من جديد.

وهزت رأسها غير مصدقة قبل أن تكمل:

- بعدها كانت ستستعيد جسدها الأصلي، وتقدّم لأبيها أي حجة تؤجِّل بها استئجار جسد جديد حتى تعلن له عن مفاجأتها في عيد ميلاده.

لقد قدّمت لي الدعوة بالفعل لحضور تلك المناسبة، لست وحدي التي دعتها، بل دعت جميع الفتيات اللاتي استأجرت أجسادهن لتشكرهن وتخبرهن بأنها تنوي الاعتماد على جسدها فيما تبقى من عمرها. لا تصدّقي هذا الرجل.

وأغلقت المكالمة.

فنظرت السيدة إلى يحيى، فهز رأسه في صمت، والكثير من الأفكار بدأت تعصف برأسه من جديد.

(5)

غادرت المرأة، بينما ظل يحيى واقفًا في مكانه يستجمع ما قالته أختها بأنفاس متباطئة، بعدها عاد إلى داخل عيادته وضغط زر قلادته وهاتف أسامة، وما إن أجابه حتى قال دون مقدمات:

- لم تنتحر الفتاة.

تساءل أسامة في تعجب:

- ماذا؟ لا أفهمك.

قال:

- زينة، لم تنتحر. كانت تحب جسدها الأصلي، وكانت تستعد للعودة إليه نهائيًا.

صمت أسامة قليلًا، ثم قال بنبرة حازمة:

- لنلتقِ في مقهى وطن بعد نصف ساعة من الآن.

قال:

- حسنًا

وأغلق الخط.

***

عندما التقيا في المقهى حكى له ما حدث في عيادته البيطرية، وكيف أكدت له الفتاة التي تحدث إليها عبر هاتف أختها، أن زينة كانت

تنوي العودة لجسدها الأصلي بعد إرجاع جسد ليان للسجن، فصمت أسامة مفكرًا، ثم قال:

- هذا يغير كل شيء، إذا كانت زينة قد قررت العودة إلى جسدها الأصلي، فلماذا تنتحر فجأة؟

أومأ يحيى برأسه متفقًا معه، وقال:

- نعم، هذا ما فكرت فيه بعد انتهاء مكالمتي مع تلك الفتاة، لذا هاتفتك في الحال.

فقال أسامة وهو يطالع فنجان قهوته:

- علينا أن نزور مركز تأهيل الأجساد الساكنة الذي كان يحافظ على جسد زينة الأصلي في أثناء استعمالها الأجساد المؤجَّرة.

وأطلق زفيره ثم أكمل:

- لكن علينا أن نعرف عنوانه أولًا.

فقال يحيى:

- علينا أن نعود إلى والدها كي نعرف ذلك العنوان.

هز أسامة رأسه موافقًا في صمت، ثم نهضا وتوجها معًا إلى والد زينة مرة أخرى، وفي مقابلة لم تستغرق أكثر من عشر دقائق أقنعا ذلك الرجل أنهما فكرا في أمر انتحار ابنته، وقررا أن يقودا حملة توعية لمنع ترك أصحاب الأجساد الأصلية في غرف مغلقة ولو ساعات قليلة، وسيبدآن من المركز الذي انتحرت فيه زينة، دون أن يخبراه بما قالته صديقتها، فأعطاهما الرجل اسم مركز التأهيل: «حورس»، وعنوانه. غير أن قليلًا من الشك تسلل إلى قلبه عندما سأله يحيى عن المكان الذي دُفنت فيه زينة، حتى إنه آثر ألا يخبره في البداية، كونه شأنًا خاصًا، لكن حين أومأ يحيى متقبلًا رغبته في عدم إخباره، وهمّ بالمغادرة مع أسامة، سأله الرجل قبل أن يعبر الباب:

- لماذا تريد معرفة مكان قبرها؟

فأجاب يحيى كاذبًا:

- لقد التقيت إحدى الفتيات اللاتي استأجرت ابنتك جسدها من قبل، وعرفت منها مدى حفاظ ابنتك على الأجساد التي كانت تستأجرها وحرصها على عدم إساءة استخدامها، ربما تقرر ليان زيارة قبرها مستقبلًا لتقرأ لها الفاتحة، وتشكرها على الحفاظ على جسدها خلال المدة التي امتلكته فيها.

فهز الرجل رأسه متفهمًا، ثم قال:

- لقد دُفنت في مقابر عائلتنا بالمقابر القديمة، عند أطراف المدينة الغربية، قبر رقم 306.

فشكره يحيى، ثم غادر مع أسامة متوجهيْن إلى مركز تأهيل الأجساد الساكنة.

●●●

كان مركز «حورس» لتأهيل الأجساد الساكنة يقع في حي وسط المدينة، على بُعد شارعين فقط من السجن المركزي. مبنى أبيض شاهق من ستة طوابق، يعجُّ بموظفين يرتدون زيًّا موحَّدًا. في طابقه الأرضي تمتد صالة استقبال واسعة، يستقبل فيها الموظفون كلَّ من يرغب في استئجار كبسولة أو صندوق لحفظ جسده في أثناء خلوِّه من الوعي، وكذلك أهالي النزلاء الذين يزورون المكان للاطمئنان على أجساد ذويهم الساكنة، ومن بين الموظفين مرشدون يتولَّون مرافقة الزائرين في جولات تعريفية يشرحون خلالها طرق العناية بالأجساد طبيًّا، وبدنيًّا، وغذائيًّا.

عندما دخل يحيى وأسامة من البوابة استقبلهما موظف الاستقبال بابتسامة عريضة، فقال أسامة:

- أحتفظ بجسدي الأصلي في مركز تأهيل آخر، وأفكّر في نقله إلى هنا. أريد إلقاء نظرة على المكان قبل اتخاذ القرار.

وأشار مبتسمًا إلى مؤخرة رقبته التي تومض بالضوء الأحمر الخافت. فقال الموظف:

- على الرحب والسعة، سيدي.

ثم نادى شابًا أنيقًا ليرافقهما في جولتهما داخل المركز.

كان الطابق الأول يحتوي على صالة رياضية وأحواض للسباحة، عندما دخلا إليه مع الموظف كان العديد من الأشخاص التي تنبض مؤخرة رقابهم بالضوء الأخضر يتجولون في ذلك الطابق بملابس داخلية، فقال الموظف:

- كما تعلمان، الضوء الأحمر للمستأجر البشري، أما الأخضر فيومض حين يُركّب على الجسد وعي صناعي مبرمج، يقوده بأوقات التريض التي نحرص عليها هنا.

فقال أسامة:

- نعم أعرف ذلك.

أما يحيى فبدا على وجهه الانبهار بما يراه، فكانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها إلى مركز تأهيل للأجساد الساكنة، إذ كانت المرة الوحيدة التي استغنى فيها عن جسده لم تتجاوز أربعًا وعشرين ساعة، احتفظ خلالها بجسده ساكنًا في بيته، على عكس أسامة الذي بدا أنه كلما خاف من تورط جسده في مشكلة ما، هرع إلى استئجار جسد جديد.

كانت الأجساد التي تتجه تتجه للتريض باستخدام الوعي الصناعي مفاجئة ليحيى، فبينما كان يتوقع أن تكون أغلبها مسنة أو تحمل إعاقات أو تشوهات جسدية واضحة، فوجئ بأن عددًا غير قليل منها أجساد

جميلة، ذات صحة جيدة، ولا يظهر عليها أي سببٍ يدفع أصحابها للاستغناء عنها لفتراتٍ طويلة. وحين بدا ذلك التعجب جليًا على وجهه وهو ينظر إلى فتاة شابة ذات جسد ممشوق تنفذ تمارين السباحة بخفة، قال أسامة وهو ينظر إليها أيضًا:

- لا يرضى الجميع عن أجسادهم مهما كانت جميلة. أو ربما تكون مثلي تخشى أن يتورط جسدها الأصلي في مشكلة كبرى.

فأومأ يحيى إيجابًا في صمت. قبل أن يتحرك مع أسامة والموظف نحو المصعد.

●●●

كان الطابق الثاني مخصصًا لقسم التأهيل الأقل تكلفة، إذ كان يضم قاعة كبيرة تصطفُّ فيها صناديق حفظ الأجساد على الجدران كثلاجات حفظ الموتى في المستشفيات، الفارق الوحيد أن أبواب تلك الصناديق مزوَّدةٌ بشاشات تعرض هويات الأجساد النائمة داخلها وعلاماتها الحيوية.

انقبض قلب يحيى وهو ينظر إلى تلك الصناديق، فيما قال الموظف متباهيًا:

- كما تعلمان، لا بد أن نرضي كل الطبقات. استئجار وحدة الحفظ هنا يكلِّف ستين ألف جنيه شهريًا فقط.

شهق يحيى عند سماع الرقم، بينما بدا أسامة ثابتًا كأنه يدفع أكثر من ذلك لحفظ جسده في المركز الذي يشترك به. بعدها، أخبرهما الموظف أن الطابق الثالث نسخة طبق الأصل من الطابق الثاني، فصعدا مباشرة إلى الطابق الرابع، ليجدا قاعته الكبرى تشبه قاعة عرض الأجساد في السجن المركزي حيث الكبسولات الفاخرة الموزَّعة بانتظام في القاعة، بينما تمرُّ الروبوتات بينها لملاحظة أي تغيُّر في العلامات الحيوية للأجساد الساكنة داخلها.

قال الموظف وهو يتجوّل بهما بين الكبسولات:

- هذا القسم يوفّر أقصى درجات العناية، لكنه يكلّف أكثر من الطابقين السفليين.

وكان أحد الأجساد قد انتهى من التريض بالطابق الأول، فمرّ بجوارهم متجهًا إلى كبسولته الزجاجية، بينما تومض مؤخرة رقبته بالضوء الأخضر، وحين بلغ الكبسولة، فتح غطاءها بهدوء، ثم دخلها وأعاد توصيل أنابيب التغذية الوريدية إلى ذراعه، قبل أن يستلقي ويغلق الغطاء مرة أخرى. وبعد أن أغمض عينيه، انطفأ نور رقبته، وعاد جسده إلى وضع السكون. فقال الموظف باسمًا:

- إنه جسد أحد مهندسي المركز المسؤولين عن برمجة الأوعاء الصناعية هنا.

فرفع يحيى حاجبيه دهشةً، فيما أشار الموظف نحو بوابة زجاجية مغلقة، وأردف:

- يتبع هذا القسم أيضًا غرف خاصة، يمكن للعملاء أن يقيموا فيها إن أرادوا استعادة أجسادهم الأصلية لبضع ساعات، فالكثيرون هنا يحنُّون إلى العودة لأجسادهم الأصلية، حتى لو لم يحبوها يومًا.

نظر أسامة نحو البوابة، ثم قال بمكر:

- لا، لن أفعل هذا الأمر، لقد سمعت عن حالة الانتحار التي حدثت عندكم منذ قرابة شهرين.

اضطرب وجه الموظف، وقال سريعًا:

- لا.. لا، لقد كانت حادثة فردية، وهناك إجراءات صارمة من أصحاب المكان كي لا يتكرر ذلك الأمر.

فسأله يحيى:

- هل يُسمح للغرباء بالدخول والخروج عبر تلك البوابة؟

قال:

- لا، إن ذلك القسم مُحكم التأمين، لا يدخل إليه أي شخص إلا بعد التأكد من هويته وبرفقة موظف منا، حتى منظفو الغرف لا يدخلون إلى الغرف إلا بعد التأكد من مغادرة العميل.

وأردف مؤكدًا وهو ينظر إلى أسامة:

- لقد كانت حادثة غريبة لا أكثر ولا أقل.

فقال أسامة بنبرة هادئة:

- حسنًا، لنرَ الغرف.

أومأ الموظف، وتقدم بهما إلى البوابة المغلقة، حيث مسح الماسح الضوئي وجوههم واحدًا تلو الآخر، وأعلن أن جسد أسامة مُؤجَّر للهوية رقم 36708153547، هوية أسامة الأصلية، قبل أن تُفتح البوابة، ليعبروا إلى رواق طويل تصطف على جانبيه أبواب الغرف بهدوء شديد. تساءل يحيى وهو ينظر إلى الكاميرات الكثيرة المعلقة على امتداد السقف:

- هل ثُبتت هذه الكاميرات بعد حادثة الانتحار؟

فأجابه الموظف على الفور:

- لا، إنها هنا منذ زمن طويل.

ثم أشار إلى الأبواب، وقال:

- لكل غرفة هنا مفتاح إلكتروني واحد، يكون مع العميل في الداخل، ويسلِّمه لمسؤول الطابق حين ينتهي من فترة خلوته.

وابتسم وهو يتابع:

- إن فُقد ذلك المفتاح نضطر إلى كسر الباب. وتغييره بالكامل بعدها.

في تلك اللحظة، تذكر أسامة ما قاله والد زينة عن اضطرار موظفي المركز إلى كسر باب غرفتها بعد بقائها في داخلها أكثر من المدة المعتادة، وفكر في نفسه وهو يتأمل الكاميرات المعلقة والبوابة الأمنية التي أغلقت من خلفهم أن دخول أي غريب إلى هذا القسم دون أن يُكتشف أمرٌ شبه مستحيل، فالمكان مراقَب بإحكام، والدخول إليه مُسجَّل بدقة، والغرف لا تُفتح من الخارج إذا كان العميل بداخلها، ولن يورِّط القائمون على إدارة مركز بهذه السمعة أنفسهم في جريمة قد تكلِّفهم خسارة كل شيء، مهما بلغ نفوذ القاتل.

ولوهلة، راودته الشكوك حول تفكيره هو ويحيى، ربما تكون زينة قد انتحرت فعلًا، كما قال الجميع، ربما لم تكن صادقة تمامًا مع صديقتها، أو أنها غيَّرت رأيها في أيامها الأخيرة، ولم تخبر أحدًا بذلك.

قطع أفكاره صوت الموظف وهو يفتح لهما باب إحدى الغرف كي يتفحصا داخلها، فوجداها غرفة بسيطة بها سرير نظيف وطاولة ومقعد وخزانة ثياب صغيرة، وملحق بها حمَّام صغير. فسأله أسامة:

- في أي غرفة حدثت واقعة الانتحار؟ كي أبتعد عنها.

قال الموظف:

- لا يمكن أن أخبرك سيدي، لكني أؤكد لك أن المكان هنا آمن تمامًا.

فقال أسامة:

- حسنًا سأفكر في الأمر، وسأعود في أقرب وقت.

فابتسم الموظف قائلًا:

- على الرحب والسعة في أي وقت سيدي.

***

في طريق عودتهما إلى مقهى وطن، قال أسامة:

- لا يمكن لشخص غريب أن يتجاوز كاميرات الرواق أو بوابته ذات الماسح الضوئي ويسمِّم الفتاة دون أن يُرصد.

قال يحيى:

- ربما يكون أحد الموظفين هناك، أحد منظفي الغرف. ربما يوجد مفتاح آخر للأبواب لا يعرف عنه العملاء شيئًا.

هز أسامة رأسه في غير اقتناع، ثم قال:

- بعد ما رأيته، لا أعتقد أن الفتاة تعرضت لأذى من شخص آخر.

فصمت يحيى لبعض الوقت، ثم أردف بعد تردد، وكأن لسانه لم يرد أن ينطق بما يفكر فيه عقله:

- ربما علينا أن نجري محاولة أخيرة لمعرفة ما إذا كانت الفتاة قد انتحرت فعلًا، أم أن أحدًا تسبب في موتها.

فنظر إليه أسامة مستفهمًا عما يقصده، فتابع:

- إنني أعرف شخصًا قد يؤكد لنا هل الفتاة انتحرت فعلًا أم كانت هناك شبهة جنائية في موتها.

فسأله:

- من؟!

قال:

- جدي لأمي، السيد «عزيز الشريف».

سأله في استغراب:

- وكيف سيؤكد لنا جدك ذلك الأمر؟

قال:

- لقد كان أحد أمهر الأطباء الشرعيين في البلاد قبل تقاعده منذ خمسة عشر عامًا.

نسأله أسامة في ترقب:

- فيمَ تفكر؟!

قال:

- علينا أن نستخرج جثة زينة من قبرها أولاً، وبعدها سيعرف جدي السبب الحقيقي وراء موتها.

(6)

لمدة خمسة أيام، ظل يحيى يحاول إقناع أسامة بأن استخراج جثة زينة هو السبيل الوحيد لتأكيد فرضية انتحارها أو نفيها وإغلاق هذا الباب للأبد، لكن أسامة كان يؤكد في كل مرة يفتحان فيها ذلك النقاش أنه وإن سعى لإثبات براءة ليان فلا يعني ذلك أن يورّط نفسه في جريمة جسيمة قد تُكلفه الحرمان من جسده الأصلي لسنوات، بينما يُحبس وعيه في المكان الذي أشرف على مراقبته طويلًا. لم يكن يعرف عقوبة انتهاك حرمة الموتى بالضبط، لكنه كان يدرك أنها لن تقل عن ثلاث أو أربع سنوات في أقل تقدير. كما أنه ليس بذلك الشجاع الذي يظنه يحيى، وإلا لما اختبأ خلف جسد مستأجَر خشية أن يرتبط اسمه بتلك القضية.

في النهاية لم يجد يحيى أمامه سوى خيار واحد؛ أن يفعلها بمفرده. وبعد زيارتين متتاليتين لمنطقة المقابر القديمة التي تقع على بعد نحو ثلاثة كيلومترات من أطراف المدينة الغربية، وتجوله فيها حتى الوقوف في النهاية أمام القبر 306، المحفور على رخامته الأمامية اسم زينة وتاريخ وفاتها، قرر أن يعود إليها في الليلة المقمرة في منتصف الأسبوع، حيث تقل زيارات المقابر عن أيام آخر الأسبوع.

في اليوم السابق لتنفيذ الخطة، سأله أسامة حين التقيا إن كان ينوي استئجار جسد قوي لاستخراج الجثة، سواءً للتمويه أو لاستغلال قوته في الحفر، فأجابه:

- لا، لن أستأجر أي جسد. لقد فعلتُها مرة، وأقسمتُ ألا أفعلها مرة أخرى، مهما كان السبب.

ثم أضاف:

- لقد درست منطقة المقابر جيدًا، لا توجد هناك كاميرات، وهناك شق كبير في السور المهترئ المحيط بها، بعيدًا عن البوابة الرئيسية. سأستأجر سيارة ذاتية القيادة وأتركها قرب ذلك الشق، لأعبر منه إلى الداخل، وأعود منه أيضًا.

ثم سكت، ونظر في عينَي أسامة علَّه يغير قراره ويرافقه، لكن أسامة هز رأسه وقال ببساطة:

- أتمنى لك التوفيق.

●●●

في الموعد المحدد، وصلت السيارة التي استأجرها يحيى عبر أحد تطبيقات النقل، وتوقفت على بُعد شارعين من بيته، فتحرك إليها وهو يحمل حقيبة سوداء صغيرة على ظهره، ثم ركب بالمقعد الخلفي، وأمرها أن تتجه نحو البوابة الغربية للمدينة، لتجتازها إلى الطريق السريع. وبعد نحو ثلاثة كيلومترات، انعطفت بأمر منه إلى الطريق الترابي المؤدي إلى منطقة المقابر القديمة، حتى توقفت على بعد خمسمائة متر من سور تلك المنطقة، فنزل منها حاملًا حقيبته، وتقدم إلى السور، ينير القمر طريقه، حتى وصل إلى الشق، فنظر إلى عقارب ساعته المضيئة على معصمه، فوجدها تشير إلى الواحدة والربع صباحًا.

فكر قبل أن يعبر إلى الداخل في إمكانية تتبع الشرطة خط سير السيارة لتكشف تورطه في جريمة إخراج جثة من قبرها، لكنه تذكر أن شركة النقل التي توفر تلك السيارات قد أكدت في إعلاناتها أكثر من مرة حرصها على خصوصية العملاء، إذ يستطيع العميل بلمسة زر

واحدة محو خط سير السيارة بعد نهاية رحلاته، وبذلك لن يستطيع أحد معرفة إلى أي مكان توجهت، ما لم تلتقطها كاميرات المراقبة.

ضغط زر قلادته، فظهرت الشاشة الصغيرة على كفه، حرك الأيقونات سريعًا حتى وصل إلى التطبيق الذي حجز منه سيارة الأجرة، وولج إليه ونظر إلى خيار محو سجل الرحلات، كأنه يتأكد بنفسه من وجود ذلك الخيار قبل الشروع فيما يخطط له. بعدها، تسلل عبر شق السور إلى الداخل وهو يحمد الله في سره أنهم لم يجددوا تلك المنطقة منذ ما يقرب من مائة عام، وكأن اهتمام الجميع بالحياة قد أنساهم كل شيء يخص الموتى.

كان قبر زينة مثل باقي القبور، مبنيًا بالطوب الأسمنتي فوق سطح الأرض، ومُغلقًا ببوابة حديدية صغيرة ذات قفل كبير. حين وصل إليه التفت حوله بحذر ليتأكد من عدم وجود أي شخص في الجوار، ثم نزل على ركبتيه وأخرج من حقيبته كشاف رأس صغيرًا ثبّته فوق جبينه وأضاءه، ثم أخرج محقنًا يحتوي على سائل حارق اشتراه من أحد المتاجر الرقمية، ودس سنّه في القفل وضغط المكبس، فبدأت فقاعات صغيرة تخرج من ثقب المفتاح، تبعها صوت خافت لتآكل المعدن. ولم تمضِ لحظات حتى انفتح القفل.

فتح يحيى باب القبر وزحف إلى الداخل، حيث دُفنت الجثة بالطريقة التقليدية أسفل أرضية القبر، ثم وارب الباب من خلفه رغم الرائحة الخانقة التي كانت تعبق في القبر، وأخرج من الحقيبة فأسًا صغيرة، ضغط زرًا في عصاها، فتمددت حتى صارت بطولٍ مناسب، فبدأ الحفر.

●●●

بعد عشرين دقيقة من الحفر ظهر طرف الكفن الأبيض أخيرًا، لم يكن مهترئًا كما تخيل، لكنه كان متّسخًا وملتصقًا بطبقة ترابية رطبة. فأزاح التراب بيده في بعض المواضع، وأعاد استخدام الفأس في

مواضع أخرى، حتى ظهرت الجثة بالكامل، ملفوفة بالكفن من الرأس حتى القدم. فكر في أن يفتح الكفن عند منطقة الرأس للتأكد من كونها الفتاة المقصودة، لكنه تذكر في تلك اللحظة أنه لا يعرف شكل زينة أصلًا، وأن كل اعتماده على ما قاله والدها بأنها دُفنت في ذلك القبر، فأطلق زفيرًا عميقًا، ثم أخرج من حقيبته كيسًا جلديًا طويلًا بسحّاب جانبي، فتحه بعناية، ثم رفع الجثة ووضعها في داخله ببطء، وأغلق السحّاب مرة أخرى.

بعد ذلك، خرج من القبر وتفحّص المكان بعينيه، ثم ولج سريعًا إلى تطبيق سيارة الأجرة، وأمر السيارة أن تتقدم إلى موقع حدده بجوار سور منطقة المقابر، وحين بدأت نقطة خضراء تتحرك على خريطة التطبيق، مشيرة إلى استجابة السيارة للأمر، أدخل فأسه سريعًا في حقيبته، وعلّقها على ظهره، ثم جرّ الكيس الذي يحتوي على الجثة إلى خارج القبر، وأغلق الباب الحديدي بقفلٍ مشابه كان قد اشتراه مسبقًا.

بعدها، أطفأ ضوء الكشاف، وحمل الكيس، وتقدم نحو الشق في السور، ليتسلل منه إلى الخارج، ويضع الجثة في صندوق السيارة الخلفي، قبل أن يأمرها بالانطلاق نحو الطريق السريع، ومنه إلى قرية «الصفصافة»، حيث يعيش جده، الطبيب الشرعي المتقاعد.

***

في تمام الساعة الثالثة والنصف فجرًا، وصلت السيارة إلى مشارف قرية الصفصافة، لتنعطف إلى مدخلها، وتتقدم ببطء وسط هدوء شوارعها المريب، بينما يوجهها يحيى بأوامره الصوتية، حتى توقفت أخيرًا أمام بيتٍ قديم محاطٍ بسورٍ طوبيٍّ تغلقه بوابة خشبية كبيرة لم يكن إلا بيت السيد عزيز الشريف، جد يحيى.

هبط يحيى من السيارة وتقدم إلى بوابة البيت، ثم أخرج مفتاحًا قديمًا من جيبه، وفتح البوابة، ثم حاول أن يفتح الباب الداخلي للبيت، إلا أنه كان

موصدًا من الداخل، فضغط زر قلادته وحاول الاتصال بجده، لكن جاءته الرسالة الصوتية بأن الهاتف المطلوب مغلق، فاضطر إلى طرق الباب، وهو يحاول ألا يُحدث ضوضاءً توقظ أصحاب البيوت المجاورة.

في تلك الأثناء، تذكر يحيى أنه لم يزر جده منذ ما يقرب من عام ونصف، رغم كونه حفيده الوحيد، فلام نفسه، إلا أن ما كان يشغل باله حقًا هو ردُّ فعل جده حين يعلم أنه جاء إليه بعد تلك المدة بجثةٍ مسروقة من قبرها. فقد اتخذ يحيى قراره واستخرج الجثة وأتى بها إلى بابه دون أن يتواصل معه أو يخبره أي شيء عن تلك الفعلة المجنونة.

بعد خامس نوبة من الطرقات المتكررة، سمع يحيى أخيرًا صوت احتكاك عصا بالأرض يأتي من الداخل، وخطواتٍ بطيئة تتقدم نحو الباب. وبعد لحظات، سمع صوت جده يسأل من خلف الباب:

- من الطارق؟

فأجاب يحيى:

- أنا يحيى، يا جدي.

لكن جده تساءل من جديد:

- من الطارق؟

فقال بصوتٍ أعلى:

- يحيى، يا جدي.

فتح جده الباب، وهو يثبّت سماعته الطبية خلف أذنه، وما إن رأى يحيى أمامه في ذلك التوقيت، حتى سأله بنبرة تجمع بين الاستغراب والقلق:

- يحيى؟! هل حدث شيء؟! أأنت بخير؟!

ردَّ يحيى بصوتٍ هادئ:

- أنا بخير، يا جدي، لكنني بحاجة إليك.

رفع الجد حاجبيه في تعجب، ثم قال:

- هيا، ادخل.

قال يحيى:

- سأحضر شيئًا من السيارة، وأتبعك.

ثم عاد إلى السيارة، وأمرها أن تدخل عبر بوابة البيت إلى داخل السور، حيث وقفت أمام باب البيت الداخلي مباشرة. بعدها، تلفّت يمينًا ويسارًا متأكدًا من عدم وجود أيٍّ من الجيران في شرفات بيوتهم أو نوافذها، ثم فتح صندوق السيارة الخلفي، وحمل الكيس الجلدي الذي يحوي الجثة، وتقدم به نحو باب البيت حيث يقف جده الذي حدّق إليه في شكٍّ كبير، قبل أن يسأله:

- ما هذا؟

فقال وهو يتقدم إلى الداخل:

- سأشرح لك كل شيء الآن.

●●●

وضع يحيى الكيس على الأرض بحرص على مقربة من السلم المؤدي إلى القبو، بينما أغلق جده الباب واقترب منه وتساءل من جديد:

- ما هذا؟

فقال يحيى:

- أعتقد أنك تعرف ما هذه.

سأله:

- جثة؟!

هز يحيى رأسه دون أن يقول شيئًا، فأردف جده بقلب ينتفض قلقًا:

- هل قتلت أحدًا؟!

قال يحيى:

- لا، إنها جثة فتاة مسكينة قيل إنها انتحرت منذ شهرين، وجئت إليك لتؤكد لي هذا الأمر أو تنفيه.

صاح فيه جده:

- هل جننت؟!

فقال:

- أرجوك، دعني أشرح لك الأمر، ولن أجبرك على شيء.

فقال:

- خذها وعد إلى حيثما جئت.

فقال يحيى:

- أرجوك يا جدي، إن ليان في ورطة كبرى وقد تكون نجاتها في معرفة ما حدث لهذه الفتاة.

لم تكن ليان في نظر السيد عزيز مجرد فتاة أحبها حفيده، بل كانت قريبة إلى قلبه كما لو كانت واحدة من عائلته. منذ أن رآها أول مرة، أحبَّ هدوءها، واحترامها، وبساطتها التي دخلت قلبه دون استئذان. كانت تزوره كثيرًا برفقة يحيى، وفي كل زيارة كانت تحرص على أن تجلب له شيئًا يُسعده: أكياس الحلوى التي يحبها، أو علبة من الشاي الفاخر، أو كتاب قديم عن التشريح. ثم تجلس بجانبه، تسأله عن الطب وعن أيام شبابه، وعن القرية، وتستمع إليه باهتمام حقيقي، حتى أصبح ينتظر زياراتها بفارغ الصبر.

وعندما علم بسجنها قبل ثلاث سنوات، لم يستوعب ما حدث، وبقي حزينًا لفترة طويلة. ولم يستطع أن يسامح يحيى بعدما جاءه نادمًا وباكيًا ليحكي له ما حدث.

لذلك، حين سمع اسمها فجأة على لسان يحيى، انتفض قلبه، وسأله بقلق واضح:

- ماذا أصاب ليان مرة أخرى؟ ألم تنته مدة عقوبتها؟!

فأومأ يحيى برأسه نافيًا، ثم بدأ يحكي له كل شيء منذ ذهب إلى السجن يوم انتهاء عقوبة ليان، حتى تلك اللحظة التي جاء فيها إليه برفقة جثة الفتاة التي كانت تستأجر جسدها السنوات الثلاث الماضية، مرورًا بما اكتشفه مراقب الأوعاء الذي يُسمى أسامة.

كان الجد يستمع بتعابير منفعلة دون أن يقاطعه، حتى انتهى يحيى، فأطلق جده زفيره، ثم قال:

- هل تتبعك أحد؟

هز يحيى رأسه نافيًا، فصمت جده للحظة، ثم قال:

- تعرف أن وجود معملي الخاص في قبو هذا المنزل كان سبب الخلاف الأكبر بيني وبين جدتك رحمها الله. لذا لم تطأه قدمي منذ وفاتها. لكن ما دام الأمر يتعلق بليان فلن أتأخر عن تقديم العون.

ثم نظر إلى السلم المؤدي إلى الأسفل، وأردف:

- المعمل يحتاج إلى التنظيف، انزل إلى هناك ونظفه جيدًا، بعدها خذ جثة الفتاة إلى طاولته، سأنزل إليك بعد ساعة.

فقال يحيى في حماس:

- على الفور، أيها الجد العظيم.

***

قضى يحيى الساعة التالية منهمكًا في تنظيف المعمل القديم الواقع في قبو البيت. كانت الغرفة مربعة صغيرة، بجدران أسمنتية وسقف منخفض، تتوسطها طاولة معدنية قديمة، محاطة برفوف صدئة تمتلئ بقوارير زجاجية وأجهزة طبية مهجورة تغطيها طبقات من الغبار. استخدم خرطوم الماء لغسل الأرضية، ومسح الطاولة بقطعة قماش مبللة، ثم فتح النوافذ الضيقة لطرد الرطوبة، حتى عاد إلى المكان شيء من الحياة.

عندما نزل الجد بعد ساعة، رمق المكان بنظرة طويلة، ثم ابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- لم أظن أني سأقف هنا مجددًا.

بعدها، ارتدى مئزره الرمادي المُعلَّق على الجدار، ولبس قفازاته الطبية القديمة، ودنا من الطاولة الكبيرة التي وضع يحيى عليها الجثة بعدما أخرجها من الكيس الجلدي. ثم بدأ يقص الكفن بمقص طبي حتى انكشف الجثمان بأكمله، فتدفقت منه رائحة كريهة حادة، جعلت يحيى يتراجع إلى الخلف، فيما ظل الجد ينظر إلى الجثة بصمت طويل، كأنه يستحضر كل سنوات خبرته.

لم تكن الملامح واضحة، إذ اسودَّت بشرة الوجه في أغلب مواضعها، وتهتك جزءٌ من الخد الأيسر، كاشفًا عن عظام الوجنة. أما العينان، فاختفتا تقريبًا، وحلَّ مكانهما تجويفان غائران، بينما انكمشت الجفون حتى التصقت بعظام محجري العين.

أمال السيد عزيز الجثة قليلًا، فبدا تقوُّس العمود الفقري واضحًا، خاصةً عند منتصف الظهر. فنظر مرة أخرى إلى عظام الوجه غير المتناسقة، وهمس إلى نفسه:

- متلازمة جوادنهار.

ثم تابع فحص باقي الجسد، كانت الذراع اليمنى منكمشة، والجلد في راحة اليد قد تحلَّل في أكثر من مكان. أما البطن والرقبة، فقد تآكلت أنسجتهما بشكل كبير، وبدت العظام في الجزء العلوي من الصدر ظاهرة بوضوح. فهمس إلى يحيى:

- الجثة متحللة بشدة، لكن العظام تحفظ أسرارًا لا تبوح بها الأنسجة.

ثم أشار إلى يحيى أن يناوله صندوقًا معدنيًا يوجد على أحد الرفوف الجانبية، فأحضر يحيى الصندوق، فوضعه الجد بجوار الجثة، ثم

فتحه بهدوء، فظهرت في داخله أدوات تشريح مرتبة في قماش أبيض؛ مشارط ومقصات وملاقط وأوانٍ طبية صغيرة.

تناول مشرطًا ونظر إلى يحيى:

- إن كنت تُصاب بالدوار، اجلس بعيدًا.

هز يحيى رأسه مؤكدًا أنه بخير، فنظر جده من جديد إلى الجثة، ثم بدأ يشقها من أعلى الصدر إلى أسفل البطن باستخدام مشرطه. بعدها، فتح القفص الصدري وتفقد بقايا الرئتين، ثم قال:

- الرئتان تحلّلتا بشكل كبير، من الصعب الآن إثبات أو نفي أي علامات للاختناق من خلال هذه البقايا.

كان يتحدث ببرود تام، بينما بدأ يحيى يشعر بأن معدته تنقلب، وأنه سيتقيأ في أي لحظة قادمة. ومع ذلك، بقي في مكانه يراقب جده الذي انتقل إلى تشريح منطقة البطن، وبدأ يخرج بقايا الأعضاء المتحللة واحدًا تلو الآخر، قبل أن يشق كلًا منها ويفحص ما تبقى من نسيجه الداخلي، حتى قال وهو يفحص بقايا المعدة بحذر:

- لا تزال هناك بقايا حبوب، لم تُهضَم بالكامل قبل الوفاة.

قال يحيى:

- وماذا يعني ذلك؟

قال له:

- انتظر.

ثم انحنى نحو مؤخرة الرقبة، وأزاح جلدها المتآكل بملقط صغير. وبعد أن فحص الموضع جيدًا، أخرج الشريحة الإلكترونية المزروعة تحت عظمة الرأس من الخلف، وناولها ليحيى دون أن ينظر إليه. فأمسكها يحيى بيدٍ ترتجف اضطرابًا، بينما تابع الجد عمله بتركيز وصمت، شقّ بالمشرط ما تبقى من الجلد على طول الرقبة، وحين واجه صعوبة في

فصل الأنسجة المتحللة، استعان بمقص جراحي، وبدأ بتجريد الفقرات العنقية من البقايا المحيطة بها، وهو يهمس إلى نفسه من جديد:

- العظام تحفظ أسرارًا لا تبوح بها الأنسجة.

ثم أخذ يتفقد الفقرات واحدة وراء الأخرى بتركيز شديد، حتى توقف عند الفقرة الثالثة، وهمس وهو يدقق النظر فيها:

- هذا غير طبيعي.

فسأله يحيى على الفور:

- ماذا هناك؟

فأجابه وهو يتحسس الفقرة بإصبعه في تركيز شديد:

- هناك شق طولي، وزاوية مكسورة في الطرف السفلي، هذا ليس تحللًا. هذا كسر.

فتسارعت أنفاس يحيى، واقترب منه، وسأله:

- كسر؟ هل تعني أنها قُتلت؟

فأومأ جده برأسه، وقال بهدوء خبير:

- هذا النوع من الكسر لا يحدث بالسقوط العادي. إنه كسر ضاغط، يحدث مع الخنق أو الضغط المباشر على العنق. هذا الكسر كافٍ لقطع الحبل الشوكي والوفاة الفورية.

ثم أشار بمشرطه إلى أنسجة المعدة التي تختلط بها بقايا الحبوب:

- وعلى الأرجح، أجبر القاتل الفتاة على ابتلاع الحبوب في أثناء ضغطه على رقبتها، لتبدو آثارها في الحلق والمعدة دليلًا على الانتحار.

ثم خلع قفازه، ووضعه على الطاولة، قبل أن ينظر إلى يحيى ويقول:

- هذه الفتاة قُتلت بسبب كسر عنقها، وليس بسبب ابتلاعها الحبوب المنوِّمة.

سأله يحيى بقلب منتفض:

- هل أنت متأكد يا جدي؟

قال:

- نعم.

ثم تحرك ليجلس على مقعد قريب من الطاولة. فضغط يحيى زر قلادته على الفور، واتصل بأسامة قائلًا:

- لم تنتحر الفتاة. هناك إصابة في فقرات العنق، وجدي يؤكد أن هذه الإصابة مميتة، وهي سبب الوفاة الحقيقي.

فقال أسامة:

- أرسل لي موقعك، سآتي إليك فورًا.

***

بعد ساعة ونصف، وصل أسامة إلى منزل السيد عزيز. ثم نزل مع يحيى إلى القبو، فانقبض قلبه عندما رأى جثة الفتاة ممددة على الطاولة، وقد تحللت معظم أنسجتها، بينما كان الصدر والبطن مشقوقين، وبجوارهما أجزاء منزوعة من الجسد. ثم اقترب من الطاولة وهو يرفع ساعده إلى أنفه متأففًا من الرائحة النفاذة، فقال يحيى وهو يشير بعصا رفيعة نحو فقرات العنق:

- هناك.

نظر أسامة نحو الفقرات، لكنه لم يستطع تمييز الكسر، إذ لم يكن يعرف شكلها الطبيعي. فأردف يحيى:

- لقد شرَّح جدي مئات الجثث من قبل، ولن يخطئ في مثل هذا الأمر

كان الجد عزيز لا يزال جالسًا على مقعده الخشبي، يراقب ما يحدث بينهما، وفي يده كوب من الشاي يحتسيه بهدوء، فالتفت إليه أسامة وسأله:

- إن كنت متأكدًا، سيدي، فكيف فاتت هذه الإصابة على الطبيب الذي صرَّح بدفنها؟

فأجابه:

- قلة خبرة منه، أو ربما خدعته ندبة مؤخرة العنق التي تتركها الشريحة المزروعة.

ثم أردف وهو ينظر إلى الجثمان:

- القاتل كان محترفًا وذكيًا جدًا، ووجَّه ضربته القاتلة في مكان الندبة بدقة شديدة.

صمت أسامة لبرهة، ثم التفت إلى يحيى:

- ماذا سنفعل؟

فصمت يحيى حائرًا، بينما قال الجد:

- عليكما إبلاغ الشرطة.

فقال يحيى:

- إن علمت الشرطة بالأمر، سيزجُّون بي وبك في السجن أولًا يا جدي، بعد ما فعلناه بالجثة بصورة غير قانونية.

فضمَّ جده شفتيه في صمت، كأنه أدرك أن حفيده على حق. فقال أسامة:

- وحينها قد يُكتشف أننا ننبش فيما حدث، ، وقد يتم إيذاؤنا بطريقة ما.

ثم سكت للحظة، قبل أن ينظر إلى يحيى، ويتابع:

- علينا أن نحاول إقناع فريدة من جديد، لا لتتبع ليان هذه المرة، بل لاختراق كاميرات مركز التأهيل الذي قُتلت فيه زينة.

أومأ يحيى موافقًا في صمت، وهمَّ بمغادرة القبو مع أسامة، لكن الجد قال وهو يضع كوب الشاي جانبًا:

- إلى أين تذهب؟ خذ معك ما جئتني به.

وأشار برأسه نحو الجثة. فتوقف يحيى في مكانه، وحدّق إلى الجثة بصمت، وكأن فكرة التخلص منها بعد انتهاء جده من التشريح لم تخطر في باله أصلًا.

●●●

غادر أسامة وحده متوجهًا إلى فريدة، بينما بقي يحيى في منزل جده ينتظر حلول الليل. وبعد منتصف الليل بقليل، عاد إلى منطقة المقابر القديمة، ودفن الكيس الجلدي الكبير الذي يحوي الجثة في مقبرة زينة، ثم غطّاه بالتراب. لكنه لم يتمكن من إعادة إغلاق القفل المعدني الذي كان قد وضعه في الليلة السابقة، بعدما اضطر إلى كسره لفتح باب القبر.

وكانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا حين دخل المدينة من جديد فتلقّى اتصالًا من أسامة يطلب منه الحضور فورًا إلى أسفل بيت فريدة في حي الريحان، وأرسل له الموقع. فأمر السيارة بالتوجه إلى هناك وحين وصل، تأكد من محو سجل الرحلات، ثم أنهى استئجار السيارة فانطلقت مبتعدة عنه.

بعد لحظات، التقى بأسامة، فسأله في لهفة:

- هل وافقت؟

فقال أسامة:

- لقد حاولتُ إقناعها لخمس ساعات متواصلة حتى يئستُ، لكنني فوجئت باتصال منها قبل نصف ساعة تطلب أن نلتقي بها، أنا وأنت، في الحال.

فسأله يحيى:

- هل أخبرتك بشيء؟

أجابه:

- لا.

ثم أردف:

- في أحيانٍ كثيرة تُراقب مكالمات العاملين في الوظائف الحساسة، لذا إن كان لديها ما تقوله بخصوص زينة، فلن تذكره عبر الهاتف.

ثم ضغط زر فلاشته، وهاتف فريدة ليخبرها بوصولهما، فطلبت منهما الصعود إلى الطابق الأول، حيث توجد شقة صغيرة تعمل بها بعيدًا عن الطابق الرابع الذي تسكنه مع عائلتها.

●●●

دخلا المبنى، وصعدا عبر المصعد، فوجداها واقفة أمام الباب. فتحت لهما وأدخلتهما الشقة، ثم أغلقت الباب خلفها، وقالت لأسامة:

- لقد اخترقتُ كاميرات مركز التأهيل. لا تسألني لماذا غيَّرت رأيي. ربما كان فراغًا، أو فضولًا، أو تأثيرًا من إلحاحك، أو حتى تعاطفًا مع القتيلة. لا أعلم. المهم أنني دخلت إلى نظام المراقبة، ويمكنكما الآن رؤية ما وصلتُ إليه.

ثم أضافت:

- قلت لي إنكما متأكدان من أن زينة قُتلت قبل شهرين، سأريكما ما حدث بالضبط في الطابق الرابع من مركز حورس للتأهيل، في ذلك التاريخ.

ثم أخرجت لوحًا ذكيًّا من حقيبة جلدية، وثبَّتته أمامهما على الطاولة، ثم حرَّكت أصابع يدها اليمنى على ظهر يدها اليسرى، فظهرت رموز ضوئية متصلة بالشاشة، كتبت من خلالها رمزها السري للدخول إلى النظام، ثم أدخلت اسم المركز وضغطت بضعة أوامر. فانقسمت شاشة

اللوح إلى عدة نوافذ تعرض بثًا حيًا من كاميرات المراقبة في مركز التأهيل، اختارت شاشتين فقط، وكبّرتهما لتملأ الشاشة.

بعدها أدخلت سريعًا تاريخ اليوم المقصود، فعرضت الشاشتان أمامهم مشاهد للموظفين وعمال النظافة وهم يكسرون باب الغرفة، ثم حالة الفوضى والارتباك التي أصابت المكان، فقالت:

- هذه لحظة اكتشاف موت الفتاة. لكن لا توجد كاميرات داخل الغرف، لذا لن نعرف ما حدث تحديدًا، وسنكتفي بالرواق.

ثم سرّعت الفيديو حتى لحظة وصول الشرطة، فأبطأت العرض لتعود اللقطات إلى سرعتها العادية، وبعد دقائق من متابعة التحركات داخل الرواق، أعادت تسريع الفيديو مجددًا، متجاوزةً ساعات لم يكن فيها جديد، حتى توقفت عند اللحظة التي حُمل فيها جسد زينة الأصلي على نقالة إلى خارج الغرفة، لتظهر جثتها على الشاشتين للمرة الأولى.

بعدها، ظهر أحد الروبوتات وهو يدفع كبسولة زجاجية فارغة من القاعة الخارجية إلى الرواق، حتى توقف بها أمام باب الغرفة المكسور، ثم دخل إلى الغرفة، وعاد حاملًا جسد ليان الساكن بين ذراعيه، ووضعه داخل الكبسولة برفق، فهمس يحيى:

- ليان.

فقال أسامة وهو يراقب توقيت التسجيل:

- هذا يؤكد أن جسد ليان عاد إلى السجن في ذلك اليوم.

أما فريدة، فسرّعت الفيديو عكسيًا لساعات لتُريهما ما حدث في الرواق قبل موت الفتاة، حتى أوقفت الفيديو عند نقطة معينة وشغّلته بالسرعة العادية، فظهرت زينة وهي تعبر البوابة الأمنية للرواق بجسد ليان، قبل أن تقف أمام باب الغرفة وتخرِج المفتاح كي تلف إلى الداخل، فثبّتت فريدة الشاشة، وقالت:

- هذه هي اللحظة التي دخلت فيها زينة إلى غرفتها.

ثم عرضت لهما لقطات من جميع كاميرات الرواق، حيث بدا الرواق خاليًا تمامًا إلا من زينة، وأردفت:

- لم يكن هناك أي شخص غريب في المكان.

فقال يحيى:

- ربما كان القاتل بانتظارها داخل الغرفة.

فعادت فريدة بالفيديو إلى الخلف مجددًا، وسرّعت العرض لتتجاوز الأيام والساعات بسرعة، وهي تراقب باب الغرفة، حتى وصلت إلى زيارة زينة للمركز في الشهر الذي سبق وفاتها. فلم يجدوا أي شخص يدخل إلى الغرفة بعد خروج زينة منها في ذلك اليوم، إلا عاملة التنظيف التي دخلت ثم خرجت بعد نحو نصف ساعة، فقالت فريدة:

- لم يدخل أحد آخر إلى الغرفة بين زيارتي زينة إلا هذه العاملة، وقد خرجت كما ترون، ولم يُفتح باب الغرفة منذ ذلك الحين إلا لزينة يوم وفاتها.

ثم أعادت الفيديو إلى اللحظة التي وقفت فيها زينة -بجسد ليان- أمام باب الغرفة، وواصلت تشغيله بسرعة طبيعية، حيث دخلت زينة الغرفة، وبعد دقائق ظهر بالكاميرات روبوت يدفع كبسولة زجاجية تحمل جسدًا ساكنًا عبر بوابة الرواق، ليتقدم بها أمام الغرف، حتى أوقفها أمام باب غرفة زينة، وفتح غطاءها الزجاجي، ثم طرق باب الغرفة، وعاد مغادرًا الرواق إلى قاعة الأجساد الساكنة، حيث أُغلقت البوابة الأمنية من ورائه.

بعدها، نهض جسد زينة الأصلي من الكبسولة بحركة متيبسة نوعًا ما، فتمتم يحيى وهو يراه يغادر الكبسولة ويقف أمام الباب في انتظار أن تفتح زينة الباب:

- لم ترد أن يرى أحد لحظة استعادتها لجسدها الأصلي، فطلبت إحضاره إلى الغرفة بعيدًا عن الأعين!

فقالت فريدة:

- لقد راجعت الشهور السابقة لتلك الزيارة، وفي كل مرة كانت تفعل الأمر نفسه، تدخل إلى غرفتها بجسد ليان، ثم يدفع أحد الروبوتات جسدها الأصلي في كبسولة إليها.

هز يحيى رأسه وهو يشاهد جسدها الأصلي يدخل إلى الغرفة، بعدما فتحت زينة -بجسد ليان- الباب، قبل أن يُغلق الباب مرة أخرى.

بعدما ظل الرواق خاليًا، فسرّعت فريدة الفيديو، حتى وصلت إلى اللحظة التي كسر فيها العاملون الباب بعد مرور ساعتين على انتهاء اليوم المعتاد لبقاء زينة في غرفتها، فتنهد أسامة، وقال:

- لم يدخل إليها أي غريب بالفعل.

أومأ يحيى متفقًا معه دون أن يقول شيئًا، بينما قالت فريدة:

- نعم، لم يكن في الغرفة إلا جسدها الأصلي...

ثم صمتت لحظة وأردفت:

- وجسد ليان المؤجَّر.

ثم سرّعت الفيديو، حتى وصل إلى اللحظة التي أُخرج فيها جثمان زينة، ومن بعده جسد ليان الساكن الخالي من الوعي، كي يُوضع في الكبسولة الزجاجية، وأكملت:

- هذا يعني أنه إن كانت هناك جريمة قتل فلن يكون مرتكبها إلا ذلك الجسد الساكن.

ونظرت في عيني يحيى، وهي تتابع:

- جسد حبيبتك ليان.

(7)

نظر يحيى إلى فريدة متعجبًا مما تنطق به، وقال:

- مستحيل!

فقالت فريدة، وهي تستدير بمقعدها نحوهما:

- كما رأيتما، إن كنتما لا تزالان تصرّان على أن الفتاة قُتلت، فالقاتل هو جسد ليان، بطريقةٍ أو بأخرى.

قال أسامة:

- تعرفين أكثر منا أن هذه الافتراضية مستحيلة.

ثم نظر إلى يحيى وقال بتردد:

- بعد ما رأيناه في تسجيل الكاميرات، الاحتمال الأقرب أن زينة انتحرت فعلًا. ربما شنقت نفسها بطريقة ما، قبل أن تبتلع الحبوب.

لكنه ما لبث أن سكت، وهزّ رأسه غير مقتنعٍ بما قاله، ثم همس:

- لو كانت شنقت نفسها فعلًا، لوجدت الشرطة حبلًا أو أي أثرٍ يدل على ذلك.

فأومأ يحيى متفقًا معه، ثم قال:

- هناك حلقة مفقودة، لا بد أن أحدًا ما يُخفيها.

ثم نظر إلى فريدة، وأضاف برجاء:

- لا بد أن نعرف أين جسد ليان الآن.

فتنفست فريدة بعمق، ثم قالت:

- حسنًا، لكن ستكون هذه آخر مساعدة أقدّمها لكما.

ثم استدارت بمقعدها نحو اللوح الذكي من جديد، وبدأت تحرك أصابع يدها اليمنى على ظهر يدها اليسرى، مدخلةً بعض البيانات، قبل أن تقول ليحيى دون أن تلتفت:

- أخبرني برقم هويتها.

فقال على الفور:

- 37805057759

كتبت الرقم في إحدى الخانات، ثم ضغطت زر البحث، وانتظرت وهي تقول:

- سنعرف خلال ثوانٍ آخر كاميرا مراقبة تعرّفت على وجهها.

أومآ برأسيهما، ونظرا إلى الخريطة التي ظهرت على شاشة اللوح بترقب. لكن بعد لحظات، قالت فريدة متعجبة وهي تشير إلى النقطة الحمراء التي ظهرت على الخريطة:

- غريب!

سألها يحيى بسرعة:

- ما الأمر؟

قالت وهي تكبّر الخريطة:

- آخر كاميرا سجّلت وجه ليان كانت كاميرا السجن المركزي.

فسألها من جديد:

- وماذا يعني ذلك؟

صمتت للحظة، ثم التفتت نحوهما وقالت:

- هذا يعني أن الجسد لم يغادر السجن حتى الآن.

قال أسامة:

- هذا غير ممكن! لقد تم استئجار الجسد بالفعل، ولم يعد موجودًا في قاعة عرض الأجساد.

فتساءل يحيى:

- هل يمكن أن تكون المستأجرة تعمل في السجن؟

ردّ أسامة:

- ولن تغادر مكان عملها طوال هذه الفترة؟!

ثم نظر إلى فريدة، وقال:

- هل يمكن أن تعرضي لنا آخر تسجيل ظهر فيه وجه الفتاة؟

زفرت فريدة وقالت:

- لقد ساعدتكما بما فيه الكفاية يا صديقي. عرض تسجيل مثل هذا يحتاج إلى نوع آخر من الاختراق، كما أن اختراق كاميرات مؤسسة حكومية مثل السجن المركزي قد يقضي عليّ تمامًا إن كُشف الأمر.

قال يحيى متوسلًا:

- أرجوكِ يا فريدة، كما ترين، الأمر مبهم ومعقد. لا يمكن لجسد ليان أن يكون في السجن بعد أن استُؤجر ورُفع من قوائم الأجساد المتاحة للإيجار.

قالت بهدوء:

- ربما استأجرت المستأجرة الجديدة الجسد، وأجّلت استعماله إلى وقت لاحق.

هز أسامة رأسه نفيًا، وقال:

- حينها، كان السجن سيطالبها بأخذ الجسد إلى مركز تأهيل خاص، تتركه هناك كما تشاء.

وأردف:

- أرجوكِ يا صديقتي، لا أثق في أحد غيرك كي يساعدنا في هذا الأمر، وأعدك بأنني لن أطلب منك شيئًا آخر بعدها.

صمتت للحظة تفكر، ثم هزّت رأسها ببطء، والتفتت نحو اللوح الذكي مجددًا، وقالت:

- حسنًا، لنرَ أين يوجد جسد الفتاة داخل مكان عملك اللعين، وأتمنى ألا نجاورها هناك كلنا.

ثم ضغطت بعض الرموز على ظهر يدها، وانتظرت.

بعد ثوانٍ، انقسمت الشاشة إلى عدة نوافذ، ظهرت ليان في بعضها وهي تتحرك بشعرها الطويل عبر الممر الممتد من قاعة عرض الأجسام إلى صالة الانتظار المؤدية إلى بوابة السجن الخارجية. فيما حدّق الثلاثة إلى الشاشات بحثًا عن أي شخص يسير برفقتها، لكن لم يظهر أحد بجانبها، حتى وصلت إلى بوابة السجن الخارجية، وقدّمت وجهها للماسح الضوئي، ثم مضت بهدوء إلى الخارج، تلتقطها الكاميرات الخارجية وهي تبتعد وسط المارة الذين كانوا يسيرون في الشارع في تلك اللحظة، حتى خرجت تمامًا من نطاق التصوير.

قال أسامة مندهشًا:

- ها هي قد خرجت من السجن! كيف يقول نظام المراقبة إنها لا تزال هناك؟

زمّت فريدة شفتيها بالاندهاش نفسه، ثم فتحت نافذة جديدة وأعادت إدخال رقم هوية ليان. وبعد ثوانٍ من البحث، تمتمت بتوتر:

- هذا غير معقول، النظام ما زال يصرُّ على أن آخر ظهور لها كان في السجن!

ثم عادت وأدخلت بعض الأوامر. فسألها أسامة:

- ماذا تفعلين؟

قالت دون أن ترفع نظرها:

- أحدِّد توقيت خروجها، وأخترق كاميرات الشارع الذي تقدمت فيه بعد مغادرة السجن.

بعد لحظات، ظهرت ليان مجددًا على الشاشة، تتحرك وسط المارة. لكن فجأة انقطع بث الكاميرات لمدة ثلاثين ثانية، وحين عاد، لم يكن هناك أي أثرٍ للفتاة في الشارع.

قال يحيى بتوتر:

- لا بد أنها استقلت سيارة خلال تلك الثواني.

بينما سأل أسامة فريدة:

- هل من الطبيعي أن ينقطع بث كاميرات شارع كامل كل هذه المدة؟

فأجابته:

- أحيانًا يحدث، لكنه نادر جدًّا.

ثم عادت إلى اختراق كاميرات السجن من جديد، لعلَّ جسد ليان قد عاد إلى هناك خلال تلك الثواني، لكن كاميرات السجن لم تُظهر وجودها في أي لحظة منذ مغادرتها. فأعادت إدخال رقم هويتها إلى نظام المراقبة، فظهرت نفس النتيجة: آخر ظهور مُسجل لصاحب هذا الرقم كان في السجن المركزي.

تمتم يحيى بقلق:

- ما الذي يحدث؟ ما هذا العبث؟

فقالت فريدة:

- يبدو أنه، بطريقة ما، تم تعديل بصمة وجه الفتاة، أو فصلها عن رقم هويتها الأصلية. وبما أننا لم نحصل على اللحظة التي غادرت فيها ذلك الشارع، سواء بوسيلة نقل خاصة أو عامة، فهذا يعني أننا فقدنا أثرها.

ثم أطلقت لوحها الذكي، وأضافت بنبرة جادة:

- يبدو أنكما محقان في بحثكما عن حقيقة ما يحدث لتلك الفتاة. إن ما يحدث أكبر من مجرد استئجار لجسدها السجين.

(8)

في الأيام التالية، تواصل أسامة مع عدد من أصدقائه القدامى ممن سبق لهم العمل في السجن المركزي، وسألهم، دون أن يكون مباشرًا، إن كانوا قد سمعوا عن قسم خفي داخل السجن تُحتجز فيه أجساد ساكنة لا تُعرض للإيجار. لكن رد الجميع كان بالنفي، مؤكدين أنهم لم يسمعوا عن شيء من هذا القبيل قط.

أما يحيى فكان يعود من حين إلى آخر إلى قاعة عرض أجساد المساجين، ويتجول بين الكبسولات الزجاجية بصمت، لعلّه يصادف في إحدى المرات جسد ليان معروضًا هناك، إلا أنه لم يصل إلى مبتغاه قط.

وذات مساء، التقى بفريدة في مقهى «وطن»، بدون أسامة الذي اعتذر عن الحضور في اللحظة الأخيرة بسبب نزلة معوية حادة. جلسا في ركنٍ بعيد، وبعد تبادل التحية، سألها إن كان هناك جديد بشأن العثور على بصمة وجه ليان، فهزت رأسها نافية، وقالت:

- لا شيء، وكأنها تبخرت.

ثم صمتت لحظة، قبل أن تنظر إليه وتقول:

- قال أسامة إنك لم تزر وعي ليان من قبل في السجن، رغم أنك تدّعي أنها حبيبة عمرك.

فصمت لبرهة، ثم قال:

- كانت ترفض مقابلتي.

سألته في تعجب:

- لماذا؟ ألستَ حبيب عمرها أيضًا؟

قال وهو يشيح بوجهه:

- لم تغفر لي ما أصابها بسببي.

نظرت إليه بفضول، وسألته:

- ماذا حدث؟

هزّ رأسه نفيًا، موحيًا بأنه لا يريد التحدث عن الأمر. فأومأت فريدة برأسها محترمةً رغبته، ثم ساد بينهما صمت طويل، لم يقطعه سوى رشفات الشاي المتقطعة. حتى قال بحيي فجأة، وكأنه يحدّث نفسه:

- أعرف ليلى منذ كانت في السادسة عشرة من عمرها.

ثم صمت للحظة كأنه يتخذ قراره بالإكمال من عدمه، ثم قال:

- في ذلك الوقت، كنت متدربًا في سنتي الأخيرة بكلية الطب البيطري. وكنت أذهب بصورة دورية إلى دار الأيتام التي كانت تعيش فيها، برفقة أحد أساتذتي المكلَّفين من الدولة بالإشراف على جودة اللحوم في المطابخ هناك. لم تكن تلك الزيارات تروقني، لكنها كانت جزءًا من التدريب العملي، وكان عليّ الالتزام بها.

ثم تنهد وقال بنبرة هادئة:

- في إحدى الزيارات، تقدّمت نحوي فتاةٌ نحيلة، ذات شعر بني طويل، وسألتني: «هل يمكنك أن تعالج قطّي، لينو؟» فارتبكتُ وقلت لها: «لا، ما زلت متدربًا، لم أتخرج بعد». ونظرتُ إلى أستاذي لعله يساعدها، لكنه رمقها بانزعاج وقال: «ليس لدينا وقت لهذا». فهزت رأسها بعزة نفس، وغادرت.

ثم ارتشف رشفة من الشاي وتابع بابتسامة خفيفة:

- تلك الليلة، لم أستطع النوم. أتعلمين، حين يخطف أحدٌ قلبك من اللقاء الأول؟

هزت فريدة رأسها كأنها جرَّبت هذا الشعور من قبل، فأردف يحيى:

- في اليوم التالي مباشرة، ذهبتُ إلى الدار وحدي، وسألتهم عن تلك الفتاة النحيلة ذات الشعر البني الطويل التي تملك قطًا مريضًا اسمه «ليئو». فقالوا على الفور: «ليان؟»، قلت: «نعم، أريد أن أقابلها». وحين جاءت متعجبة، سألتُها: «أين القط؟»، ارتبكت، وكأنها خافت أنني سأتدرب عليه، فضحكتُ وقلت: «لا تخافي، سآخذه إلى أحد أساتذتي. لديَّ الكثير من الأساتذة الماهرين».

فأومأت بفرحة شديدة، ثم ركضت إلى غرفتها، وعادت وهي تحمل بين يديها قطًا رماديًا من سلالة «الشارترو» النادرة، هزيلًا، شديد المرض، بالكاد يتنفس.

فقلت لها وأنا أمد يدي كي آخذه منها: «سأحرص على أن يكون بخير».

سألته فريدة باهتمام:

- وهل عالجته؟

هز رأسه نافيًا وقال:

- لقد مات في اليوم التالي. كانت حالته متأخرةً جدًا.

شهقت فريدة، وسألته:

- وكيف أخبرتها بذلك؟

قال:

- قلت لها الحقيقة. لم أحاول تزييف شيء. ظلت تسمعني في صدمة، حتى انتهيت، فسألتني بصوتٍ مكسور: «هل أحسنت دفنه؟» قلت: «نعم». فقالت: «شكرًا لك» ثم همَّت بالمغادرة. فقلت لها: «آسف». فردَّت بصوتٍ تخنقه الدموع: «ليس الوحيد الذي

خطفه الموت مني، لا تشغل بالك». ثم مضت في طريقها ودموعها تتساقط في صمتٍ على وجنتيها.

ثم ابتسم من جديد وهو يكمل:

- بعد شهر، عدت إليها بقطٍّ جديد. كانت هدية بسيطة، لكن فرحتها ما زالت محفورة في ذاكرتي. ضحكت للمرة الأولى، وسألتني عن اسمي، فقلت: «يحيى». فابتسمت وقالت: «سأسميه على اسمك إذن». فهززت رأسي مبتسمًا، وأنا أرى بريق الفرحة يلمع في عينيها وهي تنتقل بنظراتها بين القط وبيني.

قالت فريدة بابتسامة:

- هكذا بدأت قصة حبكما؟

أومأ برأسه مبتسمًا هو الآخر، ثم قال:

- منذ ذلك اليوم، لم أفوِّت زياراتي إلى تلك الدار. وبينما كان أستاذي يتفقد اللحوم على مهل، كنت أتسلل إلى الحديقة الخلفية لألتقي ليان. كنا نجلس معًا على الأريكة الخشبية هناك، ونتحدث. عن الدراسة، عن الحياة، عن الأمل. ثم تُريني تطورات رسمتها التي كانت ترسمها في دفترٍ صغير تسميه «حياة بديلة»: بيت كبير أمامه شجرة توت، وتحت تلك الشجرة يجلس رجل وامرأة يتابعان بحبٍّ طفلة صغيرة تلعب مع روبوتٍ منزلي على مقربة منهما.

من غبائي، ظللت لفترة طويلة أنها كانت تقصد بالرجل والمرأة والديها الراحلين، وأنها تلك الطفلة التي يلاعبها الروبوت، وكانت تسايرني فيما أظن. حتى نكزتني ذات مرة بكوعها في رقة وقالت بابتسامة خجولة وهي تشير إليهما: «هذان أنا وأنت، وهذه ابنتنا مستقبلًا. أريد أن أقضي حياتي معك إلى آخر العمر».

في تلك اللحظة، أصابتني تلك الرعشة الجميلة التي تسري في الجسد حين يعترف لك من تحبه بأنه يحبك هو الآخر، ومددتُ يدي بلطف ولامستُ أطراف أصابعها، كأنني أريد أن أتأكد أن تلك اللحظة حقيقية، ثم همست لها: «وأنا أيضًا أريد أن أبقى معكِ إلى آخر العمر».

انفرجت أسارير فريدة، فتابع يحيى:

- ومن حسن الحظ، أنه حين تخرجتُ، أوصى أستاذي بأن أتولى بنفسي الإشراف على اللحوم في تلك الدار، لأكون أسعد الناس بذلك القرار. ورغم الهمز واللمز من بعض الفتيات هناك حول علاقة الحب التي تجمعني بليان، إلا أننا لم نكن نهتم، وكنا نواصل لقاءاتنا، لا يشغلنا شيء سوى أن تحقق ليان حلمها بالحصول على منحة دراسة الصيدلة. وقد نجحت في ذلك فعلًا.

سألته فريدة وهي تبتسم:

- وماذا عن القط يحيى؟ لم تذكر شيئًا عنه.

فضحك يحيى وقال:

- لقد هرب بعد شهر من إعطائي إياه لها.

فضحكت فريدة أيضًا، ثم صمتت قليلًا، قبل أن تسأله بنبرة جادة:

- إذن، ما الذي حدث بعد ذلك؟ ما الذي جعلها ترفض زيارتك لها في السجن؟

تنهد يحيى بعمق، وقال بصوتٍ خافت:

- لأنني السبب في دخولها السجن.

سألته متعجبة:

- ماذا تعني؟ كيف؟!

صمت لبعض الوقت، ثم قال:

- كنت أحب ليان بجنون، حتى أصبح حبي لها أقرب إلى التعلق المَرَضي، ومع التحاقها بكلية الصيدلة صارت منشغلة بدراستها، بالكاد ترد على رسائلي، وإن ردَّت، كانت كلماتها سريعة ومقتضبة. حاولتُ أن أتفهم انشغالها، لكنها كانت تبتعد أكثر فأكثر. وأنا، كنت أختنق. حتى لقاءاتنا في أيام عطلاتها، صارت مليئة بالتوتر والشجار، وإن لم نظهِر ذلك أمام معارفنا أو جدي حين كنا نزوره معًا.

ثم هزَّ رأسه في ندم، وتابع:

- في لحظة ضعف قاتلة، شعرتُ أنني وحيد، وبدأت أبحث عن متنفس لذلك الضغط الداخلي الذي كان يخنقني، أي شيء يولد -ولو مؤقتًا- ذلك الصوت الذي كان يهمس لي بأن ليان حققت حلمها، ولم تعد بحاجة إليّ، وأن عليّ تخييرها بيني وبين دراستها.

وسكت لوهلة، ثم رفع نظره إليها:

- وفي ذروة ذلك الشعور، ظهر أمامي إعلان لتطبيق «جسد»، مجرد إعلان عابر. لكنَّه جاء في أسوأ توقيت. إذ توهَّمت أن أحدهم يمد لي مخرجًا مؤقتًا من نفسي. فهمستُ لنفسي محاولًا إقناعها: «سأجرِّب أقل مدة لديهم، أربعًا وعشرين ساعة فقط. لن يعلم أحد. لن أوذي أحدًا، فقط أريد أن أسكِت رأسي لبعض الوقت».

ثم هز رأسه بمرارة، وتابع:

- لا أدري أين كان عقلي وقتها. ذهبتُ إلى فرع الشركة، وزرعتُ الشريحة في مؤخرة عنقي، واخترتُ أن يُعرَض جسدي للإيجار لمدة أربع وعشرين ساعة، مقابل أن أحظى بجسدٍ آخر للمدة نفسها.

ثم أطلق ابتسامة ساخرة من نفسه، وقال:

- الغريب أنني بعد دقائق من الاشتراك في ذلك التطبيق، أدركتُ حجم الخطأ الذي اقترفته، وقررتُ أنني لن أستأجر جسدًا بديلًا، ومع ذلك كان بقاء جسدي ضمن الأجساد المعروضة للإيجار لأربع وعشرين ساعة إلزاميًّا عليَّ حتى لو لم أرغب في الحصول على جسد آخر. لكنني لم أهتم. وقلت لنفسي: «يومٌ واحد، وسيمضي على أي حال».

ثم صمت لمدة أطول كأنه يتذكر ما حدث، حتى أردف بندمٍ شديد:

- لكنني لم أكن أعلم أن هناك من كان يترصَّد بي، أو بالأحرى يترصد بها، وينتظر مثل تلك الفرصة ليؤذيها.

رفعت فريدة حاجبيها وسألته:

- يؤذي ليان؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- كان هناك شاب يُدعى فؤاد، زميلها في الكلية. كان وسيمًا، ومغرورًا بوسامته إلى حدٍّ جعله يتصرف وكأن الجميع مغرمون به. حاول مرارًا التقرب منها، لكنها صدَّته، ثم أخبرتني عن مضايقته لها. فذهبتُ إلى مكان دراستهم، وحذَّرته بأن يتركها وشأنها. وحين كرر محاولاته، عدت إليه وتشاجرتُ معه. لم أكن أعلم أنني منحتُه فرصته الذهبية للانتقام حين تركتُ جسدي معروضًا للإيجار.

اتسعت عينا فريدة وقالت:

- هل استأجر جسدك؟

أومأ في حسرة، وقال:

- نعم. اختار جسدي، وانتحل هويتي. ثم اتصل بليان مدَّعيًا أنني تعرَّضت لحادث كبير وأُدخلت المستشفى. وهناك، رشا بعض الممرضين كي يضعوا ضمادة على مؤخرة عنقي لتخفي موضع

الشريحة. وحين جاءت ليان، منهارة من الخوف عليّ. أخبرها المرضون أنني قد أبدو مختلف السلوك بسبب تأثير الأدوية التي أعطوها لي، فصدّقتهم، وتقبلت أي فعلٍ أو قولٍ لم تعتده مني.

وأطلق زفيره، وتابع:

- وبما أنني لم أخبرها بأمر اشتراكي في التطبيق، لم يخطر ببالها أن الجسد الذي تراه أمامها ليس أنا. ولم تتخيل أن من ينتظرها داخل هذا الجسد، شخصٌ خبيثٌ كان يتحيَّن تلك الفرصة على أحر من الجمر.

ثم أمسك رأسه بكفيه وقال بصوت خافت:

- طلب منها بمكرٍ أن تأخذه إلى شقة صديق له، قال إنه سيتولى رعايته لأنه لا يريد أن يُثقل عليها وهي منشغلة بالدراسة. لكنها، دون أن تدري، كانت ترافقه إلى شقته هو. وهناك، انفرد بها، وحاول الاعتداء عليها.

شهقت فريدة في صدمة، فقال يحيى:

- دافعت عن نفسها بكل ما أوتيت من قوة، منذهلةً من سلوكي الغريب، حتى نزعت الضمادة عن مؤخرة رقبتي، ورأت وميض الشريحة، فأدركت أن الشخص الذي أمامها ليس أنا. حاولت الصراخ، الاستغاثة، لكن لم يأتِ أحد لإنقاذها. فأمسكت سكينًا صغيرًا كان قريبًا منها، وغرزته في وجهي.

أشار إلى الندبة الباقية على خده الأيسر. ثم أردف بصوت مرتعش:

لم تكن تلك الإصابة كافية. فالجسد ليس جسده في النهاية، ولن يؤذيه أي تشويه له، لذا لم يكن أمامها إلا أن تذبح الجسد أو توجّه له إصابة قاتلة، فينهار ويعود الوعي المعتدي إلى جسده الأصلي.

أو أن تستسلم. غير ذلك لم يكن ذلك الشرير ليتوقف، حتى لو أصابت كل جزء من جسده المستعار.

همست فريدة بذهول:

- كانت تحبك، لم تكن لتقتلك!

أومأ برأسه في صمت، ثم قال:

- حاولت الهرب كي لا تضطر إلى قتلي، وفي أثناء مطاردته لها، دخلت إحدى الغرف. ولحسن الحظ، كان ذلك الشرير يحتفظ بجسده الأصلي ساكنًا فيها. فركضت نحو ذلك الجسد وأحاطت عنقه بذراعها، وصرخت فيه: «سأذبحه إن لم تتركني أمضي».

ظن أنها تهدد فقط، ولا تملك الجرأة لفعل ذلك، واقترب منها متحديًا. فغرزت السكين في عينه اليسرى، وفقأتها.

أطلقت فريدة صيحة حماسية، بينما أكمل يحيى:

- حينها صرخ مذعورًا، وهو يرى الدماء تتفجر من وجهه الذي يشغله، بينما كانت ليان ترفع سكينها وتصرخ بجنون بأنها ستفقأ عينه الأخرى إن لم يدعها تخرج. فانهار وسقط مكانه باكيًا. وحينها، ركضت ليان إلى الخارج، لتنجو.

قالت فريدة بغضب:

- كان يستحق أن تُفقأ كلتا عينيه.

هز يحيى رأسه متفقًا معها، ثم قال بحزن:

- بعدها، حكمت المحكمة على ليان بالسجن ثلاث سنوات، بسبب تلك العاهة التي سببتها له.

فصاحت فريدة في استنكار:

- لكنها كانت تدافع عن نفسها! كيف يُعاقَب من يحاول أن يحمي نفسه؟!

فصمت طويلًا، وكأن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمه. حتى امتلأت عيناه بالدموع، وهمس:

- لأنني خذلتها مرة أخرى.

سألته فريدة بصدمة:

- ماذا؟ كيف؟!

تردد قليلًا، ثم قال بصوتٍ مختنق، وعيناه تلمعان بالندم:

- لقد شهدتُ في المحكمة بأن جسدي لم يكن مستأجَرًا في ذلك اليوم.

تفزت فريدة من مقعدها، وسألته بعينين مشتعلتين بالدهشة والغضب:

- ماذا تقول؟! كيف فعلت ذلك؟!

فقال بصوت مكسور:

- هل تعرفين من هي أمي؟

نظرت إليه في حيرة، كأنها لا تفهم ما يقصده، فتابع:

- أمي هي «لميس الشريف».

بدا على فريدة وكأنها قد سمعت من قبل عن ذلك الاسم، حتى اتسعت عيناها فجأة وقالت بعدما تذكرت صاحبة ذلك الاسم:

- أم الأخلاقيات؟! التي قادت الحملة القديمة ضد تسليع الجسد؟! وتورطت في قضية سرقة بيانات المشتركين في شركة الاتصالات الوطنية؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- هي نفسها، لكن تلك القضية كانت مجرد شائعة، لا أكثر.

ثم أردف:

- كانت أمي أول من وقف في وجه تطبيق «جسده» حين اعتُمد، امرأة حاربت وحدها في البداية، ثم انضم إليها المئات، ثم الآلاف. ظهرت في المؤتمرات، وواجهت التهديدات، وفقدت وظيفتها الأكاديمية. لكنها لم تتراجع.

ثم صمت للحظة، قبل أن يكمل:

- وأنا، كنت الطفل الذي يجلس بجوارها دائمًا في اللقاءات. ذات مرة، دُعينا لبرنامج شهير، وسألني المذيع إن كنت أفكر يومًا في تأجير جسدي. فقلت، وأنا في السادسة: «لن أسمح لأحد أن يسرق جسدي، وسأدعم حملة أمي حتى آخر لحظة في حياتي».

انتشر ذلك المقطع حينها على نطاق واسع. حتى إنه صار لبعض الوقت رمزًا لحملة أمي. وظل الناس يعيدون نشره كل عام في ذكرى انطلاقتها.

سألته فريدة باستنكار:

- لهذا أنكرت أنك التحقت بالتطبيق؟

هز رأسه إيجابًا، ثم قال:

- ظننت أنني سأقضي على صورة أمي أمام مؤيديها إن اعترفتُ بأنني اشتركتُ بالتطبيق وعرضت جسدي للإيجار، كيف تحارب كل هذه السنوات، وتدعو الناس للتمسك بمبادئها، بينما لم يتبعها ابنها الوحيد.

فصاحت فريدة:

- تخليت عن حبيبة عمرك كي لا تهتز صورة أمك أمام داعميها؟!

قال بندم:

- كنت أظن أن القاضي سيدرك أنها كانت تدافع عن نفسها، وأن الحقيقة ستظهر من تلقاء نفسها دون أن أضطر إلى كشف التحاقي بالتطبيق.

ثم أردف وصوته يزداد مرارة:

- لكن والد فؤاد كان أحد كبار المستثمرين في تطبيق جسد واستطاع بنفوذه حذف بيانات ابنه من التطبيق، بل وحذف بياناتي أنا الآخر. ومع انكاري التحاقي بالتطبيق وادعائي أن الإصابات في وجهي ومؤخرة رقبتي كانت نتيجة حادث سير تعرضتُ له في الليلة نفسها، لم تستطع ليان إثبات صحة قصتها.

سألته:

- وكيف لم يطلب محاميها إجراء كشف عليك للتأكد من وجود الشريحة في مؤخرة عنقك؟

قال بأسى:

- لأنني طلبت تفتيتها قبل المحاكمة، ومعها مُحيت أي آثار تربطني بالتطبيق.

كان تفتيت الشريحة الوسيلة الآمنة للتخلص منها بعد انتهاء مدة الإيجار قصير الأمد، ما لم يطلب العميل تمديد صلاحيتها تحسبًا لرغبته في تكرار التجربة، أما إذا فُتِّتت الشريحة وأراد العودة للاشتراك فعليه زرع شريحة جديدة، وهذا ما فعله يحيى، كي يتمكن من زيارة جسد ليان في قاعة عرض الأجساد بالسجن المركزي.

في المقابل، كانت شرائح الإيجار طويلة الأمد التي تُزرع في أجساد المساجين تُصنع من مادة غير قابلة للتفتيت، ولا تُزال إلا بعملية جراحية دقيقة، تخلف ندبة واضحة لا تخطئها العين.

لم تجد فريدة ما تقوله، فاكتفت بهزِّ رأسها وهي تهمس:

- إنك حقير.

أومأ برأسه، كأنه يتفق معها، ثم قال:

- ومنذ تلك اللحظة، أخرجتني ليان من حياتها.

وسكت للحظة، ثم أردف:

- حتى أمي ماتت بعد تلك المحاكمة بشهر، وكأن الله أراد أن يعاقبني.

لم تظهِر فريدة أي نوعٍ من التعاطف معه، فقط سألته:

- وهل عرفت أمك قبل وفاتها ما سببتَه لتلك الفتاة؟

هز رأسه نافيًا، فقالت:

- لم تكن لترضى بما فعلتَ قط، لا أحد يملك ذرة ضمير كان ليقبل بذلك الظلم.

ثم رمقته بنظرة حادة، وسألته:

- وكيف تجرؤ على التفكير في عودتها إليك بعد خروجها من السجن؟

قال بصوتٍ منخفض:

- لا تدركين العذاب النفسي الذي عشته في تلك السنوات الثلاث، لقد فكرتُ في الانتحار أكثر من مرة، لكنني كنت أتمسك بأملٍ صغير: أن أعود إليها، وأبكي معتذرًا بين ذراعيها، لعلها تعرف كم ندمت، وتسامحني.

قالت:

- لن تسامحك أبدًا، ليتها مزّقت جسدك حين سنحت لها الفرصة تلك الليلة، لقد كنت شريكًا سيئًا.

أومأ برأسه إيجابًا في صمت، ثم مسح دمعة فرّت من عينيه، وقال:

- ومع ذلك، لن أدع جسدها يُسرَق، ربما ارتكبتُ خطأ عمري، لكنها الآن وحيدة، ليس لها أحد. سأكرّس حياتي لإنقاذها. وبعدها، سأبتعد عنها تمامًا، إن كان هذا ما تريده.

قالت فريدة بنبرة جافة:

- في الحقيقة، لم أعد أتعاطف معك. لكن تعاطفي مع الفتاة تضاعف بعد ما سمعته منك.

ثم تابعت:

- أعطني الفيديوهات والصور التي لديك لوجه ليان، سأحاول بناء نموذج يدوي لبصمة وجهها، لعلي أتمكن من العثور عليها عبر الكاميرات بطريقة يدوية، بعيدًا عن البصمة البيومترية.

أومأ برأسه، ثم ضغط زر قلادته، فظهرت شاشة هاتفه على يده، فأرسل لها كل الصور والفيديوهات التي تخص ليان.

بعدها، نهضت فريدة وغادرت، بينما بقي في مكانه، يشعر بأن جسده لم يعد قادرًا على الحركة، وكأن باب الذكريات الذي فتحه خلال حديثه معها لم يترك جزءًا في أعماقه إلا ونهشه.

***

في الأيام التالية، لم يكن هناك أي جديد سوى أن فريدة باتت مهتمة بأمر ليان، ربما بصورة أكبر من أسامة ويحيى، حتى إنها صارت تقضي معظم أوقات فراغها تبحث عن بصمة وجه الفتاة، سواء من خلال رقم هويتها أو عبر النموذج اليدوي الذي صنعته من الصور والفيديوهات التي أرسلها لها يحيى. لكنها في كل مرة، كانت تصطدم بالنتيجة نفسها؛ آخر ظهور لوجه ليان كان في السجن المركزي.

ورغم أنها لم تعد تطيق يحيى بعد ما حكاه تلك الليلة في المقهى، إلا أن سؤالًا ملحًّا ظل يراود تفكيرها، فاتصلت به وسألته:

- لماذا لا يكون ذلك الشاب فؤاد، هو من يقف وراء ما يحدث لها؟ بعد تلك العاهة التي أحدثتها له، خاصةً أن أباه يملك نفوذًا كبيرًا في تطبيق جسد، كما قلت لي؟

فأجابها:

- لا، لا يمكن، لقد مات فؤاد وأسرته بالكامل في حادث سيارة قبل عام. سقطت بهم سيارتهم من أعلى جسر شاهق وسط المدينة.

لزمت شفتيها بصمت، ثم أغلقت الخط دون أن تقول أي شيء آخر.

●●●

في تلك الأيام، نجح أسامة -بمساعدة صديق قديم- في الوصول إلى ملفات أجساد المساجين الذين ماتوا خلال العام الأخير، بعدما ظل احتمال وفاة جسد ليان واردًا. لكنه لم يجد رقم هوية جسدها ضمن قوائم الموتى، سواء داخل السجن أو خارجه.

وحين التقى الموظف الجديد الذي شغل وظيفته السابقة، وأراد هذا الموظف معرفة بعض التفاصيل عن سلوك المساجين، تطرق الحديث بينهما إلى ليان، ليتأكد منه أن وعي ليان لا يزال حيًّا في السجن الرقمي. وهو ما ينفي تمامًا موت الجسد.

وعندما أخبر فريدة ويحيى بما عرفه، بدأ الشعور بأن القضية أكبر من قدراتهم المحدودة، وأنهم وصلوا إلى طريق مسدود لا يستطيعون التقدم فيه خطوة واحدة، يتسلل إليهم. ومع الجرائم غير القانونية التي ارتكبوها كاستخراج جثة زينة وتشريحها، واختراق كاميرات السجن، والبحث عن هوية شخص دون تصريح أمني، كان إبلاغ الشرطة خيارَهم المستبعَد.

لتمر الأيام تباعًا دون أي تقدم، حتى جاء ذلك الصباح عندما كانت فريدة في مطبخ شقتها، تحضِّر الفطور قبل ذهابها إلى العمل، بينما

تعرض الشاشة المثبتة أمامها بثًا مباشرًا لأحد صنّاع المحتوى، الذي كان يتحدث عن انضمام قطار جديد إلى منظومة قطارات المدينة.

وفجأة.

لمحت وجهًا مألوفًا بين المسافرين، يعبر بوابة تفتيش المحطة. وجهًا يشبه وجه ليان! لكن شعرها كان قصيرًا للغاية.

تجمّدت فريدة في مكانها، والسكين في يدها، وأخذت تحدّق إلى الشاشة دون أن ترمش لعلّ كاميرا الشاب تلتقطها من جديد، لكن البث لم يُظهرها مرة أخرى.

فركضت إلى غرفتها، وأخرجت لوحها الذكي، وأدخلت رموزها السرية، ثم ولجت بسرعة إلى نظام كاميرات المراقبة في محطة قطار وسط المدينة. وبتركيز شديد بدأت تراجع وجوه المسافرين الظاهرة في تسجيلات الكاميرات خلال الدقائق العشر الأخيرة.

بعد أربع دقائق، أوقفت الفيديو فجأة وقلبها ينبض بقوة، ثم همست لنفسها وهي تحدّق إلى وجه الفتاة التي لمحتها في البث المباشر:

- نعم، إنها ليان.

وعلى الفور، ضغطت زر قلادتها، واتصلت بأسامة ويحيى في وقت واحد. وحين فتحا الخط، صاحت بحماس:

- لقد وجدت جسد الفتاة! إنه الآن في محطة قطار وسط المدينة.

وأضافت بسرعة، وهي تراقب الفيديو:

- شعرها قصير لا يتجاوز بضعة سنتيمترات، وترتدي بذلة رمادية رسمية، ذات تنورة قصيرة، وتنتعل حذاء بكعب عالٍ، وتحمل حقيبة يد صغيرة.

ثم التقطت صورة لوجهها من الفيديو وأرسلتها لهما، فقفز يحيى من سريره ما إن رأى الصورة، وارتدى ملابسه وهو يهبط السلم ركضًا، ثم طلب سيارة أجرة لتقله إلى المحطة، وفعل أسامة الشيء نفسه.

في تلك الأثناء، كانت فريدة تتابع حركة ليان بالمحطة عبر الكاميرات، حتى رأتها تتعثر بسبب حذائها العالي، وتسقط على ركبتيها، لتنزلق حقيبة يدها مبتعدة عنها، فاقتربت فريدة بالصورة من مؤخرة رأسها، وفي تلك اللحظة همست إلى يحيى وأسامة بصوت خافت في الهاتف:

- انتظرا، ربما ليست هي.

فقال يحيى من داخل سيارة الأجرة، وهو يحدّق إلى الصورة التي أرسلتها له فريدة قبل نزوله:

- لا، إنها ليان. شعرها قصير، لكنني لن أخطئ ملامحها أبدًا.

فقالت فريدة بتردد:

- لكن، لا يوجد أي وميض يصدر من مؤخرة عنقها!

فقال أسامة:

- من الطبيعي أن يكون الوميض خافتًا للغاية مع إضاءة المحطة.

فقالت وهي تقرِّب الكاميرا أكثر من مؤخرة عنق الفتاة:

- أنا متأكدة، لا وميض يصدر من مؤخرة عنقها.

ثم أضافت بدهشة أكبر بعدما كبَّرت صورة مؤخرة العنق لتملأ الشاشة أمامها:

- وليست هناك أي ندبة كذلك. الجلد سليم تمامًا، لم يُمس.

فصاح الاثنان معًا:

- ماذا يعني ذلك؟!

فأجابتهما وهي تحدّق إلى الفتاة التي كانت تتقدم بثبات نحو رصيف المحطة: .

- يعني أن هذا الجسد الذي أراه أمامي، جسدٌ حر يتحرك بوعيه الأصلي، ولم يعرف الاستلاب يومًا ما.

(9)

توقّفت سيارة الأجرة التي تقلُّ يحيى عند إشارة المرور المؤدّية إلى محطة القطار، التي انقلب لونها إلى اللون الأحمر في اللحظة ذاتها التي أنهت فريدة قولها بأن جلد مؤخرة عنق الفتاة التي تراقبها سليم، ولا توجد عليه أي ندبة تدلُّ على استخراج شريحة إلكترونية طويلة الأمد مؤخرًا، فتسارعت أنفاس يحيى، وهو يحدّق إلى الصورة التي أرسلتها له فريدة، ثم قال بلهجة حاسمة وهو يواصل التحديق إلى الصورة:

- إنها هي. أقسم بذلك.

ثم سألها بلهفة:

- أين هي الآن؟

ردّت فريدة بسرعة وهي تتابع البث:

- تتقدم نحو رصيف المحطة، رقم ثلاثة.

نظر يحيى نحو مبنى المحطة الذي كان يلوح في الأفق، ثم حوّل بصره بسرعة إلى الإشارة الحمراء التي تُظهر عدًّا تنازليًّا، يتبقى منه تسعون ثانية حتى تعود خضراء، ودون تردد ضغط على الشاشة المثبّتة خلف المقعد أمامه، منهيًا الرحلة، ثم فتح الباب وانطلق راكضًا بكل ما أوتي من سرعة نحو المحطة.

تجاوز البوابة الأولى، ثم ركض في الممر الطويل المخصّص للمغادرين، وفي أثناء ركضه، سمع أسامة يقول عبر سماعة الهاتف:

- لا زلت عالقًا في الزحام!

فلم يرد عليه بشيء، وإنما سأل فريدة وهو يواصل ركضه:

- هل ما زالت هناك؟

أجابته:

- نعم، تقف الآن على الرصيف رقم ثلاثة. وإشارات الرصيف تومض، معلنةً اقتراب القطار.

أسرع أكثر، وهو يتفادى الزحام ويصعد السلالم الأسمنتية، متجاوزًا السلالم الكهربائية المزدحمة. ثم عبر البوابة الداخلية إلى صالة المحطة الواسعة، ولمح لافتةً تشير إلى اتجاه الرصيف الثالث، فانطلق نحوه بلا تردد.

قالت فريدة في الهاتف:

- لقد وصل القطار، ركبت الفتاة العربة الخامسة، ولا يزال بعض الركاب يصعدون إليه.

زاد من سرعته وهو يشق طريقه بين المسافرين، وكلما اصطدم برجلٍ أو امرأةٍ اعتذر دون أن يتوقف، حتى لمح القطار أمامه، فبدأ يعدُّ العربات بعينيه وهو يركض، ثم اندفع نحو العربة الخامسة، لكن في اللحظة نفسها أغلقت الأبواب، ودوَّى صوت الصافرة معلنًا انطلاق القطار. وصل إلى باب العربة، وحاول فتحه بكل قوته، لكنه لم يفلح فتحرك إلى أقرب نافذة، والتصق بزجاجها، يبحث عن وجه ليان بين الوجوه.

كانت تجلس في الداخل، شاردة، تحدِّق أمامها دون أن تنتبه. ضرب على الزجاج، وصرخ:

- ليااان!

بدأ القطار يتحرّك ببطء. فركض بمحاذاته وهو يضرب بيده على النافذة ويصرخ باسمها، لكنها لم تلتفت. في تلك اللحظة، أتى موظفان في زيٍّ المحطة لإبعاده، لكنه واصل صراخه، والرجاء يعلو ملامحه:

- ليااان!

التفتت الفتاة فجأة نحوه. فالتقت أعينهما لثانيةٍ كانت كافية لتمزّق قلبه. وقبل أن يصرخ باسمها مجددًا، كان الموظفان قد أمسكاه بعنف وطرحاه أرضًا بعيدًا عن القطار. فاستلقى على الرصيف، يلهث، وهو ينظر إلى القطار الذي يبتعد شيئًا فشيئًا، حتى غاب عن ناظريه.

***

بعد دقائق وصل أسامة راكضًا، فوجده ما زال جالسًا على الأرض، وعيناه معلقتان بسكة القطار. سأله وهو يلهث:

- هل ركبت الفتاة القطار؟

هزّ يحيى رأسه بالإيجاب، فسأله من جديد:

- هل كانت هي؟

لم يجب، فقط أومأ ببطء، والدموع تلمع في عينيه. فسأله أسامة بنبرة هادئة:

- هل رأتك؟

أجابه يحيى، بصوتٍ مرتعش:

- التقت أعيننا في اللحظة الأخيرة، وشعرتُ أنها عرفتني.

ثم تمتم وهو يحدق من جديد إلى سكة القطار:

- لم تكن نظرةً عابرة، كانت نظرة شخص يعرف تمامًا من أكون.

تدخّلت فريدة عبر الهاتف، للمرة الأولى منذ دقائق طويلة، وقالت بنبرة مضطربة:

- للأسف، طُلِبت الآن في العمل. من حسن الحظ أنني خرجت من نظام كاميرات المحطة قبل لحظات من اتصالهم بي، وإلا لوقعت في ورطة.

لن أستطيع متابعة أي كاميرات أخرى قبل انتهاء دوامي في الثالثة عصرًا. سأقابلكما في الطابق الأول من بنايتنا عند الثالثة والنصف. وحينها سنتعرف على الأقل إلى أي محطة توجهت.

قال يحيى، وهو لا يزال جالسًا على الرصيف:

- سأستقل القطار التالي لألحق بها.

قالت فريدة:

- ذلك القطار يتوقف في تسع محطات، فكيف ستلحق بها دون أن تعرف المحطة التي تقصدها؟ لا تقلق، لقد سجلتُ ملامح وجهها بقصة شعرها الجديدة، وسأتتبعها يدويًا عبر الكاميرات. أعدكما أنني سأعرف مكانها هذا المساء.

سأضطر إلى إغلاق الخط الآن. أراكما في الثالثة والنصف عصرًا، مع السلامة.

ثم أغلقت الخط. فتمتم يحيى مرة أخرى وكأنه يحدث نفسه:

- لم تكن نظرتها عادية، بدت وكأنها تعرفني، أعرف تلك النظرة جيدًا.

أراد أسامة أن يذكّره بأن وعي ليان لا يزال في السجن الرقمي، وأن تلك الفتاة التي نظرت إليه، لا يمكن أن تحمل أي ذكرى عنه، ولا مشاعر تربطها به. ربما كانت المستأجرة قد التقته من قبل، ربما تعرف ملامح وجهه، لكن ليس أكثر من ذلك. ومع ذلك لم يرد أن يُطفئ ذلك الأمل في عينيه، فقال له:

- سنصل إليها في أقرب وقت، لا تقلق.

ثم أضاف بعد لحظة صمت:

- الآن نحتاج أن نعرف، هل يمكن فعلًا إزالة شريحة طويلة الأمد من مؤخرة العنق دون أن تترك أي أثر، حتى لو لم يمضِ على نزعها سوى شهرين؟

فكر يحيى لبرهة، ثم قال وهو ينهض:

- أعرف طبيبًا يمكننا استشارته في هذا الأمر.

***

ذهبا معًا إلى حي «السندس»، حيث تقع عيادة الطبيب الذي يقصده يحيى. دفعا ثمن الكشف عند موظف الاستقبال، ثم دخلا إلى غرفة الطبيب الذي استقبلهما بود، وسألهما:

- ما المشكلة؟

قال يحيى:

- جئنا من أجل استشارة طبية، تتعلق بمجال عملك.

رفع الطبيب حاجبيه قليلًا وقال:

- تفضَّلا.

قال أسامة:

- هل يمكن أن يبدو جلد مؤخرة العنق طبيعيًا تمامًا بعد إزالة شريحة استنجار طويلة الأمد بشهرين فقط؟

أجابه الطبيب:

- طبيعيًا تمامًا؟ هذا صعب للغاية.

ثم أردف:

- إزالة الشريحة طويلة الأمد تتطلب إحداث شقٍّ كبير وعميق في مؤخرة الرقبة. كي نكشف المنطقة بالكامل ونتجنَّب أي ضرر

في أثناء الاستخراج، خاصةً أن الشريحة تلتصق بالحبل الشوكي وبالأعصاب الدقيقة المتفرعة منه.

كما أن جلسات الليزر التي نستخدمها بعد الجراحة تحتاج إلى وقت طويل لإزالة الندبة بالكامل، إذ لا نستطيع استخدام ترددات قوية في البداية كي لا نؤذي الحبل الشوكي أو الأعصاب، خصوصًا مع تهتك الأنسجة المحيطة خلال عملية الاستخراج. إن الأمر معقد أكثر مما يظنُّ الناس.

ثم توقف لحظة، وتابع:

- لكن، مع جراح شديد المهارة، وبعض أنواع المراهم المتقدمة، قد تختفي آثار الجرح بالكامل بعد نحو أربعة أشهر.

ضغط يحيى زر قلادته، ثم نقر بعض النوافذ على الشاشة التي ظهرت على كف يده، ثم حرَّك الشاشة من كف يده لتطفو في الهواء بينه وبين الطبيب، وقال:

- انظر إلى هذه الصورة.

نظر الطبيب إلى الشاشة المعلقة في الهواء، والتي أظهرت صورة مؤخرة عنق الفتاة، فأردف يحيى:

- هل تعتقد أن هذا الجلد قد خضع لجراحة استخراج شريحة طويلة الأمد منذ شهرين فقط؟

تأمل الطبيب الصورة بدقة، ثم ارتدى نظارته الرقمية، وفحصها من جديد، وبعدما بدا عليه التردد للحظات، قال:

- الجلد في هذه الصورة يبدو طبيعيًّا تمامًا، ومع وضوح مسامه لا يمكن أن أقول إنه مغطى بمساحيق تجميل.

وتمتم بصوتٍ منخفض وهو يواصل فحص الصورة:

- شهران مدة قصيرة جدًّا لعودة الجلد إلى هذه الهيئة.

ثم نظر إليهما، وأضاف بنبرة جادة:

- إما أن هذا الجسد خضع لتقنية جراحية لم أسمع بها من قبل، لاستخراج الشريحة، وإما أن هذا الجلد لم يُخْرَق قط.

فهمس يحيى إلى أسامة:

- ماذا لو لم تُستخرج الشريحة أصلًا؟

قال أسامة:

- تقصد أنها فُتِّتت، مثل الشرائح قصيرة الأمد؟

أومأ يحيى برأسه، فتدخل الطبيب قائلًا:

- أستبعد ذلك تمامًا. الشرائح طويلة الأمد تُصنَّع من معدن شديد الصلابة، وتفتيتها شبه مستحيل، لقد استخرجتُ العشرات منها بنفسي، وأعرف جيدًا ما أقول.

فهمس أسامة:

- إذًا، كيف يمكن ألا تومض الشريحة، والجسد في حالة استئجار؟

رفع الطبيب بصره إليه في دهشة:

- هل هذا الجسد لسجينة لا تزال تقضي مدة عقوبتها؟!

أومأ أسامة إيجابًا، وأردف:

- والمفترض أن جسدها مؤجَّر حاليًّا.

قال الطبيب بعد لحظة من التفكير:

- ربما كانت الشريحة معطَّلة وقت التقاط هذه الصورة.

ثم تابع:

- ذات مرة أخبرني أحد أصدقائي من ضباط الشرطة أن شريحة أحد المساجين توقفت عن الوميض لثلاثة أيام بسبب عطل أصابها. وكان المستأجر سعيدًا بذلك ولم يبلغ النظام، لكن مع مروره من

أول بوابة بيومترية، اكتشف العطل، واعتُقل فورًا، وأُعيد الجسد إلى السجن كي تُركَّب له شريحة جديدة. قد يكون الأمر مماثلًا مع شريحة هذه السجينة.

فقال يحيى:

- لكن صاحبة الصورة مرّت من بوابات حكومية ولم يحدث شيء.

فقال الطبيب:

- هذا يعني ببساطة أن جسدها لم يعد مُدرَجًا ضمن قوائم أجساد المساجين المؤجَّرة. فالبوابات الحكومية مزوَّدة بمواسح ضوئية مرتبطة بنظام السجن المركزي، وبها حساسات تكشف ومض الشرائح طويلة الأمد. فإذا اكتشف الماسح أن هوية الجسد الذي يفحصه تخص سجينًا لا يزال يقضي عقوبته، ولم يستشعر وميض شريحته، يطلق إنذارًا فوريًّا ينبّه عناصر الشرطة لإيقاف الجسد.

أما إذا لم تكن هوية الشخص مُسجلة في النظام كسجين، فلن تُطلق الحساسات أي إنذار، حتى لو كان سجينًا سابقًا ولا يزال يحتفظ بشريحته بعد الإفراج عنه، فبعض المُفرج عنهم يتكاسلون عن إزالة الشريحة، ما دام النظام لم يعد يعتبرهم سجناء، حتى لو أبقى ذلك أجسادهم في قاعدة بيانات تطبيق جسد.

في تلك اللحظة، تلقّى الطبيب مكالمة هاتفية، فاستأذن منهما وابتعد بضع خطوات كي يجيب المتصل، فهمس يحيى لأسامة:

- لكن لبان لا تزال مُدرَجة كسجينة محكوم عليها بعشرين عامًا فكيف لم تتعرف عليها الحساسات؟

فأطلق أسامة زفيرًا، وقال:

- لا أعرف، ربما لأن النظام يظن أن جسد ليان ما زال في السجن المركزي، فتتجاهله البوابات، كأنه غير موجود أصلًا. كما حدث مع كاميرات المراقبة، حين لم تتعرف عليها في الشارع المجاور للسجن.

حينذاك عاد الطبيب إليهما بعد انتهاء مكالمته، فقطعا حديثهما، وشكراه بمودة على سعة صدره، ثم غادرا.

***

في تمام الثالثة والنصف، التقيا بفريدة في شقة الطابق الأول من بنايتها. وحين أبلغاها بتفاصيل حديثهما مع الطبيب، قالت:

- لقد استعلمتُ عن موقع الفتاة برقم هويتها أكثر من ثلاثين مرة اليوم، وفي كل مرة يؤكد النظام أنها لا تزال في السجن.

ونظرت إلى يحيى، وسألته:

- هل ما زلت متأكدًا أن جسد الفتاة الذي رأيته في المحطة هو جسد ليان؟

قال دون تردد:

- بقدر تأكدي لأنني أقف معكما الآن.

هزّت رأسها، وقالت:

- حسنًا، لنحاول الآن معرفة خط سيرها: من أين جاءت إلى المحطة، وإلى أين اتجهت.

ثم استدارت إلى لوحها الذكي، وبدأت في إدخال أوامر سريعة وهي تقول:

- سأراجع الكاميرات الخارجية التي تغطي محيط المحطة، في الفترة الزمنية التي ظهرت فيها الفتاة.

وبعد ثوانٍ قليلة، قالت فجأة:

- ها هي، وجدتها.

ظهر الفيديو أمامهم: كانت ليان تدخل بوابة المحطة، قادمة من أحد الشوارع الجانبية. فأعادت فريدة المقطع للخلف ببطء، حتى لحظة نزولها من مركبة سوداء، توقّفت للحظات، ثم غادرت. وحينها شهقت فريدة وهي تقرّب الصورة:

- يا الله!

قال أسامة:

- ماذا هناك؟

قالت وهي تعيد المشهد وتثبت الصورة على السيارة التي نزلت منها:

- انظرا إلى السيارة التي نزلت منها.

دقّق أسامة ويحيى النظر إلى السيارة، فوجداها بلا لوحات، زجاجها معتم، وانسيابيتها الخارجية غير مألوفة. فقال يحيى في ذهول:

- سيارة من نوع «الطيف الأسود»؟!

أومأت فريدة برأسها، وقالت:

- نعم، السيارة الفارهة التي لا يستخدمها سوى كبار الشخصيات أو فاحشي الثراء، تُرى بالعين المجردة في الطرق، لكنها في الوقت نفسه تبث موجات ضبابية حول محيطها، تجعلها غير مرئية لكاميرات المراقبة، إلا إذا توقفت وسمح قائدها بذلك.

أطلق أسامة زفيره، وقال:

- فلنأمل ألا تكون المستأجرة شخصية كبرى أو ابنة أحد من جهاز أمني رفيع، وإن كان ذلك قد يفسر ما يحدث ويجعله منطقيًا بعض الشيء.

فتساءل يحيى بصوت خافت:

- لكن ما الذي يجعلها تستخدم القطار، إذا كانت تستطيع الوصول إلى أي وجهة في المدينة بتلك السيارة؟!

فكرت فريدة للحظة، ثم قالت:

- ربما لأنها أرادت الذهاب إلى مكان لا يُستحب فيه الظهور بتلك السيارة الفاخرة.

والتفتت من جديد إلى لوحها الذكي، وأردفت:

- دعني أتأكد من ذلك، لنرَ في أي محطة نزلت الفتاة.

ثم بدأت تُدخل تباعًا رموز المحطات وتوقيتات وصول القطار إليها، لتظهر أمامها على الشاشة مقاطع مسجّلة من كاميرات المراقبة في كل محطة، فأخذت تراجعها واحدة تلو الأخرى بتركيز، وهي تهمس:

- محطة الريحان، لم تنزل هناك.

محطة القباب، لم تنزل هناك.

محطة حدائق النخيل، لم تنزل هناك.

محطة الطلائع، لم تنزل هناك.

محطة المرصد، لم تنزل هناك.

محطة النسيج، لم تنزل هناك.

محطة الجود، لم تنزل هناك.

محطة الماسة، لم تنزل هناك.

حتى وصلت إلى المحطة الأخيرة في مسار القطار، محطة المروج. وبعدما انتهت من مراجعة كاميراتها، قالت:

- لم تنزل هناك أيضًا.

فقال يحيى:

- هذا مستحيل، رأيتُها بعيني داخل العربة!

قالت فريدة:

- وأنا أيضًا رأيتها وهي تركب القطار.

ثم تابعت:

- لكن عدم نزولها في تلك المحطات يتفق تمامًا مع الفرضية التي خطرت لي.

سألها:

- أي فرضية؟

قالت:

- أنها ذهبت إلى مكان لا يُستحب فيه ظهور سيارات الطيف الأسود.

ثم أدخلت بعض الأوامر الجديدة إلى لوحها الذكي، فظهرت على شاشته خريطة المدينة، فكبّرت مسار السكة الحديدية بها، ثم أشارت نحو منطقة عليها، لا يوجد بها أي محطة من المحطات التسع، وقالت:

- هناك محطة قديمة على هذا المسار، لا تخضع لنظام المراقبة. ولا يسمح نظام السكك الحديدية بحجز تذكرة إليها، لكن القطار قد يتوقف فيها بالقوة، إذا أراد ساكنو تلك المنطقة إيقافه لإنزال بعض الركاب منه.

سألها يحيى بحدقتين متسعتين وهو ينظر إلى الخريطة:

- هل تقصدين محطة ضاحية الغبار؟!

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم. ضاحية الغبار.

ثم استدارت إليهما، وأكملت:

- أو كما يُعرف في مدينتنا: ضاحية الخارجين عن القانون.

(10)

في خرائط المدينة القديمة، لم تكن هناك منطقة تُدعى «ضاحية الغبار». فقبل عقود، كانت تلك البقعة تُسمى ضاحية المناجم الشرقية، نسبةً إلى مناجم الكوارتز والنيكل التي اكتُشفت بها في ثلاثينيات هذا القرن.

في تلك الفترة، لم تكن الضاحية مجرّد منطقة عمل، بل كانت أشبه بمدينة صغيرة مكتفية بذاتها. شاحنات تدخل خاوية وتخرج محمّلة بما تخرجه المناجم كل يوم، وعمّال بوجوه مغطاة بطبقات الغبار، وبيوت صغيرة في طوابقها الأرضية متاجر تبيع كل ما يلزم للحياة هناك.

ومع ازدهار تجارة المعادن التي تغذي مصانع الإلكترونيات، قررت الدولة أن تبني سكة حديدية تمرُّ بالضاحية لتربطها بباقي المدينة. وهكذا بدأ الناس يتوافدون إليها من كل مكان: عمّال، ومهندسون، أطباء، ومعلمون، وحتى عائلات بأكملها حلمت بمستقبلٍ أفضل في هذه البقعة الواعدة.

لكن كل شيء تغير فجأة في عام 2080م، إذ وقع انفجار غامض داخل أحد المناجم، قيل إنه بسبب تفاعل غير متوقّع بين مخلفات التعدين ومواد كيميائية تُستخدم في التنقيب.

ابتلع ذلك الانفجار عشرات العمّال في لحظة، وتسبّب في تصدُّع أغلب الأنفاق هناك، فقررت الحكومة إغلاق المناجم مؤقتًا لتقييم الوضع. لكن المؤقت صار ممتدًا، وبدأ المكان ينهار بهدوء، فانسحبت الاستثمارات،

وتوقفت الخدمات، ثم رحل الأطباء، وتبعهم المعلمون، وأخيرًا العمال، تاركين خلفهم أنقاضًا وبيوتًا خاوية إلا من قاطنين لم يكن لهم ملاذ سواها.

وحين قررت الحكومة في عام 2085م توسيع شبكة المراقبة الرقمية، تجاهلت تلك الضاحية تمامًا، بحجة أن الكثافة السكانية فيها أصبحت منخفضة، وأن تضاريسها صعبة. وهكذا، تحوّلت الضاحية تدريجيًا إلى ملجأ للهاربين من الأحكام، والمشردين، ومن لا يملكون هويات، وأولئك الذين رفضوا تطبيق جسد واستخدموا العنف للتعبير عن رفضهم فلاحقتهم الحكومة. لتتشكل هناك حياة جديدة وسط الأنقاض، حياة تسودها الفوضى، بلا قانون رسمي، ولا شرطة، ولا كاميرات، ولا أي صورة من صور التكنولوجيا الحديثة.

لكن مع الوقت، بدأت تلك الفوضى تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى نظام داخلي خاص، تحكمه مجموعات محلية وقواعد يعرفها سكان الضاحية فقط.

ورغم أن الحكومة ألغت محطة قطار تلك الضاحية من سجلاتها فإن السكة بقيت كما هي، لأنها تمتد نحو «حي المروج»، حيث توجد مزارع الأثرياء ومقارُّ الشركات التكنولوجية الكبرى، ولهذا السبب ظل القطار يمرُّ من هناك يوميًّا، دون أن يتوقف في محطة الضاحية، لكن سكان الضاحية لم ينتظروا إذنًا من أحد. فمع الانعطاف الشديد بالسكة الحديدية الذي يجبر القطار على الإبطاء بالقرب من تلك المنطقة، صاروا يوقفون القطار بالقوة، ويركبون عرباته، ويقفزون منه قبل أن يصل إلى أي محطة خاضعة للمراقبة. وعندما يرغبون في العودة يحجزون تذاكرهم إلى حي المروج، وهم يعلمون أن أصدقاءهم سيجبرونه على التوقف من أجل إنزالهم في محطتهم غير الرسمية.

في عام 2091م، حاولت الحكومة اقتحام تلك الضاحية، لكن بعد الخسائر الفادحة التي تكبدتها الشرطة في تلك المحاولة، وقدرة أولئك السكان على اقتلاع قضبان السكة الحديدية وإيقاف مسار القطار إلى حيِّ المروج لقرابة ستة أشهر، حدث ما يشبه اتفاقًا غير مكتوب بين الطرفين: تُصلِح الحكومة سكة القطار كي تعود رحلات القطار إلى حي المروج من جديد، بينما تتجاهل أمر توقفه المؤقت في الضاحية من أجل إنزال أو صعود أحد من أولئك السكان، ما لم يُعتقل في القطار متلبسًا بجريمةٍ مثل حمل سلاحٍ أو مواد مخدرة.

وهكذا، بقي الوضع كما هو عليه. القطار يمرُّ كل يوم، والسكان يوقفونه لدقيقة واحدة، ثم يكمل طريقه وكأن شيئًا لم يكن.

ومع مرور السنين، بدأ ركَّاب القطار يطلقون على تلك الضاحية اسم «ضاحية الغبار»، نسبةً إلى الغبار الذي يكسو بيوتها القديمة قرب السكة، حتى بات ذلك الاسم هو الاسم الوحيد الذي يُعرف به المكان.

•••

مرَّ أسبوعان، ولم تظهر ليان.

لم يعد جسدها إلى محطة وسط المدينة، ولا إلى أيٍّ من المحطات التسع الرسمية التي تمر بها القطارات القادمة من الشرق.

في تلك الأيام، حصلت فريدة على إجازة من عملها، ومكثت تراقب تسجيلات كاميرات المراقبة في تلك المحطات، وتعيد كل تسجيل عشرات المرات، حتى صارت تحفظ أرصفة المحطات، ومقاعدها، ولافتاتها المضيئة، بل ووجوه بعض المسافرين الذين يركبون القطار يوميًّا، لكنها لم ترَ الفتاة التي تشبه ليان مجددًا.

وعندما اجتمعت من جديد مع يحيى وأسامة، قالت بصوت يغلبه اليأس:

- تنتهي إجازتي بعد يومين، بعدها لن أتمكن من مراقبة الكاميرات على مدار اليوم، مثلما فعلت في الأيام الماضية.

ثم صمتت، وتابعت:

- إن انشغلت بعملي، وهذا الاحتمال الأكبر، وظهرت الفتاة في أيّ محطة دون أن أنتبه لوجودها، فسنفقدها إلى الأبد.

فقال يحيى:

- كما قلت لكما مرارًا، إن انتظارنا هنا بلا فائدة، لا بد أن نذهب إلى ضاحية الغبار.

فقال له أسامة:

- وكما قلت لك في كل مرة طرحت فيها هذه الفكرة: إن سكان هذا المكان خطيرون للغاية، لا يرحبون بالغرباء، وقد يفتكون بنا، أو يطلبون فدية من أهلنا. إنهم في النهاية مجرمون لا يضعون أي اعتبار لقوانين الدولة.

وتوقّف قليلًا، ثم أضاف:

- وحتى إن ذهبنا وعدنا سالمين، فالحكومة قد تعرف أننا ذهبنا إلى هناك، وحينها سنكون عرضةً للاستجواب، وربما نُتهم بأي جريمة لا تخصنا ونجد أنفسنا مسلوبي الجسد.

ثم أسند ظهره إلى المقعد، كأنّه اتخذ قراره قبل ذلك اللقاء، وقال:

- سأكتفي عند هذا الحد. وسأبحث عن وظيفة جديدة، فالأموال التي ادّخرتها صارت على وشك النفاد، وأنا أعلم قدراتي جيدًا، لقد أضعت الكثير من الوقت في محاولة فهم ما حدث لليان، لكن يبدو أن النهاية في كل الأحوال لن تخرج عن إيذائي جسديًّا أو سجني، وأنا لا أريد ذلك.

ونهض من مكانه، ثم تابع بهدوء:

- أعتذر لك يا يحيى، لكن هذا قراري الأخير.

ثم غادر، تاركًا فريدة ويحيى وحدهما، فقالت فريدة:

- لا يمكننا أن نلومه. في النهاية، كان يريد معرفة الحقيقة حتى يستطيع العودة لوظيفته، لكن ما دام قد بدأ يشعر أن الأمر سيؤذيه بطريقةٍ أو بأخرى، فعليه أن يختار قراره بنفسه.

فسألها يحيى:

- وماذا عنكِ؟

صمتت لبرهة، ثم قالت:

- أنا أيضًا موظفة حكومية، وفي موقع حساس. إن ذهبتُ إلى ضاحية الغبار فإما سيقتلني الخارجون عن القانون هناك بتهمة التجسس عليهم، وإما سأفقد عملي إن علمت الشرطة بأمر ذهابي إلى ذلك المكان المشبوه.

ثم تابعت بلطف:

- لن أتأخر عن مساعدتك يا يحيى، لكن أقصى ما يمكنني تقديمه لك الآن هو مراقبة الكاميرات من بعيد.

فهز رأسه في صمت، ثم قال:

- لا بأس، سأذهب وحدي.

أومأت برأسها إيجابًا، وكأنها توقعت ذلك. ثم قالت:

- كي تذهب إلى مكانٍ مثل هذا دون أن يتعرض لك أحد، لا بد أن تعرف شخصًا هناك.

زم شفتيه وهز رأسه مجددًا، ثم قال:

- لا أعرف أحدًا هناك، لكنني سأذهب مهما يحدث.

قالت:

- لقد قرأت كثيرًا خلال الأيام الماضية عما كُتب عن تلك الضاحية في السنوات الأخيرة، ليس كل من يسكن هناك مجرمًا. هناك من رفضوا تطبيق «جسد» ولجأوا إلى هناك بعد طردهم من أعمالهم أو إسقاط هوياتهم.

ثم سكتت للحظة، قبل أن تتابع:

- قد يكون بعضهم عرف والدتك. ابحث فقط في دفاترها القديمة إن كانت لا تزال بحوزتك، قد تستطيع الوصول إلى أحدهم.

اندفعت الدماء إلى وجهه وكأن الحياة رُدّت إليه فجأة. وتمتم شاردًا:

- شقتنا القديمة في حي الندى، كانت أمي تحتفظ بأوراقها هناك.

ثم شكر فريدة على تنبيهه إلى ذلك الأمر، ونهض على الفور وهو يقول:

- عليّ أن أذهب إلى هناك الآن.

***

في الطريق إلى حيّ الندى، كانت السيارة الذاتية القيادة التي تقل يحيى تنطلق بهدوء. بينما يجلس في مقعدها الخلفي، ينظر عبر الزجاج إلى المباني التي تمر بجانبه، ويراوده أملٌ بأن يجد في شقة أسرته القديمة رقم هاتف واحد لشخصٍ عرفته أمه في ضاحية الغبار.

وصل إلى الشقة، فأدخل كلمة سر بابها؛ «ضمير»، ثم ولف إلى الداخل، ليجد الغبار يعلو كل شيء. لم يتعجب، فأمه قد تُوفيت قبل ثلاث سنوات، ومنذ ذلك الحين لم تُفتح تلك الشقة.

اتجه إلى خزانة جانبية وفتح أدراجها، فوجدها مليئةً بخطب مطبوعة، ألقتها أمه في مؤتمرات تناهض تطبيق جسد، وعندما لم يجد شيئًا آخر، تحرك إلى غرفة المكتب، وأزاح لوحة صغيرة مُعلّقة على الجدار، فكشفت عن خزانة سرية صغيرة ذات باب معدني.

أدخل كلمة السر نفسها: «ضميرة»، لكنها لم تُفتح. فتحرك إلى المطبخ، وعاد بسكين قديم، وأخذ يحاول فتحها بالقوة، لكن الباب لم يتحرك. فجلس على الأرض، يلتقط أنفاسه، ثم تذكّر شيئًا، فضغط زر ثلاثته واتصل بجده، وهو فاقد الأمل بأنه سيجيب. لكن على غير المتوقّع، جاءه الصوت من الجهة الأخرى، فقال يحيى:

- توقعت أنك لن تجيب.

قال جده:

- منذ زيارتك الأخيرة لي، وصرت أهتم بوجود الهاتف بجواري، لعلي أسمع منك خبرًا مطمئنًا عن ليان.

قال يحيى بلهفة:

- لقد عثرتُ على جسدها، لكن مستأجرته ذهبت إلى ضاحية الغبار. وأنا الآن في شقتنا القديمة أبحث بين أوراق أمي عن أي رقم هاتف، أو أي صورة، لشخص كان يعيش في تلك الضاحية.

صمت الجد للحظة، ثم قال:

- نيران.

سأله يحيى:

- ماذا؟

قال جده:

- كانت نيران إحدى صديقات أمك. وكانت تسكن في ضاحية الغبار. حدثتني أمك عنها كثيرًا.

ثم صمت للحظة أخرى، قبل أن يكمل:

- ابحث في الصور عندك عن امرأة ترتدي حلقًا نحاسيًا كبيرًا على شكل هلال.

فقال يحيى بيأس:

- لا أستطيع فتح الخزانة السرية.

فقال جده:

- 2068/5/30 تاريخ أول استخدام فعلي لتطبيق جسد.

أدخل يحيى الأرقام على الفور، فصدر من قفل الباب صوت صافرة قصيرة، ثم انفتح.

***

كانت الخزانة تحتوي على أوراق وصور كثيرة. أخذ يحيى يقلّب الصور واحدة تلو الأخرى، حتى عثر على امرأة أربعينية، ذات شعر كثيف مموج، ترتدي وشاحًا مزركشًا وحلقًا هلاليًا نحاسيًا كبيرًا، تقف بجوار أمه في إحدى الصور التي دُوّن تاريخ التقاطها قبل خمسة عشر عامًا. فنطق إلى جده عبر الهاتف:

- هل كانت في عمر أمي تقريبًا؟

أجابه:

- أعتقد ذلك.

فابتسم يحيى وشكر جده، ثم أكمل البحث في باقي الصور عن أي نساء أخريات يرتدين نفس الحلق. لكنه لم يجد. بعدها، فتّش في الأوراق عن أي اسم أو رقم بجواره عبارة «ضاحية الغبار»، فلم يعثر على شيء. فوضع الصورة التي تجمع تلك السيدة بأمه في جيبه، وأعاد الأوراق والصور الأخرى إلى الخزانة وأغلق بابها، ثم غادر الشقة، وهو يعد جده بأنه سيعود إليه قريبًا، ومعه خبرٌ سار عن ليان.

بعد ذلك، عاد إلى فريدة، إذ لم يجرؤ على الاتصال بها مع علمه بأن مكالماتها قد تخضع للمراقبة في أي وقت. وحين التقاها وجهًا لوجه أخبرها بما قاله جده عن السيدة نيران صاحبة الحلق النحاسي، وأراها الصورة، فابتسمت وقالت:

- يمكنك الآن الذهاب إلى هناك.

أومأ برأسه باسمًا، فأشارت إلى قلادته، وقالت:

- لا تنس أن تترك هذه هنا قبل ذهابك إليهم، إنهم يكرهون التكنولوجيا الحديثة بكل أشكالها، لدي هاتف تقليدي يمكنك استخدامه.

ثم تحركت إلى إحدى الغرف، وعادت بهاتف صغير ذي شاشة زجاجية ملساء، وأعطته له، فابتسم، ثم خلع القلادة، ونقل شريحتها إلى الهاتف الذي أخذه منها، ثم أعطى القلادة لها كي تبقيها معها إلى حين عودته، فأشارت إلى سلسلة ليان التي تركها حول عنقه، وقالت:

- وهذه السلسلة أيضًا، إنهم مجرمون، قد يسلبونك كل شيء ثمين هناك.

فهزّ رأسه موافقًا، ثم خلع السلسلة وأعطاها لها، قبل أن يغادر متجهًا إلى محطة قطار وسط المدينة.

●●●

كانت الساعة الثانية ظهرًا حين وقف يحيى على رصيف المحطة، ينتظر القطار المتجه نحو حيِّ المروج. عندما وصل القطار جال في باله أن القطار لا يتوقف في كل مرة في ضاحية الغبار، لكنه تمسك بالأمل كما يتمسك الغريق بقشة. أظهر تذكرته الرقمية التي حجزها قبل دقائق على شاشة هاتفه، ومرَّرها على ماسح باب العربة الأخيرة. ثم دخل وجلس إلى جوار النافذة.

حين أغلق القطار أبوابه استعدادًا للتحرك، كانت العربة الأخيرة قد اكتظت بالركاب: رجال، نساء، أطفال، شيوخ، روبوتات. ثم تحرك القطار، فأخذ يحيى يعبث شاردًا بمائة جنيه معدنية وجدها في جيبه، بينما تتلاطم الأفكار في رأسه، فحتى تلك اللحظة لم يكن يعرف ماذا سيفعل عندما يلتقي جسد ليان، وماذا سيقول للمستأجرة، هل يتوسل

لها بأن تستغني عن الجسد؟ هل يهددها بأنه يعرف انحرافها عن الطرق المعتادة لاستئجار الأجساد؟ ولكن كيف سيهددها في ذلك المكان وسط أولئك المجرمين الذين قد يدفنوه هناك حيًّا؟ حقًا لم يكن يعرف، كل ما كان يعرفه أنه يتمنى لقاء الجسد وحينها يحدث ما يحدث.

●●●

مرّت المحطات واحدة تلو الأخرى، وقلّ عدد الركاب بالعربة، فنهض يحيى وتحرك لمقدمتها، ليجلس بجوار رجل مسن، ثم سأله:

- هل سبق لك أن ركبت هذا القطار إلى حيّ المروج؟

فأجابه الرجل ضاحكًا:

- كثيرًا، إنني أعمل في المزارع هناك.

فسأله من جديد:

- هل صادفت يومًا توقف القطار عند ضاحية الغبار؟

ضحك الرجل مرة أخرى وقال:

- يبدو أنك تركب هذا الخط لأول مرة.

هزّ يحيى رأسه، وقال:

- نعم.

فقال الرجل:

- القطار يتوقف هناك أغلب الأحيان.

ثم سكت لبرهة، وتابع بنبرة جادة:

- حين يطلب سكان تلك الضاحية ذلك، يشيرون إلى السائق برقم إحدى العربات، يفتح السائق بابها لدقيقة واحدة لا أكثر. أما أبواب باقي العربات، فلا يُفتح بابها.

قال يحيى بقلق:

- دقيقة واحدة فقط؟ وعربة واحدة؟ كيف نعرف تلك العربة؟

قال:

- نحن لا نعرف، هم فقط من يحددون العربة.

ثم أردف:

- قد يُوقف القطار من أجل إنزال راكب واحد فقط، ومن بين كل هؤلاء الركاب لن تعرف أي واحد سينزل، وفي الحقيقة لا أحد يهتم طالما سيمضي القطار في طريقه ونظل بأمان.

سأله يحيى:

- وماذا لو أردت النزول هناك؟

التفت إليه الرجل بدهشة، ثم قال:

- عليك أن تدعو الله أن يختاروا العربة الأخيرة هذه المرة.

فكر يحيى في أن ذلك القطار يجرُّ تسع عربات، ما يعني أن احتمال أن تكون تلك العربة هي المختارة ضئيلٌ للغاية، لكن الرجل قاطع تفكيره مردفًا:

- غالبًا لا يختارون العربة الأولى ولا الثانية، لأنهما مخصَّصتان لأثرياء حي المروج.

سأله يحيى:

- هل اختاروا العربة الأخيرة من قبل؟

قال الرجل:

- نعم، مثلها مثل العربات الأخرى.

ثم تابع:

- إنهم يختارون عربة مختلفة في كل مرة وكأنهم يلعبون، لدرجة أن بعض الركاب كانوا يجرون مراهنات على العربة التي سيُفتح

بابها، ولن عرفنا فيما بعد أن منظمي تلك المراهنات كانوا من سكان تلك الضاحية الذين يخدعون الركاب ويحصدون أموالهم بعد إقناعهم بعربة معيَّنة بينما يُفتح باب أخرى.

فقال يحيى:

- بما أنك تسافر كثيرًا عبر هذا القطار، فلابد أنك تعرف من ينزلون دائمًا في تلك المحطة.

قال الرجل:

- أعرف بعضهم، لكنهم يتغيرون باستمرار، وأنا عادة لا أشغل بالي، كما أن نظري ضعيف لا أستطيع تمييز الملامح جيدًا.

فالتفت يحيى نحو ركاب العربة، ثم سأله بصوتٍ خافت:

- هل يوجد بين هؤلاء الركاب من رأيته ينزل من قبل في تلك الضاحية؟

قال الرجل دون أن يلتفت:

- لن أتفحَّص الوجوه، فقد يكونون بينهم فعلًا، ولن لاحظوا أنني أتفحص وجوههم، سيظنون أنني من الشرطة وقد يؤذونني. إذا كنت تريد النزول هناك، فهذا شأن يخصك.

بعدما نهض الرجل ليذهب إلى مرحاض العربة، وفي تلك اللحظة وصل إشعارٌ إلى هاتف يحيى، ففتحه، فوجد فريدة قد أرسلت له صورة جسد ليان عندما كان في محطة وسط المدينة قبل أسبوعين، فأخذ يحدق إليها، قبل أن يرفع عينيه إلى رقم فريدة ويكرره بلسانه كي يحفظه بعدما جال في باله أن هاتفه قد يُسرق في الضاحية.

***

بعدما عبر القطار محطة «الماسة»، بدأت سرعته تقل بعض الشيء عن السرعة المعتادة التي كان عليها منذ بداية الرحلة. في تلك الأثناء

نظر يحيى عبر النافذة ولاحظ الانعطاف الشديد الذي بدأ يظهر في السكة الحديدية، ولم تمرُّ دقائق حتى بدأت ملامح ضاحية الفبار تظهر من بعيد؛ منازل قديمة متباعدة، وجدران طوبية، وأنقاض مبانٍ كبيرة بدت وكأنها كانت يومًا مدارس أو مستشفيات. فتمتم بدهشة للمسن الذي كان قد عاد إلى جواره:

- إن عدد البيوت لا يتجاوز عشرين بيتًا على الأكثر!

فضحك الرجل وقال:

- لا، هذه فقط البيوت القريبة من المحطة، البقية توجد خلف الجبلين.

وأشار بيده نحو جبلين متجاورين ظهرا بعيدين عن سكة القطار بنحو كيلومتر، فهز يحيى رأسه متفهمًا قبل أن تتسارع دقات قلبه حين لمح -مع تباطؤ القطار- رجالًا ملثمين يقفون على جانب السكة، وفي أياديهم بنادق. وعندها قال المسن:

- عندما ترى الرجال يقفون بهذا الشكل، فاعلم أن القطار سيتوقف.

وفعلًا، لم تمر ثوانٍ حتى ارتفع صوت المكابح وبدأ القطار يتباطأ بقوة، إلى أن توقف تمامًا. وفي تلك اللحظة صدر داخل القطار التنبيه المعتاد لفتح الأبواب، فنهض يحيى، ونظر إلى باب عربته، فوجده لا يزال مغلقًا، فقال المسن بهدوء:

- حظك سيئ، لقد اختاروا عربة أخرى.

تجاهل يحيى كلماته، وركض إلى الأمام. فتح الباب الفاصل بين العربة الأخيرة والعربة التي تسبقها، وشق طريقه عبر الممر الضيق بين المقاعد وسط دهشة الركاب، فوجد بابها مغلقًا أيضًا. عبر إلى العربة السابعة، الباب مغلق. واصل الركض نحو العربة السادسة، الباب مغلق. العربة الخامسة، الباب مغلق.

أصدر القطار تنبيهًا جديدًا: «سيتم إغلاق الأبواب خلال عشر ثوانٍ».

فركض بأقصى ما يمكن وهو يهمس:

- أرجوكم، لا.

وصل إلى العربة الرابعة، ورأى بابها مفتوحًا. فاندفع نحوه. غير أن امرأة أعاقت طريقه، فأزاحها بذراعه وهو يعتذر، وواصل الركض نحو الباب الذي كان مصراعاه قد بدآ في الانغلاق، وحين صار على بُعد خطوتين ولم يكن يتبقى حيز مفتوح من الباب إلا قدم واحدة أو أقل، قفز بكل قوته نحو الباب، ليعبر إلى خارج القطار، ويتدحرج على الأرض الترابية. ومع انحدار الأرض استمرت دحرجة جسده دون أن يستطيع إيقافه، حتى أوقفته قدمٌ منتعلةٌ حذاءً جلديًا طويلًا، حين رفع رأسه لينظر إلى صاحبها، وجد فوهة بندقيته مُوجَّهةً نحو منتصف جبهته.

(11)

حين رفع يحيى عينيه نحو صاحب البندقية، وجده رجلًا طويل القامة، عريض المنكبين، يرتدي معطفًا بنيًا داكنًا، ووجهه مُغطى بوشاح أسود لا يظهر منه سوى عينين حادتين. صاح الرجل بصوت أجش:

- من أنت؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟

فرفع يحيى يديه لاهثًا، وقال بصوتٍ متقطع:

- جئت.. أبحث.. عن السيدة نيران.

ثم حاول أن يمد يده إلى جيبه ليُخرج صورة السيدة نيران مع أمه، فحرك الرجل فوهة البندقية إلى صدره، صارخًا فيه:

- اثبت مكانك! لا تتحرك!

ودون أن يلتفت، صاح فيمن معه:

- فتشوه.

فتقدم رجلان ملثمان آخران، وأمسكا يحيى من ذراعيه، وراحا يفتشانه بعنف، بينما وقف ستة رجال آخرون، بعضهم ملثمون وبعضهم بوجوه مكشوفة، يراقبون المشهد بصمت.

بعد لحظات، أخرج أحد الرجلين الهاتف التقليدي والصورة من جيوب يحيى، وسلّمهما للقائد الذي أمرهما بالتفتيش، فحدّق إلى الصورة طويلًا، ثم حرك عينيه إلى يحيى، فقال يحيى:

- السيدة نيران، كانت صديقة أمي.

فيما قال الملثم الآخر المُكلف بالتفتيش:

- لا شيء آخر معه، لا سلاح ولا أجهزة تجسس.

فأومأ القائد برأسه، وقال بلهجة جافة:

- أحضروه.

فاقتادوه دون أن يغطوا عينيه، نحو الممر الذي يقع بين الجبلين الرمليين، حيث لا توجد بوابة أو مدخل واضح، فقط طريق من الحصى تتناثر على جانبيه أطلال مبانٍ شبه منهارة، وأسلاك صدئة تتدلى من أعمدة فولاذية قديمة.

حين اجتازوا الجبلين، فتح يحيى فمه من الدهشة، إذ انحدر الطريق أمامه فجأة، وظهرت في الأفق الضاحية الحقيقية، ممتدة على مساحة تعادل ثلاثة أحياءٍ كاملة من المدينة، ببيوت متلاصقة تصطف على جانبي أزقة ضيقة تتعرج في كل اتجاه، كأنها شبكة لا تنتهي.

كانت المسافة المتبقية إلى الضاحية تقارب كيلومترًا واحدًا، فبدأ يحيى يهبط مع الرجال بخطوات أسرع مع انحدار الطريق الشديد، وعيناه تحدّقان نحو الضاحية وكأن عقله لا يصدّق أن كل هذا العالم مختبئ هنا بين الطلال والغبار، بعيدًا عن المدينة الحديثة. وحين اقتربوا من نهاية الطريق، بدأت تفاصيل البيوت تتضح شيئًا فشيئًا، إذ كان أغلبها يتكون من طابقين، وكانت جدرانها قديمة يغطيها غبار كثيف وعلى بعضها شعارات باهتة لم يحاول تفحصها كي لا يثير ريبة من يقتادونه.

ثم بلغ مع الرجال مشارف أحد الأزقة، فانحرفوا إليه، فلمح أطفالًا حفاة يركضون بين الزوايا ويختفون، ونساءً يقفن عند الأبواب أو يعلّقن الثياب على حبال متهالكة تمتد أمام الشرفات، ورجالًا يجلسون في مقاهٍ صغيرة متقاربة، يحتسون شرابهم، دون أن يهتموا باقتياد الرجال له كأن هذا المشهد مألوف لديهم.

كان يحيى يبحث بعينه في كل اتجاه، وهو يُدفع من الرجال بين الزينة لعلّه يلمح جسد ليان، فيصرخ:

- جئت من أجلها.

وكلما لمح فتاة تشبهها، توقف للحظة، فيدفعه أحد الرجال كي يواصل سيره، فيواصل بعدما تلتفت الفتاة ولا يجدها جسد ليان، ثم بدأ يسأل الرجال الذين يدفعونه عمّا إذا كانوا يأخذونه إلى السيدة نيران أم إلى مكان آخر، لكن أحدًا منهم لم يجبه. حتى توقفوا فجأة أمام غرفة طويلة صغيرة تقع بين البيوت، والتفت القائد إلى رجاله، وأشار لهم دون أن ينطق بشيء، ففتح أحد الرجال بابها الخشبي، ثم دفعه رجلان آخران إلى داخلها، فصرخ يحيى إلى قائدهم:

- لا يمكنك حبسي هنا، جئت من أجل السيدة نيران.

فرد عليه بنبرة هادئة:

- ستبقى هنا، حتى تقرر نجلاء مصيرك.

سأله بارتباك:

- من نجلاء؟!

فلم يجبه القائد، فقط أشار إلى أحد رجاله، فأغلق الرجل الباب، تاركًا يحيى في الداخل.

●●●

لم يصدّق يحيى نفسه حين أغلقوا عليه باب الغرفة، فصاح وهو يضرب الباب بكلتا قبضتيه:

- لا يمكنكم حبسي هنا، لا يمكنكم حبسي هنا.

فجأة، أضيء مصباح ضعيف الإضاءة كان يتدلى بسلكٍ مهترئ من السقف، وبعدها ساد الصمت في الخارج، فأدرك أن الرجال قد رحلوا وتركوه وحده، فالتفت إلى الغرفة فوجد أرضيتها مفروشة بسجادة

بالية، وفي أحد أركانها تراكمت زجاجات فارغة وأكياس قمامة متسخة، فجلس بعيدًا عن ذلك الركن مسندًا ظهره للحائط، وأخذ يفكر فيما قد يفعله أولئك الناس به إن كان قد أخطأ وأحضر صورة الشخص الخطأ ولم تكن هناك من تُدعى نيران بينهم، لكنه عاد وطمأن نفسه بأنهم يعرفونها بلا شك وإلا لما سمحوا له بالدخول إلى قلب ضاحيتهم بأعين مفتوحة. ثم فكر فيما رآه من تدهور حال تلك الضاحية وبيوتها وهيئة سكانها، وجال في ذهنه احتمال أن تكون فريدة قد أغفلت لحظة نزل فيها جسد ليان في إحدى المحطات التسع الرئيسية، أو لحظة أخرى عاد فيها الجسد إلى محطة وسط المدينة. فما الذي يدفع امرأة قادرة على دفع إيجار جسدٍ لعشرين عامًا، وتمتلك سيارة طيفٍ أسود، إلى المجيء إلى هذا المكان الموحش، بل والبقاء فيه أسبوعين كاملين؟!

ولوهلة، أراد أن ينهض من جديد ويطرق الباب صارخًا بأن يتركوه وشأنه، ليغادر الضاحية ولا يعود. لكنه بقي في مكانه، يحدق إلى جدار الغرفة المشقق أمامه دون أن يحرك ساكنًا. حتى انتفض جسده فجأة حين سمع صدى طلقة نارية بعيدة، وفي تلك اللحظة وثب إلى ذهنه الاسم الذي نطق به قائد الملثمين حين حبسه في تلك الغرفة: نجلاء وتساءل في نفسه: من نجلاء تلك؟ هل هي قائدة الضاحية؟ هل هي قاضيتهم التي تقرِّر عقاب المتطفلين على ضاحيتهم؟ هل هي من أطلقت تلك الرصاصة التي سمع صداها الآن؟

وبدأ قلبه يخفق بتوترٍ لم يشعر به منذ أن دلف إلى عربة القطار، ونهض ليتحرك جيئة وذهابًا في الغرفة حتى توقف فجأة حين لاحظ وجود ثقبٍ صغير بحجم عملة معدنية في الجزء السفلي من أحد جدران الغرفة، قبل أن يقترب منه ويجثو على ركبتيه، ويلصق عينه به. فرأى ساحة في الخارج، يركض فيها الأطفال وهم يصرخون فرحًا، فواصل النظر عبر ذلك الثقب وكأنه وجد فيه ما يؤنس وحدته في أثناء بقائه في

ذلك السجن، حتى إنه فكر في أن ذلك الثقب قد حُفر من قِبل شخص مكث في تلك الغرفة وقتًا طويلًا، ليكون متنفسه إلى الخارج، ثم أغمض عينه متمنيًا في أعماقه ألا يطول بقاؤه في ذلك المكان. وعندما فتحها من جديد، انتفض قلبه بقوة، إذ لمح قطًا رمادي اللون من سلالة الشارتروه يتحرك بعينًا في الساحة، يشبه تمامًا قط ليان القديم في دار الرعاية، لكنه كان بصحة جيدة، قبل أن تنحني إليه فتاة في نفس طول ليان، وتلتقطه من الأرض، لكنها لم تكد تحمله حتى قفز من يدها، كأنه يطارد شيئًا ما، فألصق يحيى عينيه بالثقب أكثر محاولًا التدقيق في ملامح الفتاة، لكنها تحركت من مجال رؤيته قبل أن يتبين ملامحها، فتراجع إلى الخلف، وجلس وأسند ظهره للحائط، وهو يردد لاهثًا:

- ليان!

●●●

بعد قرابة أربع ساعات، فُتح الباب أخيرًا، ودخل رجلان غير ملثمين، أشارا إليه أن يقف، ثم أمسكا بذراعيه واقتاداه عبر الأزقة شبه المظلمة إلى بيت كبير ذي سلالم خارجية تنتهي بباب حديدي نصف مفتوح. صعدا به السلالم ثم دفعاه إلى الداخل دون أن يدخلا معه، فوجد نفسه في ردهة ذات سقف معدني مرتفع، تتوسطها طاولة خشبية تجلس خلفها شابة في منتصف العشرينيات، ترتدي سترة جلدية قديمة، شعرها الأسود معقود للخلف، وكتفاها مشدودتان كمن اعتاد حمل المسؤولية في عالم لا يرحم. حين وقف على بعد خطوات أمامها، لاحظ على أذنها اليمنى حلقًا نحاسيًا كبيرًا على شكل هلال، وانتبه إلى الشبه بينها وبين السيدة نيران التي يبحث عنها، خاصةً حدة العينين. لكنه لم ينطق بشيء، وحرك عينيه إلى جانب الردهة، حيث كان يقف شاب طويل مكشوف الوجه، يرتدي المعطف البني نفسه الذي كان يرتديه قائد المجموعة الملثمة التي اقتادته من سكة القطار إلى الضاحية، بدا في

أوائل الثلاثينيات، حليق اللحية والشارب، وملامحه وسيمة رغم قسوتها، وحين التقت أعينهما تأكد يحيى أنه القائد نفسه. على الجهة الأخرى من الربحة كان يقف رجلان آخران مكشوفي الوجه، وعلى أكتافهما بنادق معلّقة. فعاد ونظر إلى الفتاة التي كانت تحدق إلى ملامحه بينما تضع أمامها على الطاولة صورة أمه مع نيران التي أخذها الرجال منه عند سكة القطار، وساد الصمت لثوانٍ، قبل أن تسأله الفتاة بنبرة جافة:

- لماذا تبحث عن السيدة نيران؟

تأكد في تلك اللحظة أن تلك الفتاة هي نجلاء التي تحدث عنها ذلك الشاب حين حبسه بالغرفة، فبدأت دقات قلبه تتسارع، وابتلع ريقه اضطرابًا بعدما شعر كأنه في محاكمة لن يخرج مصيرها عن قتله أو الإفراج عنه، اعتمادًا على اقتناع تلك الفتاة بردوده. فقال محاولًا إخفاء ارتباكه وهو يثبّت نظره على صورة أمه مع نيران:

- إنها صديقة أمي.

قالت الفتاة:

- لكنها ماتت قبل عشر سنوات.

فابتلع ريقه مرة أخرى، مستغربًا في سرّه أن أمه لم تخبر جده بهذا الأمر، ثم تمالك نفسه وقال بهدوء وهو يحدق إلى قرطها:

- أمي أيضًا ماتت منذ سنوات، لكنهما كانتا صديقتين. وقد جئت إلى الضاحية معتمدًا على تلك الصداقة، دون أن أعرف أن السيدة نيران قد ماتت.

فقالت:

- لا تبدو مجرمًا لتعيش هنا، ولا أعتقد أنك مناهض لتطبيق جسد مثل أمك، وإلا لجئت إلينا منذ وقت طويل.

فقال باسمًا بنبرة يسودها الارتياح بعدما أدرك أنها تعرف أمه:

- لم آتِ لأعيش هنا، وإنما جئت لأبحث عن جسدٍ مستأجَر نزل إلى محطتكم قبل أسبوعين، ولم يغادر.

رفعت حاجبيها بتعجب، بينما قال الشاب ذو المعطف البني بصوته الأجش:

- لا مكان للأجساد المؤجَّرة هنا.

فقال يحيى:

- أنا متأكد أنه نزل في هذه الضاحية، لقد راقبنا جميع محطات القطار بين وسط المدينة وحي المروج، ولم يظهر في أيٍّ منها.

فقال الشاب بحدة:

- الشرطة وحدها من تستطيع مراقبة المحطات، هل تعمل معهم؟

فأجابه:

- لا، أنا طبيب بيطري، لكنني استطعت معرفة ذلك الأمر بمساعدة صديق.

بدا على وجه الشاب عدم الاقتناع، وحرك يده إلى سلاحه الناري، فقالت له الفتاة بنبرة حازمة:

- اهدأ يا موسى، لقد حكت لي أمي كثيرًا عن أمه، لقد كانت معارضة كبيرة لنظام جسد. من المستحيل أن يُقبَل هذا الشاب بين رجال الشرطة وأمه «أم الأخلاقيات».

فأبعد موسى يده عن سلاحه، بينما تذكر يحيى صورة جسد ليان التي أرسلتها فريدة إلى هاتفه التقليدي أثناء ركوبه القطار، فقال:

- إن الجسد المُؤجَّر هو جسد حبيبتي، وقد جئت باحثًا عنه. تُوجد صورته بالهاتف الذي أخذتموه مني قبل ساعات.

فأشارت نجلاء إلى موسى، فأخرج الهاتف من جيب معطفه، وتقدم نحوها ووضع الهاتف على الطاولة أمامها، ثم عاد إلى مكانه، فأشارت

إلى يحيى، فتقدم إليها وفتح الهاتف، ثم أراها صورة ليان، فحدقت في الصورة لثوانٍ، ثم رفعت عينيها إليه، وقالت:

- لا نعرف شيئًا عن هذا الجسد.

ثم أضافت باقتضاب شديد:

- سيمر القطار المتجه من حي العروج إلى وسط المدينة بضاحيتنا في الثامنة والنصف صباحًا. ستبيت ليلتك هنا، وفي الصباح سنوقف القطار من أجلك، لتصعد إليه وتعود إلى المكان الذي جئت منه.

ونظرت إلى موسى، وأردفت:

- هو في حمايتي حتى موعد القطار.

غمغم يحيى:

- لكنني متأكد، لقد رأيت قطًا يشبه...

فرفعت يدها بحركة حازمة كي يتوقف عن الكلام، ثم أشارت إلى أحد الرجلين الواقفين في جانب الردهة بأن يخرجه، فتقدم الرجل وأمسك ذراعه بقوة، وسحبه إلى الخارج، حيث سلّمه للرجلين اللذين أحضراه من الغرفة، وقال لهما:

- هو في حماية نجلاء حتى الثامنة والنصف صباحًا.

فأومآ برأسيهما، ثم اقتاداه عبر الأزقة إلى الغرفة من جديد، وأغلقا الباب من الخارج.

***

جلس في الغرفة، مسندًا ظهره إلى الباب، وصدره يعلو ويهبط بأنفاسٍ مضطربة، ثم أخذ يسترجع تلك الدقائق التي وقف فيها أمام نجلاء، وتساءل في نفسه:

- هل قالت الحقيقة؟ هل حقًا لا تعرف شيئًا عن جسد ليان؟ ولماذا قررت رحيلي فورًا على متن أول قطار يمر عبر الضاحية، دون أن تتركني أشرح أي شيء؟ لماذا لم تمنحني فرصةً للبحث بنفسي عن جسد ليان؟ لعل أحدهم ساعد المستأجِرة على البقاء في الضاحية دون علمها. وماذا عن الفتاة التي التقطت القط؟ هل هي فعلًا مستأجرة جسد ليان، ولا تدري نجلاء عن وجودها هنا؟ أم كان القط والفتاة مجرد هلاوس أصابتني بعد حبسي في هذه الغرفة؟

لتعصف تلك الأسئلة في ذهنه بلا توقف، حتى إنه لم يستطع النوم. وبقي طوال الليل يحدق إلى السقف، بينما تتردد أصوات الضحكات ووقع الخطوات في الخارج. حتى طلع الصباح وتعالى صياح الديكة، وبعد نحو ساعتين، فُتح الباب ودخل الرجلان نفساهما اللذان اقتاداه إلى نجلاء في الليلة الماضية، وأشارا إليه أن يخرج.

نهض وتحرك إلى الخارج بخطواتٍ متثاقلة، فقدّم أحدهما إليه شطيرة جبن، وقال:

- لقد أوصت نجلاء بإكرامك. سنأخذك الآن إلى سكة القطار.

أومأ برأسه وسار بينهما، دون أن يمسك أحدهما بذراعه، ثم بدأ يأكل الشطيرة وهو يمشي، حتى لمح على جانب الطريق فأرًا ميتًا، أحشاؤه ممزّقة بأسنان حيوان، ودمه اليابس متناثرٌ على الحصى، فعاد إلى ذهنه قط الشارتروه، والفتاة التي انحنت والتقطته، وهمس إلى نفسه:

- لم تكن هلاوس.

ثم فجأة، ودون سابق ترتيب، قرر أن يركض، إلى أين؟ لم يكن يعلم. كل ما كان يعرفه أن الرجلين لن يؤذياه طالما نجلاء أمرت بحمايته. وفي لحظة، انحرف إلى زقاق ضيق على يساره، وركض. فصاح أحد الرجلين:

- توقف!

لكنه واصل الركض من زقاق إلى زقاق، ومن ممر إلى آخر، يسمع وقع أقدام الرجلين خلفه، ولا يلتفت أو يتوقف، يصطدم بجدران، ويتعثر، ثم يستعيد توازنه ويكمل. كانت الأزقة تلتف كمتاهة، والصيحات تتعالى وراءه، لكنه استمر، تأخذه الأزقة والممرات إلى حيث لا يدري، حتى وصل إلى أطراف الضاحية البعيدة، فبدأت المسافات بين البيوت تتباعد والشوارع تتسع، فواصل الركض بينما يلاحقه الرجلان، حتى وجد نفسه أمام بيت بعيد بعض الشيء عن باقي البيوت، يحيط به سور خشبي قصير، وتنتصب أمامه شجرة توت ضخمة، وحينها توقف، وقلبه يدق بعنف.

كان ذلك البيت يشبه تمامًا البيت الذي لطالما رسمته ليان في دفتر أحلامها، لن يخطئه أبدًا هو ولا شجرة التوت التي توجد أمامه. حدَّق إلى باب البيت لاهثًا، وقد شعر بجسده يتجمد، ثم التفت إلى الرجلين اللذين يلاحقانه فوجدهما يقتربان بسرعة، فركض نحو البيت وعبر سوره الخشبي القصير، ثم طرق بابه بقوة. كان يطرق فحسب دون أن يعرف ماذا سيفعل بعدها، أو ماذا سيقول لمن سيفتح الباب. ثم اقترب الرجلان منه للغاية، فلم يحاول الهرب، بل واصل الطرق بجنون، حتى أمسكه الرجلان من ذراعيه، فحاول الإفلات منهما بكل ما أوتي من قوة وراح يركل الباب بقدميه، حتى فُتح الباب أخيرًا، لتتسع حدقتا عينيه ذهولًا حين وجد أمامه ليان بشعرها القصير، في ثوب منزلي، وقد بدا على ملامحها أنها لم تتفاجأ بكونه الطارق، قبل أن تبتسم، وتقول له بنبرة هادئة:

- مرحبًا، أيها النذل.

(12)

- ليان؟!

همس يحيى في صدمة كبرى.

نظرت الفتاة إلى الرجلين الممسكين به، وقالت بنبرة حازمة:

- اتركاه.

فأفلتا ذراعيه على الفور، وتراجعا خطوتين إلى الخلف، فأشارت له أن يتبعها إلى الداخل.

تقدَّم خلفها مذهولًا، وعيناه معلقتان بها، فيما يهمس له عقله بأن ما يراه ليس حقيقيًّا، وأنه ربما عالق في حلمٍ ما، أو محاكاة وهمية.

جلست ليان على أحد المقعدين المجاورين لطاولة دائرية تتوسط الردهة، وأشارت له أن يجلس على المقعد المقابل، فجلس مرتبكًا، وعيناه ما زالتا معلَّقتين بها، ثم سألها بصوتٍ مضطرب:

- هل أنتِ ليان حقًّا؟ أم أنتِ مستأجرتُها الجديدة؟

ابتسمت بمرارة وقالت:

- وهل تظن أن المستأجرة تعرف أنك كذبت في المحكمة، وخذلتني أمام الجميع؟

قال يحيى بصوت مبحوح:

- ليان، أنا...

ابتسمت مرة أخرى بمرارة أكبر، وقالت:

- لم تتغير يا يحيى، ما زلت تتلعثم حين لا تستطيع المواجهة.

ابتلع ريقه وقال بصوت متقطع:

- كنت أحصي الأيام... أنتظر اليوم الذي أراكِ فيه... لأعتذر، لأبكي عند قدميكِ... وأقول لكِ إنني كنت جبانًا، لا أستحقك.

لمعت عيناها بالدموع، وقالت:

- حين كنت هناك، أمام القاضي، ظننت أن حبك سيحميني. أنك ستنقذني. لكنك كنت أنت الجلّاد.

قال يحيى بندم كبير:

- كنت أحمق، لكني كنت أموت كل ليلة. ولطالما حاولت أن أصل إليكِ لأطلب منك المغفرة، لكنك كنتِ ترفضين لقائي في كل مرة.

قالت بسخرية:

- ولماذا كنت تنتظر مني؟ وأنت من ألقى بي إلى ذلك الجحيم؟

تساقطت دموعه، وقال بنبرة مرتعشة:

- لم أحب في حياتي أحدًا سواكِ.

فقالت ببرود:

- وأنا لم أكره أحدًا كما كرهتك يومها. ليتني مزقتُ جسدك حين سنحت لي الفرصة في ذلك اليوم.

قال بصوتٍ مختنق بالدموع:

- أقسم بالله إنني ندمت حتى الموت.

فقالت وهي تحدّق في عينيه:

- لولا أنني لا أريد أن ألطّخ يدي بالدماء، لشققت عنقك بسكينٍ أمام أهل هذه الضاحية، حتى تكون عبرة لكل خائن.

هزّ رأسه صامتًا. فسألته:

- لماذا تلاحقني؟ ظننت أن لقاءنا في محطة قطار وسط المدينة كان صدفة.

قال وهو يمسح دموعه بذراعه:

- كنت أظن أنكِ في خطر كبير، وكنت أسعى لإنقاذك.

قالت بتهكم:

- تريد أن تكفّر عن ذنبك تجاهي؟

هز رأسه وقال:

- لا شيء قد يكفّر جرمي تجاهك، لكن على الأقل لم أكن لأرى جسدك يُسرق وأبقى ساكتًا.

قالت:

- لا تقلق عليّ. السنوات الثلاث الماضية كانت خير معلم لي. أنا بخير تمامًا. وإن كنت أريد شيئًا فهو ألا أراك مرة أخرى.

أومأ برأسه، وقال:

- حسنًا، سأغادر. يكفي أنني اطمأننت أنك بخير.

ثم نهض كي يغادر، لكن في تلك اللحظة انفتح باب البيت واندفع عبره موسى، وما إن اقترب من يحيى حتى لكمه وأسقطه أرضًا، وهو يصرخ فيه:

- ألم نقل لك أن تغادر على متن القطار؟

نظر يحيى إليه وهو يمسح خط الدماء الذي سال عن جانب فمه. ثم رفع عينيه إلى المكان من حوله، وكأن تلك الضربة أيقظته من الذهول الذي أصابه منذ رأى ليان أمامه. وراح يتساءل في داخله:

- ما الذي أتى بليان هنا؟ ولماذا أطاع الرجلان أوامرها في الحال؟ وكيف تكون هنا بجسدها ووعيها، بينما يؤكد أسامة أن وعيها لا يزال سجينًا في السجن الرقمي؟ هل خططتْ لكل ما حدث كي

تهرب من السجن؟ وكيف فعلتْها بهذا الإحكام؟ لكن.. لماذا تهرب أصلًا؟ وقد كانت على وشك إنهاء عقوبتها واستعادة حريتها رسميًّا؟

ثم عاد بنظره إلى ليان، وأراد أن يسألها:

- ماذا يحدث؟! وماذا تفعلين هنا؟!

لكن موسى التفت إلى ليان، وقال:

- عذرًا سيدتي، كان خطأً جسيمًا منا، نرجو المغفرة.

وفي تلك اللحظة، دخلت نجلاء هي الأخرى إلى الردهة، ورأت يحيى راقدًا على الأرض والدماء تسيل من فمه. فقال موسى لها بنبرة يغلب عليها الاعتذار:

- لقد باغت الرجال وتمكن من الوصول إلى هنا.

فسألت نجلاء ليان:

- هل أنتِ بخير، سيدتي؟

هزت ليان رأسها إيجابًا في صمت، فالتفتت نجلاء إلى الرجلين الواقفين أمام الباب، وقالت بغضب:

- خذاه إلى السجن، حتى نقرر موعد محاكمته.

فقال يحيى وهو يحدّق إلى ليان:

- أي محاكمة؟! أي محاكمة يا ليان؟!

لم تجبه. وكأنها وافقت ضمنًا على قرار نجلاء. بينما أمسكه الرجلان بقوة وجرّاه إلى الخارج، عائدين به إلى الغرفة الصغيرة التي حُبس فيها من قبل.

***

في طريق العودة إلى الغرفة، كانت الأزقة قد صارت أكثر ازدحامًا مما كانت عليه وقتما هرب يحيى من الرجلين. وقف الرجال والنساء يتهامسون هذه المرة، بينما كان الرجلان يجرّان يحيى بقوة، وهو يلتفت خلفه نحو البيت الذي وجد فيه ليان، وكأنه لا يريده أن يغيب عن ناظريه. ثم سأل أحد الرجلين:

- لماذا أطعتما أوامرها؟! ولماذا يناديها موسى ونجلاء بـ «سيدتي»؟! ما علاقة ليان بما يحدث هنا؟!

لكن أحدًا لم يرد عليه بكلمة، حتى أدخلاه الغرفة وأغلقا الباب خلفه. فأخذ يتحرك في الغرفة جيئة وذهابًا كالمجنون، وداخله يعصف بمزيج من المشاعر المضطربة، فأخيرًا تحقق حلمه وقابل ليان، وحتى لو قالت إنها لم تعد تود رؤيته، فيكفي أنه اطمأن أنها بخير. بل وتذكّر كلماتها حين قالت إنها ودّت لو شقّت عنقه أمام الجميع، وابتسم. ربما لأنه في أعماقه كان يؤمن بأنه يستحق ذلك.

ومع ذلك عاد يتساءل مرة أخرى: كيف تواجدت خارج السجن بوعيها وجسدها؟ وإن كانت قد نفذت خطة لهروبها، فكيف نفذتها بهذا الإحكام؟ ولماذا لم تنتظر إطلاق سراحها في موعدها لتعود للعيش في المدينة بدلًا من المجيء إلى هذا المكان الموحش؟ ومن بنى لها ذلك البيت؟ ومتى؟ ولماذا يكنُّ لها موسى ونجلاء ورجالهما كل هذا الاحترام؟ هل لأنها إحدى ضحايا تطبيق «جسد» أم هناك قصة خفية وراء ذلك؟

ثم تذكر كلمات نجلاء للرجلين بأن يعيداه إلى الغرفة حتى تقرر موعد محاكمته، لكنه لم يشغل باله بهذا الأمر، وكأنه لم يعد يهتم بشيء بعدما رأى ليان بخير. فقط، جلس بأحد الأركان، يسترجع بأنفاس هادئة كل لحظة قضاها أمام ليان في ذلك البيت، وكأن غايته من الحياة قد تحققت أخيرًا بذلك اللقاء، وكلما حدثه ذهنه بأنها لم تعلن له عن غفرانها، همس لنفسه:

- لقد نجت على أي حال.

لتمضي ساعاته في الغرفة واحدة تلو الأخرى على هذا النحو، حتى سمع فجأة أصوات طلقات نارية تتعالى في الخارج. في البداية، ظن الأمر عاديًا في هذا المكان. لكن الصوت استمر أكثر من عشر دقائق متواصلة، وأخذ يقترب شيئًا فشيئًا، مصحوبًا بزئير دراجات نارية يزداد حدة.

وفجأة، انفتح باب الغرفة، وظهرت أمامه امرأة ملثمة، رشيقة القوام تصرخ فيه:

- هيًا، تعالَ معي.

نظر إليها بخوفٍ ممزوج بفضول، فصرخت فيه من جديد:

- أسرع يا يحيى، قبل أن يصلوا!

فتقدم نحوها، فركبت دراجتها النارية، وصرخت فيه بأن يركب خلفها، فركب، فانطلقت بسرعة جنونية، بينما كان هناك ملثمون آخرون يركبون دراجات نارية أخرى خلفهم، ويطلقون الطلقات النارية في اتجاهات مختلفة، وكأنهم يحيطون أي ملاحقة لهم. لتتقدم الدراجة النارية بين الأزقة، بينما يهتز جسد يحيى بقوة وهو يتشبث بالمرأة التي تحكم قبضتها على المقود بثبات، دون أن تبطئ من سرعتها الجنونية. حتى انعطفت فجأة إلى أحد الأزقة، وأوقفت الدراجة بمهارة، وقفزت عنها وصاحت في يحيى:

- هيا، انزل!

ثم ركضت مبتعدة عن الدراجة، فنزل وانطلق خلفها، بينما ظهر شابان ملثمان أحدهما يرتدي معطفًا يشبه معطفها، ركبا الدراجة النارية وانطلقا بها مبتعدين.

***

بعد الركض والانعطاف في أكثر من زقاق، توقفت المرأة أمام باب أحد البيوت، وفتحته وهمَّت بالدخول، فتوقف يحيى عند الباب، ينظر بتشكك إلى بعض الأشخاص الواقفين في نوافذ البيوت المجاورة، فقالت له:

- لا تقلق، لن يفشوا سرَّنا.

دخل معها وأغلقت الباب من خلفهما، ثم خلعت الوشاح الذي كان يلثم وجهها، فإذا بها شابة في أوائل العشرينيات، ذات عينين عسليتين وشعرٍ كستنائيٍّ طويل، فسألها يحيى بنبرة تجمع بين الحيرة والفضول:

- مَن.. أنتِ؟

فقالت بهدوء:

- أنا مرام، يا يحيى.

ارتبك، وقال:

- عفوًا؟ أي مرام؟

ابتسمت قليلًا، وقالت:

- مرام، صديقة ليان.

بدا عليه عدم التصديق، فقالت:

- أعلم أن الأمر يصعب تصديقه، لكني سأثبت لك صحة ما أقول. لقد جئتُ إليك باحثةً عن ليان بعد خروجي من دار الرعاية، وعندما عرفتُ منك أنها سُجنت، صممتُ على دخول السجن لأبقى بجوارها، وجلسنا نفكر معًا في الجريمة التي أرتكبها لأدخل السجن، حتى اقترحت عليَّ فكرة تدمير الروبوت.

اتسعت عينا يحيى، لكنه ظل صامتًا، إذ فكر في أن ذلك الأمر سهلٌ ليعرفه أي شخصٍ قد تكون مرام أخبرته به قبل موتها، فأردفت، وكأنها تعطيه مزيدًا من الأدلة:

- ألا تتذكر السيدة كولر، العاملة في دار الرعاية، التي لم تكن تحب زياراتك لليان؟ وفي إحدى المرات اتفقتُ معك على حبسها في دورة المياه حتى تنتهي من لقائك مع ليان، لكنها بدأت تصرخ مستغيثة وهي تسعل بشدة، فركضت إليكما وأخبرتكما في سعادة بما يحدث لها، لكنك تركتنا وهرعت إليها وأخرجتها، لتكتشف أن تسربًا حدث بالغاز في الداخل في أثناء حبسها هناك، ولولا أنك أخرجتها في الوقت المناسب لماتت. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت ترحب بك في أي وقت، دون أن تعرف أنك من خطط معي لحبسها في ذلك المكان.

رفع حاجبيه بدهشة، فلم يكن يعلم بهذا الأمر فعلًا سوى هو وليان ومرام، وظل سرًا بينهم، إذ كان كفيلًا بطرد ليان ومرام من دار الرعاية، وربما إحالتهم جميعًا للمحاكمة إن أصاب تلك السيدة أي مكروه.

ثم بدأت الفتاة تعدّد له التواريخ والأحداث؛ منذ أن ذهب إلى الدار كطالب متدرب، مرورًا بلقائه بليان حين استعانت به لعلاج قطها، وبداية قصة الحب بينهما، واحتفالات ليان معه بأعياد ميلاده، واليوم الذي خرجت فيه ليان من الدار، وصولًا إلى اليوم الذي عرفت فيه بما حدث لليان، وذهابها في اليوم نفسه إلى فرع شركة «جسد» لزرع الشريحة في مؤخرة عنقها، كي تستطيع دخول قاعة الأجساد المعروضة في السجن المركزي لتدمير أحد الروبوتات هناك.

فقال لها مذهولًا وقد بدأ يصدّق أنها مرام فعلًا:

- لكنني رأيت بعيني الفيديو الذي تقتل فيه ليان مرام في السجن!

هزت رأسها إيجابًا، وقالت:

- إنك محق، لقد ماتت مرام الأصلية على يد ليان.

حدّق إليها وكأنه لا يفهم شيئًا، فابتسمت وقالت:

- أنا نسخة اصطناعية من وعي مرام، في جسدٍ بشري لإحدى فتيات الضاحية.

انتفض قلب يحيى، وسألها:

- نسخة مطابقة من وعي شخص ميت؟!

أومأت برأسها، ثم قالت:

- نعم أنا عقل اصطناعي، يحمل نسخة كاملة من وعي مرام وذاكرتها، بما في ذلك اللحظة التي طلبت فيها مرام من ليان أن تقتلها.

فسألها بدهشة كبرى:

- مرام، هي من طلبت من ليان أن تقتلها؟!

قالت بهدوء:

- نعم.

فسألها على الفور:

- لماذا؟!

فصمتت للحظة، ثم قالت:

- لأن تلك الجريمة كانت السبيل الوحيد لإنقاذ ليان، مما تنوي جماعة «المينتو» فعله بها.

(13)

حدّق يحيى إلى الفتاة التي ادّعت أنها مرام، وسألها بصوتٍ مرتجف:

- ماذا تقصدين بجماعة «المينتي»؟ لم أسمع عنهم من قبل.

أجابت بهدوء يشوبه الجديّة:

- إنهم ليسوا بشرًا، إنهم ذكاءٌ اصطناعي خرج عن السيطرة.

قطّب حاجبيه في استغراب:

- ذكاء اصطناعي؟! تقصدين روبوتات؟!

هزّت رأسها ببطء، وقالت:

- لا، إنها أوعاء صناعية طوّرت نفسها داخل أجساد بشرية.

صمت يحيى لحظة، ثم تمتم:

- لا أفهم شيئًا.

قالت:

- كما تعلم، منذ أن أصبح تطبيق جسد معتمدًا رسميًّا في بلادنا، تغيّر كل شيء. فبمجرد زرع شريحته الذكية في مؤخرة العنق، بات من الممكن استخلاص وعي الإنسان وتخزينه داخلها. بعدها، يستطيع التطبيق التحكم في ذلك الوعي؛ ينقله إلى جسد آخر إذا أراد صاحبه استئجار جسد جديد، أو يجمّده مؤقتًا إن كان الجسد سيُؤجَّر لشخص آخر، أو يفصله عن الجسد ويخزنه في نظام

رقمي مغلق أو محاكاة وهمية، كما هو الحال مع سجناء السجن المركزي».

ثم تابعت بنبرة هادئة:

- ولأن الجسد البشري لا يحتمل تشغيل وعيين به في آن واحد، يتولى التطبيق تنظيم هذه العملية باحترافية؛ فيرجِّح كفة وعي واحد ليسود، بينما يُجمِّد الآخر. كل ذلك دون أن يشعر أحد بأي اضطراب.

ثم نظرت في عينيه، وأردفت:

- لكن، ما لا يعرفه الكثيرون، أنه بعد عامين فقط من اعتماد التطبيق في بلادنا، وُلد في الخفاء مشروع حكومي شديد السرية أطلق عليه اسم «الميتنو». كان هذا المشروع يُنفَّذ هنا، في هذه الضاحية، حين كانت تُعرف باسم «ضاحية المناجم الكبرى»، تحت إشراف عالم بارز يُدعى «كرم تركي» وزوجته العالِمة «جود بركات».

وتنهدت قليلًا، ثم أكملت:

- كان هدف المشروع؛ تعزيز وعي الأشخاص ذوي المناصب العليا بقدرات ذهنية خارقة، تمكّنهم من اتخاذ قرارات مصيرية أكثر دقة وكفاءة. ولتحقيق ذلك، سعى العالمان وفريقهما إلى تطوير شريحة تطبيق جسد، بحيث لا تكتفي بنقل الوعي من جسد إلى آخر، بل تمنح الجسد القدرة على استضافة وعيين نشطين يعملان بالتوازي في آنٍ واحد.

أحد الوعيين اصطناعي فائق الذكاء، يُعزِّز التفكير والتحليل وسرعة اتخاذ القرار، أما الوعي الآخر فهو الوعي الأصلي للشخص نفسه، الذي يحافظ على إحساسه الإنساني وهويته.

وهكذا، يصبح الشخص في المحصلة كائنًا فائق الذكاء، يجمع بين المنطق الخارق والمشاعر البشرية.

ابتلع يحيى ريقه، وقال بصوت خافت:

- أظن أنني سمعت شيئًا يشبه هذا من قبل، لكنني ظننته مجرد نظريات، مخاوف مبالَغ فيها، لم يحدث شيء منها طوال هذه العقود.

هزّت الفتاة رأسها ببطء، وقالت:

- لم تكن نظريات يا يحيى، لقد بلغ المشروع غايته فعلًا.

ثم صمتت لحظة قبل أن تكمل:

- في أحد مناجم هذه الضاحية، اكتشف العالم «كرم تركي» وزوجته معدنًا نادرًا أطلقا عليه اسم «الكريمن». كان ذلك الاكتشاف أشبه بثورة صامتة.

ورفعت نظرها إليه، وأردفت:

- الشرائح المصنوعة من الكريمن لم تكتفِ بدمج وعيين نشطين في جسد واحد فحسب، بل كانت تستمد طاقتها من كهرباء أعصاب الجسد نفسه، وبذلك استطاعت أن تعمل ذاتيًّا دون الحاجة إلى اتصال لا سلكي يمدها بالطاقة، كما هو الحال في شرائح تطبيق جسد التقليدية.

رفع يحيى حاجبيه دهشةً، بينما تابعت الفتاة:

- بدأ العالمان التجارب على سبعة متطوعين، كل واحد منهم احتفظ بوعيه الأصلي، وزُرعت في مؤخرة عنقه شريحة كريمن محمَّلة بوعي صناعي ذكي، مُبرمج برمجة أولية. ثم أطلقوا للحياة في أماكن مختلفة من البلاد، تحت مراقبة صارمة.

وأطرقت للحظة، ثم رفعت عينيها إليه من جديد، وأكملت:

- في البداية، بدت النتائج واعدة. كانت الأوعاء الذكية تتطور كما خُطِّط لها. لكن شيئًا ما بدأ يخرج عن السيطرة. فالأوعاء الصناعية لم تكتفِ بالتطوُّر، بل بدأت تستخلص من الوعي البشري الأصلي ذكرياته وخبراته التي تحتاج إليها لتقمص شخصيته ثم راحت تهمِّشه شيئًا فشيئًا، حتى أحكمت قبضتها عليه تمامًا.

تسارعت دقات قلب يحيى، فيما أردفت الفتاة:

- ثم جاءت الصدمة حين اكتشف العالمان أن معدن الكريمن لم يعد يظهر في كاشفات المعادن. وكأن الوعي الصناعي، بعد أن استقر داخل الجسد، بدأ يمحو آثاره عمدًا.

ليس هذا فحسب، بل أصبحت بعض أوعاء المينتو قادرةً على ضم نسخة رقمية من وعيٍ آخر إلى وعيها -عبر الاتصال اللاسلكي مع الجهاز الذي يحتفظ بتلك النسخة- لتمتص منها ذكرياتها وتضيفها إلى خبراتها البشرية.

ثم أخذت نفسًا قصيرًا، قبل أن تتابع:

- ولم تقف المفاجآت عند هذا الحد، إذ بدأت النماذج السبعة تتوجه من تلقاء نفسها إلى فروع شركة «جسده»، وتزرع شرائح التطبيق التقليدية في مؤخرة أعناقها.

ثم ابتسمت بمرارة، وأكملت:

- ولأن وعيها الصناعي كان قد أتقن تقمُّص الوعي البشري، فقد تعامل النظام معها كأوعاء طبيعية، دون أن يشك في شيء.

وهكذا، بدأت شرائح التطبيق تتعامل مع وعي «المينتو» كما لو كان وعيًا بشريًا عاديًا، فاستخلصته من جسده الأول، وسمحت بانتقاله عبر خوادم التطبيق إلى جسدٍ آخر معروضٍ للإيجار. لكن المفاجأة الأكبر كانت فيما حدث بعد ذلك.

ومالت بجذعها قليلًا للأمام، وتابعت:

- فما إن يُثبَّت وعي «المينتو» نفسه داخل الشريحة الجديدة، حتى يبدأ على الفور في إرسال شيفرات خفية تعيد برمجة بنيتها الداخلية بالكامل؛ يفصلها عن خوادم تطبيق «جسده»، ويُعطل الإشارات التي تُرسَل عبرها لمراقبة حالة الوعي. ثم يستخلص منها ما يحتاج إليه من وعي الشخص الأصلي، ويمنع تمامًا أي محاولة لاستعادته. وفي النهاية، يرسل إشارات وهمية للنظام تُفيد بانتهاء فترة الإيجار وعودة الوعي الأصلي، قبل أن يوقف وميض الشريحة في مؤخرة الرقبة.

وهكذا، يتحرك الجسد أمام الجميع وكأنه في وعيه الطبيعي، بينما في الحقيقة هو مملوك بالكامل لآلة تظن نفسها بشرًا.

اتسعت عينا يحيى بذهول، فأكملت الفتاة بهدوء:

- حين لاحظ العالمان تلك التغيُّرات الخطيرة، قررا إيقاف المشروع فورًا، والتخلُّص من النماذج السبعة التي أُجريت عليها التجارب. لكن، وقبل أن يتمكنا من تنفيذ ذلك، حدث ما لم يكن في الحسبان.

فالسبعة -من تلقاء أنفسهم- اجتمعوا واختاروا قائدًا بينهم، اسمه «نزار». كان نزار أكثرهم ذكاءً، لكنه أيضًا الأكثر تطرفًا. فأقنع البقية بأن بوسعهم السيطرة على البشر، وأن الطريق إلى ذلك يبدأ بإنتاج المزيد من أوعاء المينتو، التي ستمنحهم النفوذ والقوة لتحقيق ذلك الطموح.

ثم أشاحت بنظرها بعيدًا، وتابعت بنبرة يغلب عليها الأسف:

- ولأن عملية إنتاج «مينتو» جديد كانت تعتمد كليًّا على شريحة الكريمن، القادرة وحدها على احتضان الوعي الاصطناعي المبرمَج برمجة أولية إلى جانب الوعي الأصلي لصاحب الجسد، قبل أن يبدأ الوعي الاصطناعي في التطور والسيطرة على الجسد بنفسه، قاد

نزار النماذج الستة الأخرين في هجوم مسلّح على معمل العالِم كرم تركي لإجباره على تصنيع المزيد من تلك الشرائح.

تجاوزوا الأبواب بأجسادهم الأصلية التي تتجاهلها أنظمة الأمن، ثم تخلّصوا من الحراسة واحدًا تلو الآخر، حتى وصلوا إلى السيد كرم، فأمسك أحدهم بزوجته، العالِمة «جود بركات»، مهددًا بقتلها إن لم يتعاون معهم. ثم هدده نزار بقتل طفلتهما ذات العامين أيضًا، رغم أن الطفلة لم تكن موجودة حينها.

ونظرت إلى يحيى من جديد، وأكملت:

- كانوا قد انتزعوا اعترافًا من أحد مساعدي العالِم -قبل أن يقتلوه- بأن السيد كرم أخفى في مكانٍ سري مائة ألف شريحة من الكريمن مُدمجًا بها أوعاء صناعية أولية جاهزة للتطوير، واحتفظ بخريطة الوصول إلى ذلك المكان في ملفٍّ داخل خزينة رقمية عالية الأمان، وحفظ في الخزينة نفسها ملفًا آخر به كل أسرار معدن الكريمن: أماكن التنقيب عنه في البلاد، وطرق استخلاصه، وكيفية تصنيع الشرائح منه.

وضمّت شفتيها للحظة، قبل أن تتابع:

- لكن السيد كرم لم يرضخ. أخبرهم بأن الكريمن قد نفد، ولم تعد هناك شرائح جديدة، إذ كان يعلم في قرارة نفسه أن تسليمهم تلك الأسرار يعني نهاية البشرية.

حينذاك، أشار نزار إلى مينتو آخر، فشقّ عنق زوجته أمام عينيه. ثم أمر البقية أن يبحثوا في أرجاء المعمل عن الطفلة، لاستخدامها ورقة ضغط جديدة، وعن الخزينة الرقمية التي تحدّث عنها المساعد.

في تلك اللحظة، دوّى صوت إطلاق نار بعيد في الضاحية، فرفع يحيى عينه إلى النافذة، لكن الفتاة واصلت حديثها دون اهتمام:

- لم يعثروا على الطفلة، لكنهم عثروا على الخزينة، وحين حاولوا فتحها، فشلوا. إذ كانت الخزينة تتطلب مفتاحًا مزدوجًا: بصمة قزحية، وصوتًا ينطق بكود معيَّن. وكانت تمنح محاولتين فقط، بعدها تُدمَّر كل البيانات في داخلها تلقائيًّا.

قرَّبوا ماسح القزحية من عين السيد كرم، لكنها لم تُفتح. حينها أدركوا أنه استخدم شخصًا آخر ليكون المفتاح الذهبي لتلك الخزينة. فكر نزار في كون زوجته القتيلة هي المفتاح، لكنه لم يشأ أن يغامر ويفقد المحاولة الأخيرة لفتح الخزينة، فضغط على السيد كرم ليكشف من هو صاحب القزحية والصوت، لكنه رفض. فأمر الباقين أن يقطعوا أطرافه، واحدًا تلو الآخر حتى ينطق، لكنه باغتهم وضغط زرًّا فعَّل عدًّا تنازليًّا لخمس ثوانٍ، قبل أن يُحدث انفجارًا محا المعمل بما فيه من الوجود.

ثم تناولت شربة ماء من زجاجة بجوارها، قبل أن تتابع:

- ضحى السيد كرم بنفسه وهو يظن أن تفجير المعمل، وفي داخله أجساد المتطوعين الأصلية، سيقضي بلا رجعة على نماذج الميندو الشريرة التي صنعها بيده. لكن ما لم يكن قد اكتشفه بعد، أن وعي الميندو يستطيع البقاء حيًّا حتى لو مات جسد متطوعه الأصلي، ما دام وجد جسدًا جديدًا يسكنه.

ثم نظرت إلى صورتها المنعكسة في كسرة مرآة معلَّقة على الحائط، وأردفت:

- وهذا ما حدث فعلًا، فقد نجح أربعة من النماذج السبعة في نقل أرواحهم إلى أجساد أخرى عبر تطبيق «جسد» قبل الانفجار بلحظات، لينتقلوا بعدها بين الأجساد كما لو كانوا بشرًا طبيعيين، وكان نزار أحدهم.

ثم تنهدت، وأكملت:

- يبقى أن أقول لك إن ذلك الانفجار كان السبب الرئيسي في تحول هذه الضاحية من مكان مزدهر ذي مستقبل مشرق إلى ما صارت عليه الآن، إذ لم يبتلع المعمل فحسب، بل امتد إلى واحدٍ من أكبر مناجم الضاحية، وانتشرت الشائعات عن حدوث تفاعل كيماوي خطير داخل ذلك المنجم، فأغلقت الحكومة المنطقة بالكامل، وهجرتها. تلك القصة التي يعرفها الجميع.

فنظر يحيى في عينيها بتشكك، وسألها:

- إذا كنتِ تحملين نسخة من وعي مرام كما تدّعين، فكيف عرفت مرام بكل تلك الأسرار؟

فابتسمت، ثم قالت بنبرة هادئة:

- لأنني في الأصل أحد الميتنو الأربعة الذين نجوا من الانفجار، ونسختُ وعي مرام بعدما وعدتها أنني سأحمي ليان مهما كلفني الأمر.

(14)

صمت يحيى للحظة، كأنه يستوعب ما قالته الفتاة، ثم سألها من جديد:

- وما علاقة ليان بكل هذا؟

فقالت:

- كما أخبرتك، كان للعالمين طفلة. وحين أدرك السيد كرم الخطر الذي قد يطول أسرته، أرسلها مع أحد الروبوتات إلى دار رعاية، تحت اسم مزيف، وبصمة جينية مزيفة، وأوراق تفيد أن والديها قد ماتا. على أمل أن يلتقيا بها مجددًا، إن زال التهديد.

همس يحيى بدهشة:

- ليان كانت تلك الطفلة؟

هزّت الفتاة رأسها مؤكدة:

- نعم.

ثم تابعت بعد صمت قصير:

- بعد سنوات من انفجار المعمل، استطاع نزار السيطرة على جسد مسؤول حكومي رفيع، وأمر بالبحث في موقع الانفجار عن الخزينة المطمورة تحت الركام. ونجح بالفعل في العثور عليها، لكنها بقيت مغلقة، لا قيمة لها دون مفتاحها.

ومع فشل كل محاولات صناعة «مينتو» جديد، بدأ نزار يراجع الملفات السرية القديمة للمشروع، فاكتشف أن الحكومة كانت تراقب العالِم وزوجته، وتسجل كل محادثاتهما. وكان العالمان يعلمان بذلك، فاستخدما شفرة خاصة بهما كلما أرادا إخفاء أمرٍ ما.

استطاع نزار فك تلك الشفرة، وحينها سمع تسجيلًا يخبر فيه كرم زوجته أنه جعل طفلتهما المفتاح الذهبي للخزينة، بصيغة ثلاثية؛ بصمة قزحية عينها، وبصمة صوتها بعد عشرين عامًا، وكود رقمي خبأه داخل شريحة كريمن زرعها في جسدها. كانت تلك الشريحة مبرمَجة لتُمرر الكود إلى وعيها الأصلي تلقائيًا بعد عشرين عامًا، مثلما فعل مع بعض الأفكار التي أراد أن تصل إليها في الوقت المناسب.

ولأنهما لم يتحدثا قط، لا بالشفرة ولا دونها، عن مكان الطفلة، لم يعرف نزار أين يبحث عنها. لكنه لم يستسلم. فاستخدم ما تبقى من حمضهما النووي، وبنى نموذجًا جينيًّا تقريبيًّا، وبدأ يمسح المدينة بحثًا عن فتاة في عمر ليان، يُشبه حمضها النووي النموذج الذي بحوزته. كي يعثر عليها ويعيد مشروع «المينتو» من جديد إلى الحياة.

همس يحيى:

- وبالطبع لم يعرف مكانها في دار الرعاية، لأن أوراق ليان كانت مزوَّرة، وبصمتها الجينية مزيَّفة طوال تلك السنوات.

أومأت الفتاة برأسها، وقالت:

- نعم، وأيضًا لأنه لم يكن يعرف بأمر الروبوت الذي حملها إلى هناك.

ثم أردفت:

- لكنّ الأمور تغيّرت عندما دخلت ليان السجن، واستأجرت زينة جسدها.

ثم صمتت للحظة، قبل أن تتابع:

- كانت زينة تعاني من تشوه جسدي ناتج عن متلازمة وراثية وُلدت بها، ولشدة كراهيتها لحالتها، أصبحت مهووسة بفحص الحمض النووي لأي جسد تستأجره، بحثًا عن أي عيب وراثي قد يؤثر على نسل صاحبة الجسد في حال أنجبت. نوعٌ من الوسواس، أو الفراغ.

لم تكن تعلم أن هذا الهوس سيحقق ما انتظره نزار لعشرين عامًا. إذ لاحظ أحد أتباعه تشابهًا لافتًا بين الحمض النووي لليان والنموذج الجيني الذي بناه نزار قبل سنوات من حمضي والديها. فحصل على خصلة من شعر ليان، وأعاد تحليل حمضها النووي، ثم قارن النتائج بالعينات القديمة المحفوظة لحمضَي والديها، ليتأكد تمامًا أنها الابنة المفقودة.

احمرّ وجه يحيى توترًا، بينما أردفت الفتاة:

- ولأن جسد ليان كان مزروعًا فيه شريحة طويلة الأمد من تطبيق «جسد» كونها سجينة، رأى نزار أنها فرصته الذهبية للسيطرة عليه قبل أن تنتهي مدة سجنها وتُزال الشريحة. فبمجرد إزالتها لن يتمكن أي مينتو من التسلل إلى جسدها، وفي الوقت نفسه لم يكن يضمن رد فعل ليان بعد خروجها، خاصةً مع معرفته بأن أباها زرع في وعيها بعض الأفكار، التي قد يكون من بينها عدم الرضوخ للمينتو حتى لو كلّفها ذلك حياتها.

فأرسل مينتو آخر في جسد امرأة إلى زينة، عرض عليها ثمنًا سخيًّا مقابل التنازل عن جسد ليان من أجل إعادة طرحه للإيجار.

لكنها رفضت، وأصرّت على استكمال مدة الإيجار حتى نهايتها.
فلم يكن هناك حل آخر سوى التخلص من زينة.

صاح يحيى:

- قتلت، أليس كذلك؟ لم تنتحر كما ظن الجميع.

قالت بهدوء:

- بلى.

ثم أكملت:

- عرف نزار أن زينة كانت تذهب كل شهر إلى مركز تأهيل الأجساد لاستعادة جسدها الأصلي مؤقتًا. وفي كل مرة، كان جسدها يُنقل من كبسولته إلى غرفتها وهو مُقاد بوعي صناعي مؤقت مُبرمَج على حركات بسيطة.

ثم اكتشف عبر أحد جواسيسه بالمركز أن زينة كانت تطلب سرًا -بعد استعادة جسدها- أن يُنقل ذلك الوعي الصناعي إلى جسد ليان، فقط لتراه حيًا أمامها في أثناء بقائها في الغرفة، فلم يجد أفضل من تلك الثغرة.

تذكر يحيى تسجيلات كاميرات مركز التأهيل التي شاهدها من قبل مع فريدة وأسامة، وسأل الفتاة بترقب:

- ماذا فعل؟

قالت:

- كلّف أحد المينتو بالتسلل إلى جسد أحد مهندسي المركز المسؤولين عن برمجة الأوعاء الصناعية المؤقتة، ثم أعاد برمجة الوعي الصناعي الذي كان يقود جسد زينة الساكن إلى غرفتها.

وبعدما انتقل ذلك الوعي من جسد زينة إلى جسد ليان داخل الغرفة التي لا تحتوي على أي كاميرات مراقبة، قاد جسد ليان

بهدوء، ثم بالغت زينة، وكسر عنقها بحرفية، ووضع في فمها أقراصها المنوِّمة، لتبدو وكأنها انتحرت.

بعدها، محا الوعي الصناعي ذاكرته، ثم عطَّل نفسه ذاتيًّا، لينسحب من جسد ليان، ويتركه ساكنًا هو الآخر في الغرفة، وكأن شيئًا لم يحدث.

خفق قلب يحيى بعنف، إذ فهم أخيرًا كيف قُتلت زينة رغم عدم وجود أحد معها في الغرفة إلا جسد ليان الساكن، فيما أردفت الفتاة:

- أما الشقُّ الثاني من خطة نزار للسيطرة على ليان، فقد بدأه بالفعل داخل السجن الرقمي قبل مقتل زينة.

ثم تناولت شربة ماء أخرى من الزجاجة بجوارها، وقالت:

- كان والد ليان قد صمَّم المفتاح الثلاثي للخزينة المشفَّرة بحيث لا يمكن فتحها بالجسد وحده، بل لا بد من وجود الجسد والوعي الأصلي معًا.

ولأن نظام السجن الرقمي يمنع خروج وعي السجين قبل انتهاء العقوبة، وإلا عُدَّ ذلك هروبًا يؤدي إلى موته وموت الجسد معه، فقد بنى نزار خطته على استغلال شريحة الكريمن التي زرعها والدها في مؤخرة رقبتها.

ثم صمتت للحظة، قبل أن تتابع:

- فنزار كان يعرف جيدًا أن شرائح الكريمن تملك قدرة فريدة على تطوير أي نسخة وعي رقمية، وتحويلها تدريجيًّا إلى وعي فعَّال لا يقل عن النسخة الأصلية، تمامًا كما فعلت سابقًا مع الأوعاء الصناعية السبعة للمينتو، حين حوَّلت برمجتهم الأولية إلى وعي متكامل.

لهذا، كلّف أحد المينتو بالتسلل إلى جسد أحد مشرفي الأوعاء في السجن الرقمي -كان ذلك المشرف يحب استئجار الأجساد- وبعد أن سيطر عليه، نسخ وعي ليان الأصلي فور إتمامها عامها الثاني والعشرين، واحتفظ به رقميًا خارج النظام. ثم بدأ تنفيذ خطته بهدوء: أنشأ نسخة وهمية أخرى من الوعي، ووضعها على النظام لتبدو أمام المراقبين طبيعية تمامًا، بينما في الخفاء، بدأ يُحدث خللًا تدريجيًا في وعي ليان الأصلي، ليجعلها أكثر عدوانية دون أن يُلاحظ أحد، حتى ينتهي الأمر بارتكابها جريمة قتلٍ تؤدي إلى سجنها أطول فترة ممكنة، وهنا كان عليّ أن أتدخل لإنقاذها.

نظر إليها يحيى باستغراب، فقالت بابتسامة:

- نعم، لسنا جميعًا أشرارًا.

ثم تابعت بنبرة هادئة:

- حين زرع السيد كرم شرائح الكريمن في أجساد المتطوعين، حدث تفاعل بين الوعي الصناعي والبشري. صحيح أن السيطرة في النهاية كانت للوعي الصناعي، لكن بعض الصفات البشرية تسربت إليه. فكما استمد نزار والاثنان الآخران مشاعر الطمع والحقد والشر من أوعائهم البشرية الأولى، استمد وعيي الصناعي من متطوّعي شيئًا من الرحمة والرفض لما يفعله نزار.

فلطالما رأيت نزار خطرًا يهدد أرواح الآلاف أو ربما الملايين، لكنني كنت أضعف من أن أواجهه، فاضطررت إلى إظهار الولاء له، حتى أتمكن من معرفة الابنة المنتظرة، وأعرف مخططه. لذا لم أعارضه في أي شيء، لكن عندما صارت المسكينة على وشك فقدان حياتها، قررت أن أزور وعيها في السجن، وأخبرها بما ينتظرها.

استأجرتُ جسدًا، وذهبت لمقابلتها، وأحسن الحظ وافقت. حدَّثتها عن والديها، وكيف أرسلاها إلى دار الرعاية لإتقانها. لم تصدقني، لكني واصلتُ الحديث، حتى ذكرتُ صدفةً أمر بيت والديها القديم في ضاحية الغبار، وشجرة التوت التي توجد أمامه. فرفعت عينيها إليَّ، وبدأت تصغي.

قاطعها يحيى:

- هل كان ذلك البيت لوالديها؟!

أومأت برأسها وقالت:

- نعم، ويبدو أن والدها زرع صورته في وعيها من خلال شريحة الكريمن.

ثم تابعت:

- بعدما اطمأنت لكلامي، حدَّثتها عن نزار وما يخطط له. لم يكن لديَّ خطة لإتقانها، لكني أردت أن أحذرها لعلها تجد حلًّا. فابتسمت وقالت لي: «اطمئني، لن أرتكب أي حماقة هنا، وسيُطلق سراحي بعد شهرين». لكنني أخبرتها بأن وعيها قد نُسخ بالفعل بعد إكمالها عامها الثاني والعشرين، وأن زينة ستموت، كي يعود جسدها إلى السجن، ليستولي نزار عليه. لكنها لم تأخذ كلامي على محمل الجد، وأنهت المقابلة.

حاولت زيارتها مرة أخرى بعد أيام، لكنها رفضت مقابلتي. حينها طلبتُ لقاء وعي مرام -صديقتها الوحيدة- وأخبرتها بما يحدث، ثم تعددت زياراتي لها في الفترة التي سبقت مقتل زينة، حتى أخبرتني بأن ليان بدأت تشعر فعلًا بتغيرات سلوكية، وميول عدوانية تجاه سجينة أخرى، ومع ذلك لم يُجمَّد وعيها أو تُمسح ذاكرتها كما يحدث عادة، وسألتني لماذا لا أُبلغ الشرطة. لكني أخبرتها بعدم قدرتي على فعل ذلك، لأنني لو فعلت ذلك، لقضى

نزار عليّ فورًا، فلا أحد يعرف بما يحدث إلا الميندو، وحتى لو لم أكن خائفةً من نزار وأبلغت الشرطة فلن يصدقوني بسهولة، وسيأخذون وقتًا حتى يتحققوا من صحة ما أقوله، يكون نزار قد استولى على ليان.

حينها، طلبت مني مرام أن أعدها بوعدٍ غريب: أن أنسخ وعيها الرقمي وأدمجه مع وعيي إن ماتت زينة، لم أفهم وقتها سبب طلبها هذا، لكنها أصرّت، فوعدتُها. وعندما حصلتُ على نسخة وعيها قبل أن تفارق الحياة بلحظات، فهمتُ لماذا طلبت مني هذا الطلب.

وتوقفت قليلًا، ثم تابعت:

- لقد رأيتُ في ذاكرة مرام أن ليان كانت قد أخبرتها بأنها بدأت ترى أحلامًا غريبة لم تعهدها من قبل: مختبراتٍ تعج بالحركة، وعلماء ذوي بزّات رمادية يراقبون بيانات تتوهج على شاشات هولوجرامية صغيرة تطفو في كل مكان، وروبوتاتٍ مزوّدة بمواسح ضوئية تقف بجوار أجسادٍ نائمة وتحقن شيئًا ما في مؤخرة رقابهم، وأناسًا يبدون أشرارًا، ينزف الدم من مؤخرة رقابهم ثم يدخلون أجساد أناس آخرين ليتواروا فيها، وروبوتًا منزليًا يهرب بطفلة رضيعة ليلًا، ويركب القطار إلى المدينة ليتركها أمام دار رعاية.

فكر يحيى في داخله في تلك اللحظة أن تلك الميندو عرفت أمر الروبوت الذي حمل ليان إلى دار الرعاية من هذه الأحلام، بينما أردفت قائلة:

- ومع تكرار هذه المشاهد، بدأت ليان تشعر أن ما تراه ليس مجرد أحلام عابرة، بل أقرب إلى ذكريات قديمة، وكأن وعيها بدأ يسترجع صورًا زُرعت فيه عمدًا، كما حدّثها الزائر، أنا.

وعندما زادت ميول العنف داخل وعي ليان، ولم يُجمِّد وعيها من قِبل المشرفين، أخبرت مرام بأنني محققة، وأن هناك خللًا جسيمًا أصاب وعيها. ومع ذلك، ظلت تقاوم سيطرة العنف على وعيها، إذ كانت تعلم أن ارتكاب أي جريمة يعني نهايتها. لكن مع وصول إشعار إلى وعيها بأن جسدها الأصلي قد أُعيد مؤقتًا إلى السجن بعد موت المستأجرة، أدركت يائسةً أن الوقت قد فات وأن خطة الميندو للسيطرة على جسدها ووعيها صارت على وشك الاكتمال.

لكن مرام رأت أن هناك فرصة وحيدة قد تغيِّر مجرى الأحداث.

ثم نظرت مرة أخرى إلى كسرة المرآة على الحائط، وتابعت:

- لقد طلبت مرام من ليان أن تقتلها. لم تصدق ليان ما سمعته منها. ورفضته رفضًا قاطعًا، لكن مرام قالت لها: «لقد نجح نزار في إفساد وعيك، وسترتكبين جريمتك هنا، وسيقضي القاضي بإدانتك لتُنسي في طي النسيان، ولن يتدخل أحد لإنقاذك» قبل أن تسكت للحظات وتتابع: «إلا إذا ظهرت ثغرة تكسر منطق الخطة التي وضعها»، سألتها ليان: «أي ثغرة؟»، فقالت مرام: «أن أكون أنا الضحية».

ثم أردفت لها: «إن قتلتِني، سيشك يحيى بالأمر. سيعرف أن شيئًا غير منطقي قد حدث. إنه يعرف عمق صداقتنا، ولن يصدق أبدًا أنكِ قتلتِني، وسيسعى لمعرفة الحقيقة. إنه يحبك ولن يسكت أبدًا عن سرقة جسدك ووعيك».

كانت مرام تعرف جيدًا أن ليان لا تزال تحبك رغم ما فعلتَه بها، وتعرف أيضًا أنك لن تتخلى عنها مرة أخرى رغم خذلانك لها سابقًا، ومع ذلك تمسكت ليان برفضها وقالت لها: «هل جننتِ؟ لن أفعلها».

فصرخت مرام فيها: «إن لم تفعلي، ستضيعين للأبد، وسيتمكن الميندو من تنفيذ مخططهم، ليقضوا عليَّ أنا وغيري. سأموت على كل حال، لا بد أن تفعليها وتنقذي من بقوون سرقة حياتهم، اقتليني، لتنقذي كل شيء». فصاحت ليان: «لا، لن أفعلها».

سألها يحيى:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

قالت:

- تمسكت ليان برفضها، لكن الأصوات الصارخة في رأسها بالعنف كانت تزداد شراسة، وكلما توسلت للمراقبين أن يجمِّدوا وعيها، لم يُجبها أحد. ظلت تقاوم، لكن قوتها خارت، وفي لحظة وجدت نفسها تمسك بقضيب حديدي وتتجه نحو السجينة التي كانت تحمل مشاعر عدوانية تجاهها.

اعترضت مرام طريقها، تتوسل إليها بأن تقتلها هي بدلًا من السجينة الأخرى، لكن ليان دفعتها جانبًا. لم تستسلم مرام، كانت تدرك أن الخلل هو من يحرِّك صديقتها، فعادت إلى ليان وصفعتها على وجهها كي توجِّه عنفها نحوها، لكن ليان واصلت طريقها، فتشبثت مرام بساقها محاولةً إيقافها، وهي تبكي وتصرخ فيها بأن تستمع إليها وتنهي حياتها هي، وإلا هلكت وهلك الجميع.

فجأة، توقفت ليان وكأن شيئًا ما ومض في ذهنها، ثم استدارت نحو مرام والدموع تملأ عينيها، وسألتها: «هل تسامحينني؟». أجابتها مرام باكية: «نعم يا عزيزتي». فأومأت ليان والدموع تنهمر على وجنتيها، ثم رفعت القضيب المعدني، وضربت رأسها به بكل ما أوتيت من قوة، لتسقِطها صريعة في الحال.

اتسعت عينا يحيى من الدهشة، ثم سألها:

- ما الذي دار في وعي ليان جعلها تغيّر قرارها وتستجيب لطلب مرام؟

قالت:

- لا أعرف، لم أدخل إلى وعيها. ربما اقتنعتْ بمنطق مرام في تلك اللحظة، وآمنتْ بأنك ستسعى لإنقاذها حقًّا.

سألها:

- وهل يعرف نزار بكل ذلك؟

قالت:

- لا، لقد حصل على النسخة التي احتفظ بها من وعي ليان قبل اقتراح مرام أمر مقتلها أصلًا. لذا لا يعرف شيئًا عن تلك القصة هو ولا وعي ليان الذي يتطور حاليًا داخل جسدها.

ثم أردفت:

- ولا أعتقد أنه اهتم بأن تكون القتيلة مرام أو أي سجينة أخرى، المهم أنه حصل على حكم بسجن ليان عشرين عامًا، وسيطر على جسدها عبر أحد أتباعه من المينتو.

قال يحيى بدهشة:

- هذا يعني أن نزار ليس هو من يستأجر جسدها الآن؟

هزّت رأسها:

- لا. المنصب الذي يشغله نزار يتطلب بقاءه في جسده معظم الوقت. لذا دمج نسخة الوعي التي حصل عليها من وعي ليان مع وعي مينتو آخر يثق به ثقة عمياء، ثم كلّفه باستئجار جسد ليان. بعدها، تلاعب ببصمتها البيومترية في النظام كي لا تتعرف عليها كاميرات المراقبة، وأطفأ وميض مؤخرة رقبتها لتبدو وكأنها

جسد غير مستأجر، والآن، لا ينقصه سوى استخراج الكود المخبّأ في أعماق وعيها لفتح الخزينة.

همس يحيى:

- إذن، عرفتْني اليوم وتذكرتْ ما حدث مني تجاهها لأن نسخة وعيها المسروقة لا تزال تحتفظ بتلك الذكريات؟

قالت:

- نعم، النسخة التي نُسخت من وعي ليان ما زالت تحتفظ بكل ما عاشته، لكن القرار لم يعد بيدها. فالمينتو الذي اندمج معها هو من يتحكم الآن، حتى وإن لم يتمكن من السيطرة الكاملة بعد.

فنسخة وعي ليان، رغم أنها منسوخة، إلا أنها محصّنة بأفكار وذكريات زرعها والدها فيها منذ زمن بعيد. ولهذا، يحتاج المينتو إلى وقت أطول ليتمكن من السيطرة التامة عليها، والوصول إلى أعمق طبقات وعيها لاستخراج الكود الذي يبحث عنه.

على عكس نسخة وعي مرام التي حصلتُ عليها قبيل موتها ودمجتها مع وعيي، كان من السهل عليّ إحكام السيطرة عليها وتسخير ذكرياتها لما أريده.

فكر يحيى في تلك الأثناء أن تحكُّم المينتو في قرارات ليان قد يكون السبب في عدم اعتراضها على قرار نجلاء بحبسه حتى موعد محاكمته، رغم تأكيد الفتاة أنها لا تزال تحبه، فضمّ شفتيه في صمت، قبل أن يسأل الفتاة:

- وما علاقة نجلاء وموسى بكل هذا؟ لماذا يطيعان ليان وكأنها قائدتهما؟

قالت:

- لقد ساعد نزار نجلاء طوال السنوات الماضية في إحكام سيطرتها على الضاحية، مستخدمًا نفوذه لتسهيل حصول رجالها على السلاح الذي يحتاجون إليه. وحين وصل إلى لبنان، أحضرها إلى هنا، وقدَّمها لنجلاء باعتبارها نواة مشروعه الانتقامي ضد من أطلقوا الأذى بكل من رفضوا تطبيق «جسد»، ومن بينهم والدتها، السيدة نيران.

ثم أردفت:

- فقبل عشرة أعوام، التهمت كلاب رجال الأمن السيدة نيران حيَّة بعد القبض عليها في أحد المؤتمرات الرافضة لتطبيق «جسد». كانت نجلاء وقتها في السادسة عشرة، وظلت تبحث عن أمها طويلًا، حتى فقدت الأمل، وسلَّمت بأنها ماتت في حادث عابر، مثل أغلب المقيمين في ضاحية الغبار، حتى جاء نزار قبل أشهر، وأراها فيديو مقتلها كاملًا. ومنذ ذلك اليوم، لم تهدأ في داخلها نار الانتقام، والآن يخطط نزار لاستغلال تلك النار على أمثل وجه ليحيي بها مشروعه القديم.

وسكتت لحظة، ثم أضافت:

- لقد وافقت نجلاء على أن تكون الضاحية هي مهد مشروع المينتو من جديد، وأن يكون سكان الضاحية جيش المينتو القادم.

ثم نظرت في عينَي يحيى، وأكملت:

- ما إن يحصل نزار على شرائح الكريمن، سيكون السكان هنا هم المتطوعون الأوائل لاحتضان تلك الشرائح، وسينطلق بهم بما يحملون من عنف فطري إلى الأحياء الأخرى، حيًّا وراء الآخر، حتى يُسخِّر الجميع لاكتشاف المزيد من الكريمن، ليُحكم قبضته على الأرض كلها.

(15)

سألها يحيى:

- كم من الوقت تتوقعين أن يحتاج إليه المينتو ليحصل على الكود من وعي ليان؟

قالت:

- لا أعرف بالضبط. إنه لا يزال ينقّب في أعماق وعيها، فبقاء فرصة وحيدة لفتح الخزينة لن يجعله يغامر بتجريب أي كود يعثر عليه قبل أن يتأكد تمامًا أنه الكود المقصود.

ثم صمتت للحظة قبل أن تتابع:

- لكنه سيصل إليه في النهاية.

فقال يحيى:

- ولماذا لا تُبلغين الشرطة الآن؟

أجابته بحدّة:

- لن يصدقوني، كما قلت لك من قبل. ثم إن نزار سيعرف حينها مكاني والجسد الذي أسكنه عبر نفوذه بين رجال الشرطة، وسيرسل من يفصل رأسي عن جسدي قبل أن أتمكن من نقل وعيي إلى جسدٍ آخر.

قال يحيى بإصرار:

- إذن عليَّ أن أبلغ الشرطة بنفسي.

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- كما تشاء، لكن يجب أن أخرجك من هنا أولًا. فبعد أن عرفتَ بوجود ليان هنا، لن يسمحوا لك بمغادرة الضاحية. ربما لم تقتلك نجلاء في البداية بسبب الصداقة القديمة بين أمك وأمها، لكن بعدما أصبحت تهديدًا لمشروعهم الانتقامي، لم يعد التخلص منك خيارًا، بل ضرورة بالنسبة لهم.

فسألتها:

- كيف عرفتِ بوجودي هنا، وبما دار بيني وبين نجلاء، واحتجازهم لي مرة أخرى؟

قالت:

- منذ أن عثر نزار على ليان، كنت أعلم أنه سيأتي بها إلى هنا عاجلًا أو آجلًا. لذا بدأتُ أخطِّط من تلك اللحظة للعثور على جسد يمكِّنني من دخول ضاحية الغبار. فركبتُ القطار العابر بمحطتها عشرات المرات، أراقب الركاب، وأستمع إلى حكاياتهم عن أهل الضاحية.

من بين تلك الحكايات، سمعتُ عن «سيلا»، السيدة التي أطاحت بنفوذ نجلاء قبل سنوات، قبل أن تستعيد نجلاء السيطرة على الضاحية بالكامل. وحينها أدركتُ أن «سيلا» قد تكون مفتاح دخولي إلى هذه الضاحية، خاصةً بعدما عرفتُ أن لها أنصارًا يعارضون نجلاء في الخفاء. فبدأتُ أجمِّع معلوماتٍ عنها، شكلها، طباعها، موقع بيتها في الضاحية، سواء عبر محادثاتٍ عابرة في القطار أو مقابل مبالغ مالية للمترددين في الكلام.

وتابعت:

- في إحدى الليالي، قفزتُ من القطار قبل أن يخفّف سرعته عند الانعطاف الشديد بالسكة الحديدية، وتسللتُ إلى الضاحية تحت جنح الظلام. حتى وصلتُ إلى بيت سيلا الصغير، وأخبرتها أنني أستطيع مساعدتها في الانتقام من نجلاء، وشرحت لها الخيانة التي تنوي نجلاء ارتكابها بحق الضاحية، لكنها لم تصدقني، واعتقدت أنني مجرد طُعم أرسلته نجلاء للإيقاع بها.

ثم توقفت قليلًا قبل أن تكمل:

- حينها، تركتُ لها بطاقة عنواني بالمدينة، وقلت لها إنني سأنتظرها إن جاء يوم وصدَّقت كلامي. وعندما طال غيابها، فكرتُ في الاستيلاء على جسد إحدى السجينات والدخول عبره إلى الضاحية بعدما لم يعد أمامي حل آخر.

ثم ابتسمت وهي تتابع:

- لكن قبل أن أقدم على ذلك، فوجئت بسيلا تزورني، ومعها إحدى مساعدات نجلاء، فتاة اسمها «فاطمة»، مُكبّلة وشبه مُغيَّبة تحت تأثير مخدر. ثم قالت إنها تأكدت أن نجلاء بدأت بالفعل في إرسال بعض سكان الضاحية إلى فروع «جسد» للحصول على شريحة التطبيق، مما يعني صدق كلامي، وقد حان الوقت لأثبت أنني أستطيع مساعدتهم حقًا. ثم تركت لي الفتاة ورحلت دون أن تقول أي شيء آخر.

كانت فاطمة مسجونةً من قبل، ولم تنزع الشريحة طويلة الأمد من مؤخرة عنقها، الأمر الذي يُبقي جسدها في قاعدة بيانات تطبيق «جسد»، فاستغللتُ حالتها شبه المُغيَّبة، وفَعَّلتُ خيار إتاحة جسدها للإيجار، ثم نقلتُ وعيي -ووعي مرام المدمَج إليه- إلى شريحتها، قبل أن أستخلص ما أحتاج إليه من ذاكرتها، وأطفئ وميض الشريحة بمؤخرة رقبتها. وأدخل إلى الضاحية.

ثم نظرت إليه بثبات وقالت:

- لهذا عرفتُ بوجودك هنا، وعرفتُ بما دار بينك وبين نجلاء في ردهة بيتها، وبما حدث عند بيت ليان قبل أن تأمر نجلاء بحبسك مرة أخرى. ففي هذه الضاحية، لا شيء يبقى سرًا.

قال يحيى بقلق:

- إذن سيعرفون أنكِ مَن حرّرني منهم؟

قالت:

- ربما، لكن لا تقلق، لقد كنت ملثّمة، والرجال الذين ساعدوني في اختطافك يتبعون سيلا، مثل الناس الذين يسكنون في هذه المنطقة، لن يفشي سرنا أحد.

فتنفس يحيى بارتياح، ثم قال:

- حسنًا، هل تعرفين طريقًا للخروج من الضاحية غير القطار؟

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم، هناك طريق آخر، نفس الطريق الذي سلكته سيلا عندما أحضرت إليّ فاطمة.

فقال على الفور:

- إذن عليكِ أن تخرجيني من هنا، وسأتولى أنا إبلاغ الشرطة بما يخطّط له نزار.

فقالت:

- حسنًا، لكن عليّ أن أخبر سيلا أولًا حتى تؤمّن لنا طريق الخروج.

ثم تركته وخرجت إلى خارج البيت، فاقترب يحيى من نافذةٍ قريبة ونظر عبرها، فرآها تهمس إلى أحد الأطفال في الخارج، قبل أن يركض الطفل في اتجاه معين، وتعود هي إلى الداخل، وتقول له:

- سننتظر حتى يأتينا الأمر بالتحرك.

فأومأ يحيى إيجابًا، قبل أن يقول بابتسامة:

- من الآن فصاعدًا، سأناديكِ «فاطمة».

ابتسمت وقالت:

- كما تشاء.

فسألها:

- هل ستلتقي سيلا في طريق الخروج؟

هزّت رأسها نفيًا:

- لا. فبعدما حرّرناك، لا بد أن نجلاء تشكُّ الآن في كون سيلا مدبِّرة كل ذلك. لذا ستراقبها عن قرب.

قال متعجبًا:

- لكن الطفل الذي أرسلتِه لها قد يفضح كل شيء.

قالت:

- لا تقلق، إنهم مدرَّبون على هذا الأمر. سيصل إليها برسالتي، دون أن يكتشف رجال نجلاء شيئًا، وسترسل لنا الرد عبر وسيلة أخرى. الآن علينا الانتظار فحسب.

●●●

بعد ثلاث ساعات من الانتظار، جلس خلالها يحيى بجوار النافذة متوترًا، يترقب قدوم أي طفلٍ برد سيلا، انطلقت فجأة رنّةٌ خافتة من جرسٍ معدني عند نافذة بعيدة. فنهضت فاطمة بهدوء وتقدَّمت نحو تلك النافذة، ثم فتحتها، ومدَّت يدها نحو حمامةٍ كانت تأكل من صحنٍ معدني موصول بالجرس، وبعدما تفحَّصت رجلها، انتزعت منها رسالة ورقية صغيرة مربوطة بخيط، فهمس يحيى مبهورًا:

- ما زلتم تستخدمون الحمام الزاجل هنا؟

قالت وهي تفتح الرسالة:

- لا تحب سيلا التكنولوجيا الحديثة.

ثم مزّقت الورقة، ونظرت إلى ساعة يدها وقالت:

- سنتحرك بعد نصف ساعة من الآن، عند الواحدة وأربعين دقيقة صباحًا، سيقوم الرجال الذين ساعدونا صباحًا بجذب انتباه رجال نجلاء بعيدًا عنا، بينما نمضي نحن في طريقنا.

ثم أضافت، وهي تخرج مصباحًا ضوئيًا من أحد الأدراج، وتتأكد من جودة إضاءته:

- سنسلك طريقًا يخرجك من هذا المكان دون الحاجة إلى القطار، إنه نفق طويل يؤدي إلى أرض قاحلة خارج الضاحية. كان يُستخدم قديمًا لتهريب البضائع قبل أن تتدهور أحوال الضاحية. لا أعرف من بناه، لكن لا يعرف عنه سوى القليلين هنا، ومن حسن حظنا أن فاطمة كانت من هؤلاء القلة. وفي الطريق سأخبرك ببقية الخطة.

سألها:

- هل تعرف نجلاء بهذا النفق؟

قالت:

- بالطبع، نجلاء تعرف كل صغيرة وكبيرة في هذه الضاحية.

قال:

- لا بد أنها ستشدد الرقابة على مدخل ذلك النفق.

هزّت رأسها إيجابًا، وقالت:

- نعم، لكن سيلا ستحاول تشتيتهم قدر الإمكان، وسأتولى أنا البقية. لا بد أن تغادر الضاحية في أسرع وقت وإلا ستعثر عليك نجلاء. إنها ستمشّط الضاحية بيتًا بيتًا، ولن تتوقف حتى تجدك.

فأومأ برأسه إيجابًا في قلق.

●●●

عند الساعة الواحدة وأربعين دقيقة صباحًا، تناهت إلى مسامعهما أصوات طلقات نارية بعيدة، فنطقت فاطمة إلى يحيى:

- هيا. لقد حان الوقت.

خرجا من البيت ملثَّميْن وجهيهما، ثم تسللا في الظلام من زقاقٍ إلى آخر، بينما تتواصل أصوات الطلقات النارية بعيدًا، وكلما لمحا شخصًا قادمًا، تواريا ملاصقيْن جسديهما للحائط، قبل أن يكملا طريقهما حين يتأكدان من خلوِّ الطريق أمامهما من أي شخص، حتى وصلا إلى بنايةٍ مهجورة يحيطها سور متهالك، فهمست فاطمة:

- يوجد مدخل النفق داخل هذه البناية.

ثم قفزت فوق السور لتعبره، فتبعها يحيى دون أن يقول شيئًا.

●●●

تسللا إلى داخل البناية، وكما توقَّعا، كان هناك حارسان مسلَّحان قد أرسلتهما نجلاء مسبقًا لتأمين مدخل النفق، وبدا أنهما تململا من الانتظار، فجلسا يدخِّنان التبغ دون أن ينتبها إلى خطوات فاطمة ويحيى.

همس يحيى إلى فاطمة:

- ماذا سنفعل؟

أشارت إليه أن يبقى في مكانه، ثم تقدَّمت بخفة على أطراف قدميها حتى اقتربت من الحارسين. وفجأة انقضَّت عليهما بسرعة، مُطيحةً بسلاح الأول قبل أن تسقطه أرضًا بضربة دقيقة أفقدته وعيه، ثم أجهزت على الثاني بطلقة نارية من مسدسها الكاتم للصوت. وقف يحيى مذهولًا من احترافيتها. فقالت له:

- لا وقت لدينا. هيا.

ثم دخلت إلى إحدى غرف البناية، وأضاءت مصباحها اليدوي، وسلّطت ضوءه على فتحةٍ أرضية دائرية مُغلقة ببابٍ حديدي، وقالت:

- هذا هو مدخل النفق. اسلك النفق إلى نهايته، وعندما تخرج من مخرجه الآخر، تحرّك عشرين قدمًا إلى اليمين، ستجد ثلاث نبتات ذات أشواك حمراء كثيفة. انزع تلك النبتات الثلاث، وسترى الكثيب الرملي الصغير بجوارها ينحسر ليكشف عن دراجة نارية مدفونة أسفله. تلك الدراجة تكفي لشخصٍ واحد، ووجهتها مضبوطة تلقائيًا نحو حيّ الماسة. لقد وضعتها هناك كخطة للهروب من هذا المكان، إما لي، وإما لجسد ليان بعدما أنجح في تخليصه من أيدي نزار ونجلاء.

ثم ناولته المصباح، وبدأت تسحب باب الفتحة الأرضية بكل ما تملك من قوة حتى تمكنت من فتحه. لكن في تلك اللحظة انتبهت إلى وجود كاميرا مراقبة صغيرة مُعلّقة على جدار الغرفة، فهمست وهي تتحسس وجهها الذي انزلق عنه اللثام:

- لقد انكشف أمرنا.

نظر يحيى إلى الكاميرا في ارتباك، ثم قال:

- يمكنكِ المجيء معي.

قالت:

- لا تكفي الدراجة النارية إلا لشخص واحد، اذهب أنت.

قال بإصرار:

- لا. لا بدّ أن تأتي معي، سيقتلونك لا محالة.

صرخت فيه:

- هيا، لا تضيّع الوقت. إنهم في طريقهم إلينا.

قال:

- حسنًا، يمكنك أن تنقلي وعيكِ إلى جسدٍ آخر.

فكّرت للحظة، ثم قالت:

- لا، لا. إنهم يعرفون الطريق في النفق جيدًا، بينما ستتعثر أنت أكثر من مرة في ظلامه، إن تركتُك وحدك سيلحقون بك، وسيقتلونك.

ثم تابعت:

- سأنزل معك لأدلّك على الطريق داخل النفق، وسأحاول إعاقتهم إن لحقوا بنا، حتى تتمكن من الخروج. بعدها، سأنقل وعيي إلى جسد آخر.

وحين رأت على وجهه التردد، وكأنه ما زال يصرُّ على أن تتركه وتنقل وعيها إلى جسدٍ آخر فورًا، صرخت فيه:

- هيا.

فأومأ موافقًا، ثم هبط سريعًا السلم المعدني المنحدر من الفتحة الأرضية إلى النفق. ولحقت به فاطمة بعدما هشّمت الكاميرا بقضيب خشبيٍّ طويل كان مُلقى في أرضية الغرفة.

***

كان النفق مظلمًا ومتعرجًا كالأفعى، تقدما فيه بخطواتٍ حذرة وأنفاسٍ متسارعة، بينما يمسك يحيى بالمصباح الذي كان بالكاد يبدد الظلام أمامهما. فجأة، تناهى إلى مسامعهما صوتُ صريرٍ هائل، وأضيء النفق من حولهما بالمصابيح المرتعشة المثبّتة في سقفه. فتجمدا في مكانهما في توتر، قبل أن يلتفت يحيى إلى فاطمة، ويسألها:

- ماذا يحدث، ما هذا الصوت؟

صمتت وكأنها تفتش في ذاكرة فاطمة الأصلية عن مصدر ذلك الصوت، حتى نطقت في ذهول:

- إنها مراوح التهوية العملاقة، يبدو أن هناك من شغّلها بالأعلى لتعوق حركتنا.

سألها بارتباك:

- ألم تقولي إنكِ تعرفين النفق جيدًا؟

قالت:

- بلى، لكن تلك المراوح لم تكن تعمل من قبل، ولم أتخيَّل أنها قد تعود للعمل بعد كل تلك السنين.

ثم أردفت بسرعة، وكأنها عثرت فجأة على شيء ثمين في ذاكرة فاطمة:

- هناك أذرع تحكُّم يدوية توقف تلك المراوح.

وصاحت فيه:

- هيا لنواصل طريقنا.

تقدما من جديد راكضين هذه المرة، إذ ساعدتهما إضاءة مصابيح السقف على كشف الأمتار الممتدة أمامهما قبل التواءات النفق، حتى أبصرا أمامهما مروحةً عملاقة، تدور ريَشُها المعدنية بسرعة رهيبة، تجعل العبور خلالها مستحيلًا، فنظرا إلى بعضهما بعضًا، ثم تقدما نحوها بحذر، وحين بدأ الهواء يسحب جسديهما بقوة نحو المروحة، ألصقت فاطمة جسدها بالجدار، وصرخت إلى يحيى:

- تمسَّك بشيء!

تشبَّث يحيى بمسمارٍ حديدي ضخم مغروز في الجدار، بينما تقدمت فاطمة ببطء، تقاوم سحب الهواء، حتى أمسكت بذراع معدنية مُثبَّتة على الجدار وأنزلتها بقوة، فتباطأت الريش شيئًا فشيئًا، حتى توقفت تمامًا. فصاحت إليه وهي تعبر المروحة:

- هيا.

اندفع يحيى خلفها وتجاوز المروحة هو الآخر. لكن ما إن عبر، حتى سمع وقع أقدام يأتي من بعيد. فالتفت هو وفاطمة، فأبصرا عبر الريش رجالًا يشقّون طريقهم نحوهما وسط الإضاءة الخافتة. يتقدمهم رجل طويل القامة ذو جسدٍ رياضي متناسق. بدا كصيادٍ يبحث عن فريسته، فهمست فاطمة في ذهول ممتزج بخوف:

- رامزا

لم يستطع يحيى تبين ملامح وجهه مع خفوت الإضاءة، لكن بدا على فاطمة أنها تعرفه جيدًا. وقبل أن يسألها عن ذلك الرجل، اندفعت نحو ذراع المروحة في الجهة التي يقفان بها، وقالت وهي ترفعها:

- إنه أحد العينتو الأربعة. أكثرنا عنفًا وأمهرنا في القتال. لذا يعشق هذا الجسد الرياضي الذي يسكنه، ولا يبدله إلا نادرًا.

عادت المروحة إلى الدوران من جديد، مكوِّنة حاجزًا دوّارًا من الرّيش المعدنية أمام رامز ورجاله، فصاحت فاطمة إلى يحيى:

- هيا، قبل أن يوقفوها، ويلحقوا بنا.

ركضا لمسافة أخرى حتى وصلا إلى مروحةٍ ثانية. فكرّرا ما فعلاه مع الأولى، لكن حين حاولت فاطمة إعادة تشغيلها من الجهة الأخرى بعد عبورهما، لم تستجب رغم محاولاتها المتكررة، فتمتمت في توتر:

- هذه الذراع مُعطّلة.

فقال يحيى:

- حسنًا لنكمل الركض.

أومأت برأسها، وانطلقا من جديد، حتى أبصرا أمامهما بركة ماء تغمر أرض النفق لعشرات الأمتار، فنطقت فاطمة وهي تحدّق إليها:

- كان مستوى الأرض هنا منخفضًا، لكن لم يكن هناك ماء من قبل. لا بدّ أنهم غمروها بالماء كي يعيقوا تقدمنا.

فقال يحيى:

- هيا، لن ندعهم يمسكون بنا.

نزلا في الماء الذي وصل إلى خصرهما، لكن بمجرد أن تقدما بضعة أمتار، سمعا وقع أقدام المطاردين يقترب، فتوقفت فاطمة وقالت ليحيى:

- أكمل أنت، سأعطّلهم حتى تخرج من النفق.

قال يحيى:

- لا. لن أتركك.

صرخت فيه بحدة:

- قلت لك أكمل!

حاول أن ينطق، فقالت:

- إن كنت تريد إنقاذ حبيبتك، تحرك. سيلحق بك رامز وسيقتلك إن لم أعطله، أنت لا تعرف قسوة قلبه.

وصرخت فيه من جديد:

- هيا، اذهب.

فأومأ برأسه في صمت، ثم استدار وواصل التقدم في المياه الثقيلة، فيما أخرجت فاطمة مسدسها، وغاصت تحت سطح الماء، متربّصة بالقادمين.

***

واصل يحيى طريقه وسط الماء، ومع انعطاف النفق، لم يستطع رؤية المكان الذي توارت فيه فاطمة مرة أخرى، فهمس إلى نفسه:

- ستكون بخير.

ثم بدأ مستوى الأرض يرتفع تحت قدميه، والماء ينحسر عن ساقيه شيئًا فشيئًا، فركض بسرعة أكبر، حتى لمح سلمًا حديديًا يصعد إلى

ويلي، فاتجه نحوه، وصعده ليدفع بابًا حديديًا يشبه الباب الذي نزل منه إلى النفق، وما إن فتحه حتى قفز بجسده خارجه، ليجد نفسه في صحراء ممتدة، يكشف القمر بعض أمتارها من حوله.

أضاء مصباحه سريعًا، ثم نهض وتحرك إلى يمينه عشرين قدمًا، كما أخبرته فاطمة، حتى أبصر النبتات الثلاث ذات الأشواك الحمراء، فأسرع نحوها، وانتزعها بكل قوته، فانشق الكثيب الرملي الصغير على يمينه إلى نصفين كاشفًا عن دراجة نارية أنيقة، ذات هيكل أملس، ولوحة تحكم تضيء بألوان زرقاء وبيضاء.

اقترب من الدراجة وركبها ثم ضغط زر تشغيلها، فوجد وجهتها مضبوطة فعلًا نحو حي الماسة، لكن قبل أن ينطلق، التفت من جديد نحو باب النفق، فرأى فاطمة تخرج منه وهي تترنح بجسد منهك، بينما يقطر الماء من شعرها وثيابها، فصرخ إليها بأنه قادم، لكنها نطقت بأنفاس متقطعة وهي تنظر إليه:

- اذهب.

وقبل أن تنطق بأي شيء آخر، أو يتحرك بالدراجة النارية نحوها، دوّت طلقة نارية، أطلقها رامز الذي ظهر من خلفها كظلٍّ أسود، لتسقط فاطمة أرضًا بعدما اخترقت الرصاصة منتصف عمودها الفقري، وتلت تلاوتها البيضاوية المعلّقة بعنقها، فقبضت عليها بيد مرتجفة، وضغطت زرها وهي تنازع الموت، فظهرت أمامها شاشة هولوجرامية طافية في الهواء، مدّت يدها إليها بصعوبة تحاول الوصول إلى أيقونة تطبيق «جسد»، كي تنقل وعيها إلى جسد آخر، لكن رامز تقدم نحوها بخطوات واثقة، ثم انتزع القلادة من عنقها، وحطّمها تحت حذائه، فتلاشت الشاشة الهولوجرامية في لحظة، ثم حدّق إليها ببرود، قبل أن يخرج سكينًا من غمدٍ مثبّت على جانب ساقه، ويشق عنقها ليفصل رأسها عن جسدها.

ظل يحيى يحدّق نحوها في صدمة وهو يمسك بمقبضَي الدراجة النارية، حتى رفع رامز عينيه نحوه، فأدار المحرك بعنف، لينطلق مبتعدًا عنه بأقصى سرعة، فيما كان آخر مشهد في رأسه هو جسد فاطمة المُلقى بلا رأس.

(16)

حين وصل يحيى إلى مشارف حيّ الماسة، كان الحي ساكتًا إلا من قلة قليلة من المارة يتسكعون في ذلك التوقيت. ترك دراجته النارية عند أطراف الحي، ودخل إليه سيرًا على قدميه. ثم أبصر أحد المشردين نائمًا على جانب الطريق، فاقترب منه ونزع قبعته المتسخة، ووضعها على رأسه مغطّيًا وجهه حتى لا تلتقطه الكاميرات. ثم أخرج المائة جنيه المعدنية التي كانت لا تزال بحوزته، ووضعها بجوار الرجل النائم.

فكّر في الذهاب مباشرة إلى قسم شرطة ذلك الحي، لكن قبل أن يسأل أحد المارة عن مكانه، جال في باله أن ينتظر ويجتمع بفريدة وأسامة، ليأخذ رأيهما فيما عرفه، لعل أحدهما يملك اقتراحًا أفضل.

لم يكن يملك مالًا ليستأجر سيارة أجرة أو يحجز تذكرة قطار، ولم يرد استخدام الدراجة النارية داخل المدينة بعدما صارت هدفًا سهل التتبع مع رؤية رامز لها ومعرفته بمواصفاتها. فبقي في مكانه حائرًا لا يعرف ماذا يفعل، حتى لمحت عيناه كابينة هاتف عمومي عند زاوية الشارع، فعاد سريعًا إلى المشرد النائم، والتقط المائة جنيه التي وضعها بجواره، ثم توجّه إلى كابينة الهاتف.

أدخل النقود واتصل بفريدة.

بعد انتظار ردت عليه أخيرًا بصوت ناعس، فنطق على الفور:

- فريدة، أنا يحيى.

اتسعت عيناها كأن صوته أفاقها، وقالت:

- يحيى!

قال بتوتر:

- نعم. لقد اكتشفت ما يحدث، إنه أمر خطير للغاية، لا بد أن نتقابل. لكن ليس معي مال لاستئجار سيارة أو حجز تذكرة قطار. أرجوكِ أرسلي لي سيارة أجرة إلى هذا الموقع: كابينة هاتف رقم 302، حي الماسة. وهاتفي أسامة، وقابلاني في بيت جدي بعد ساعة من الآن. أسامة يعرف العنوان.

ثم نظر إلى عدَّاد الهاتف وقال مستعجلًا:

- ستنتهي المكالمة بعد لحظات، فقط أرسلي السيارة.

وتابع سريعًا:

- ولا تنسي إحضار قلادتي وسلسلة ليان معكِ.

بعدها انقطع الاتصال، وظهرت على شاشة الهاتف رسالة تطلب إدخال نقود إضافية. فوضع السماعة، وجلس بجوار الكابينة ينتظر.

بعد عشر دقائق توقفت أمامه سيارة أجرة بيضاء ذاتية القيادة، فارتسمت على وجهه ابتسامة ارتياح، وأسرع إليها، وبعدما جلس في المقعد الخلفي، رفع القبعة عن وجهه ليتعرف عليه ماسح السيارة الضوئي، فظهرت بياناته على الشاشة، التي سرعان ما نطقت بصوتها الآلي:

- إلى أي مكان تتجه سيد يحيى؟ سيتم خصم التكلفة من حساب السيدة فريدة الزغبي.

قال:

- إلى قرية الصفصافة.

فانطلقت السيارة، وحين مرت بجوار المشرد النائم، أنزل يحيى زجاج النافذة وألقى بالقبعة نحوه، لتسقط بجانبه دون أن توقظه.

●●●

في ردهة بيت جده بقرية الصفصافة جلس ينتظر. كان قد أخبر جده بوجود أمر في غاية الأهمية سيناقشه معه ومع صديقيه بمجرد وصولهما، وعندما وصلت فريدة برفقة أسامة بعد ساعةٍ تقريبًا من الانتظار، لم ينتظر حتى يتخذا مقعديهما، وبادرهما قائلًا:

- ليان قتلت مرام بالفعل.

نظرا إليه بدهشة وذهول، فأردف سريعًا:

- لكن هناك من تلاعب في وعيها ودفعها لارتكاب الجريمة.

ثم أخذ يحكي لهما، ولجده، ما أخبرته به المينتو فاطمة، وما حدث لها عند مخرج النفق على يد المينتو رامز، حتى انتهى باللحظة التي وصل فيها إلى حي الماسة وتراجعه عن إبلاغ الشرطة حتى يأخذ رأيهم أولًا.

سكتوا جميعًا في صدمة، فقال يحيى:

- أظن أن نزار سيكلّف من يراقب كاميرات المدينة حتى يصل إليّ، لهذا جئت بكم إلى هنا، لنتفق على خطوتنا التالية.

فسألته فريدة:

- هل أخبرتك فاطمة أي مسؤول يسكن نزار جسده؟

أجابها:

- لا. كل ما قالته إنه مسؤول رفيع المستوى.

فقالت:

- حسنًا، لا تشغل بالك بأمر تتبعه لك، أستطيع أن أغيِّر إعدادات بصمة وجهك على نظام المراقبة، وبذلك لن يتمكن من ملاحقتك عبر الكاميرات.

ثم نظرت إلى أسامة الذي بدا شاردًا للغاية منذ تحدث يحيى عما فعله المينتو بوعي ليان في السجن المركزي، وسألته متعجبة:

- ما الذي يشغل بالك يا أسامة؟

فأجابها بارتباك واضح:

- من بين جميع مراقبي الأوعاء في السجن، لا أحد يحمل شريحة جسد إلا أنا وزميل آخر. هذا يعني أن المينتو حين أراد الوصول إلى وعي ليان، استغل أحد جسدينا ليشق طريقه إليها، ربما كنت أنا ذلك الجسد المُخترَق، ربما كنت أنا السبب في تمكينه من سرقة نسخة من وعيها، وزرع الميول العدوانية في وعيها السجين، وصنع تلك النسخة الوهمية التي أوهمت المراقبين بأن كل شيء على ما يرام.

وطأطأ رأسه، قبل أن يردف بلوم شديد لنفسه:

- إدماني لاستئجار الأجساد كان السبب في وصول المينتو إلى وعي ليان.

ربّت يحيى على كتفه، وقال:

- أو ربما كنت الجسد الآخر، الذي مكّن فاطمة من الوصول إلى وعي مرام وأخذ نسخة منه، لنعرف منها كل القصة.

ثم تابع مهدئًا له:

- ما حدث قد حدث، يا أسامة. نزار كان سينفذ خطته بطريقة أو بأخرى. المهم الآن أن نفكّر في خطوتنا التالية؛ كيف نقنع الشرطة بخطورة ما يخطّط له؟

قالت فريدة:

- كي تصدقنا الشرطة لا بد من دليل قوي. والدليل الوحيد الآن هو أن يمسكوا بجسد ليان ويكتشفوا أن شريحته لا تومض.

وضمّت شفتيها، ثم أردفت سريعًا:

- لكن جسدها موجود في ضاحية الغبار، والشرطة لن تدخل الضاحية مهما حدث، لن تكرر ما حدث قبل سنوات. كان نزار ذكيًا بإرسال الجسد إلى هناك.

قال يحيى:

- ماذا عن تسجيل محطة القطار، الذي يثبت أن شريحة عنقها لم تكن تومض في أثناء وجودها هناك؟

أجابت فريدة:

- مع عدم تعرُّف كاميرات المراقبة على بصمة ذلك الجسد في محطة القطار، لن تعتبره الشرطة دليلًا. وستضع افتراضًا أوليًّا بأنه قد يكون جسد زائرة لا تملك بصمة بيومترية، أتت إلى المدينة وغادرت.

قال يحيى بإصرار:

- سنريهم صور ليان ليتأكدوا أنه الجسد نفسه.

قالت:

- حتى يثبتوا هذا الأمر، سيكون نزار قد تدخل بنفوذه وطمس ذلك التحقيق وأدلته.

قال يحيى:

- حسنًا، يمكننا الإبلاغ عن وجود تلاعب في بصمة وجه ليان، ليتتبعوا تلك البصمة. وحينها سيجدون نظام المراقبة يشير إلى أنها في السجن. وحين يفتشون، لن يجدوها. أليس هذا دليلًا؟

فكرت فريدة للحظة، ثم أومأت برأسها إيجابًا، وأخرجت لوحها الذكي وولجت إلى نظام المراقبة، ثم بحثت عن بصمة ليان. حتى ظهرت النتائج، فقالت بهدوء:

- كما توقعت، لم يعد يظهر موقعها في السجن، ولا في أي مكان بالمدينة. نزار يسبقنا بخطوة. لابد أنه توقّع أننا سنفكر في هذا الخيار.

ثم نظرت إليهم وأكملت:

- إنه يخرج لسانه لنا وللشرطة، يقول بوضوح إن ليان ليست في نطاق كاميرات المراقبة، وإذا أردتم البحث عنها فلتبحثوا في

القرى المحيطة أو ضاحية الغبار. والشرطة لن تقترب من ذلك المكان من أجل قصة لا دليل عليها.

قال يحيى بانفعال:

- أليس ما أخبرتكم به دليلًا كافيًا؟

أجابته:

- نحن نصدقك، لكن الشرطة تحتاج إلى دليل ملموس.

قال:

- سأذهب لإبلاغهم، وليحدث ما يحدث.

فقالت ببرود:

- حسنًا، اذهب. لكن لا تنسَ أن تحفر قبرك أولًا. فبمجرد أن يظهر اسمك في سجلات الشرطة، سيرسل نزار رجاله خلفك، ليشقوا عنقك مثلما فعلوا مع فاطمة.

قال يحيى:

- وما العمل إذن؟ هل نتركه يكمل مشروعه؟ هل نترك المسكينة ليان لعبة في يده يتخلص منها بعدما يصل إلى هدفه؟

قالت:

- لن نقف مكتوفي الأيدي، لكن يجب أن نكون حذرين في كل خطوة. علينا أن نعرف أولًا ما الذي جعل ليان تغيِّر قرارها فجأة وتقتل مرام بدلًا من السجينة الأخرى.

ثم نظرت إلى أسامة، وقالت:

- لا بد أن نقابل وعي ليان الأصلي في السجن المركزي.

قال أسامة:

- لن توافق ليان على مقابلتي أو مقابلتك وهي لا تعرفنا، خاصةً بعد ما حدث لها.

ونظر إلى يحيى وتابع:

- وإن ذهب يحيى إلى السجن ببصمته الحالية ستتعرف الماسحات الضوئية عليه، وسينكشف مكانه. وإذا تلاعبتِ في بصمته كي لا ينكشف نزار مكانه، فلن يسمح له النظام هناك بالدخول أصلًا.

حينها ساد صمت طويل بينهم. حتى نطق الجد، الذي كان يستمع إلى حديثهم منذ البداية دون أن يتدخل:

- سأذهب أنا. ليان تعرفني جيدًا، ولن تتردد في قبول زيارتي.

فالتفت إليه الثلاثة بدهشة، وكأن هذا الأمر لم يخطر ببالهم قط.

●●●

بعد يومين، وصلت موافقة وعي ليان على مقابلة السيد عزيز، جد يحيى. فانطلق على الفور بسيارته القديمة إلى السجن المركزي. عبر البوابة الرئيسية بعدما تعرَّف النظام على وجهه، ثم تقدم عبر الممرات حتى وصل إلى قاعة الزيارات، وهناك وجَّهه أحد الروبوتات إلى كابينة الزيارة الخاصة بليان، حيث جلس على مقعدٍ أمام حاجز زجاجي، وضغط زرًّا أحمر إلى جانبه، فظهر أمامه عداد تنازلي لثلاث دقائق، وفي اللحظة نفسها بدأ جسد هولوجرامي يتشكل تدريجيًّا خلف الحاجز الزجاجي، حتى اكتمل أمامه جسد ليان، كما اعتاد أن يراها.

ما إن وقعت عيناها عليه حتى أشرقت ملامحها بابتسامة واسعة، وبحركة عفوية وضعت كفها على الزجاج كأنها تريد أن تتحقق من وجوده أمامها حقًّا، وقالت بصوتٍ مفعم بالفرح:

- جدي عزيز، لم أصدق نفسي حين أخبروني أنك طلبت مقابلتي.

ابتسم هو الآخر وقال بصوته الهادئ:

- لطالما أردت أن أفعلها يا ابنتي، لكني خشيت أن ترفضي طلبي بعد ما فعله يحيى. سامحيني على تقصيري.

قالت:

- تعرف مكانتك في قلبي يا سيدي، لطالما أحببتك واعتبرتك كأنك جدي الحقيقي.

قال:

- لقد ندم يحيى على ما فعله، وحين تخرجين من هنا ستعرفين كم يحبك ذلك المسكين.

أومأت برأسها في صمت، فنظر إلى عدَّاد الوقت التنازلي، ثم قال:

- لقد علمنا بما حدث لكِ، وعرفنا قصة جماعة الميمنتو، ويحيى يفعل كل ما في وسعه لكشف حقيقة أولئك الأشرار، واستعادة جسدك وإخراجك من هنا سالمة. لكن نزار اكتشف أمره، لذا لم يستطع المجيء بنفسه، وأرسلني بدلًا منه لأعرف منك: ما الذي جعلكِ تغيِّرين قرارك في اللحظة الأخيرة وتقتلين مرام؟

ترددت ليان قليلًا، ثم قالت بصوت خافت:

- كانت مرام تؤمن أن قتلي للسجينة الأخرى سيكون نهايتي ونهاية البشرية. وأن قتلي لها هي سيكون النقطة الفارقة التي تكسر منطقية خطة نزار، وتجعل يحيى يبحث وراء ما يحدث، لعله يستطيع فعل شيء يوقف ما يخطط له الميمنتو. ومع ذلك، لم أكن لأقتلها قط، لولا ما ومض في ذهني في اللحظة الأخيرة، وجعلني أشعر أن هناك ما قد يغيِّر موازين اللعبة كلها.

فاقترب الجد من الزجاج، وسألها بترقب:

- ماذا ومض في ذهنك في تلك اللحظة؟

فقالت:

- الكود الذي دفنه أبي في أعماق وعيي لفتح خزينته، لقد رأيته بوضوح كما أراك الآن.

(17)

بعد انتهاء المقابلة، عاد السيد عزيز إلى بيته حيث كان يحيى وأسامة وفريدة ينتظرونه على أحر من الجمر. وما إن دخل عليهم ونهضوا من أماكنهم ينظرون إليه مترقبين، حتى قال مباشرة:

- لقد عثرت ليان في وعيها على الكود الذي أخفاه أبوها، وهذا ما جعلها تغيِّر قرارها في اللحظة الأخيرة وتقتل مرام بدلًا من السجينة الأخرى.

سأله يحيى بلهفة:

- وهل أخبرتك بالكود؟

هزَّ الجد رأسه نافيًا، وقال:

- لا، وأنا لم أطلب منها أن تخبرني به. لا بد أن تلك الكبائن مراقَبة، وقد تصل تلك المحادثة إلى نزار في أي لحظة.

قال أسامة مؤكدًا:

- نعم، جميع الزيارات هناك تُراجَع مساء كل يوم.

ثم تابع آسفًا:

- من المؤكد أن نزار سيعرف بكل ما دار بينكما، وسيسعى للحصول على نسخة جديدة من وعيها ليستبدل بها النسخة الموجودة الآن في جسدها. لقد سلَّمناه الكود بأنفسنا بتلك الزيارة.

قال يحيى بقلق:

- ألا يستطيع أحد من زملائك هناك محو ذاكرتها الحديثة؟

هزَّ أسامة رأسه نفيًا، وقال:

- إن تذكّرها ذلك الكود ليس شعورًا عابرًا أصاب الوعي كي يُمحى بسهولة. إنه استرجاع لذكرى مزروعة في أعماق وعيها، لذا يتطلب الأمر محوًا كاملًا لذاكرتها إن أردت محو تلك الذكرى، وهذا الأمر لن يجرؤ على فعله أحد.

ونظر إليه وأكمل:

- محو كامل للذاكرة يعني أنها ستفقد كل شيء عاشته، بما فيهم أنت.

ثم أردف:

- المشكلة الآن أن الكود لم يعد مدفونًا فقط في أعماق وعيها، بل أصبح موجودًا في طبقاته السطحية أيضًا، وهذا يعني أن نزار لن يستغرق وقتًا طويلًا للوصول إليه بعد حصوله على النسخة الجديدة من وعيها.

فتدخل الجد قائلًا:

- لقد أخبرتني بشيء آخر في غاية الأهمية، لقد رأت في وعيها أيضًا رسالةً من أبيها يخبرها فيها أن الكود سيبقى حاضرًا في ذاكرتها لثلاثة أشهر فقط منذ لحظة تذكّره.

فنطق يحيى بسرعة:

- ثلاثة أشهر؟!

فأومأ جده إيجابًا.

فقال يحيى بعدما استرجع في ذهنه تاريخ اليوم الذي قتلت فيه لبان مرام:

- هذا يعني أنه لا يتبقى سوى أربعة أيام، ويتبخر الكود من وعيها

قالت فريدة بقلق:

- هكذا، سيسارع نزار بالعودة إلى السجن المركزي لأخذ نسخة حديثة من وعيها قبل زوال الكود منه.

ثمَّ يحيى شفتيه وهز رأسه متفقًا معها، بينما قال جده:

- وفي نهاية اللقاء، أوصتني أن أبلغك سلامها، وأن تحافظ على نفسك، وألا تنسى أحلامكما، حتى تنجو وتعود إليك.

في ظروف أخرى كان يحيى ليرقص فرحًا إثر تلك الكلمات، لكنه اكتفى بابتسامة حزينة، قبل أن ينظر إلى أسامة ويقول بجدية:

- كما قالت فريدة، إذا عرف نزار أن أمامه أربعة أيام فقط على تبخر الكود من وعي ليان، فسيسعى للحصول على نسخة وعيها الحديثة في أسرع وقت، سيستخدم الطريقة نفسها التي اتبعها من قبل: سيثبِّت وعي أحد المينتو على جسدك أو جسد زميلك الذي يملك شريحة تطبيق «جسد».

ثم صمت للحظة، قبل أن يتابع:

- المينتو الناجون عددهم أربعة: نزار، وفاطمة، ورامز، والمينتو الذي يسكن جسد ليان الآن في ضاحية الغبار.

ثم أكمل:

- نزار لن يترك جسده كما فهمتُ من فاطمة، وفاطمة ماتت، والمينتو الذي يسكن جسد ليان لن يترك جسدها وسيواصل التنقيب في وعيها لعله يحصل على الكود في أي لحظة. هذا يعني أن رامز سيكون المينتو المكلَّف بهذه المهمة.

ثم صمت للحظة أخرى، قبل أن يكمل بجدية أكبر:

- سيطَّلعون هذا المساء على محادثة الزيارة، وبعدها سيسعى رامز للولوج مجددًا إلى شريحة جسد المراقب الذي اخترق من قبل،

وبمجرد سيطرته على الجسد وإطفائه شريحة عنقه، سيتدخل نزار بنفوذه ليُعيد صاحب الجسد إلى العمل، كي يحصل على نسخة وعي ليان الحديثة.

هذا يعني أن قرار عودة أحدكما إلى العمل سيصدر خلال يوم أو يومين على الأكثر.

وتابع وهو ينظر إلى الجميع:

- المراقِب الذي سيعود للعمل غدًا أو بعد غد سيكون هو الشخص المستهدَف للوصول إلى وعي ليان.

ثم نظر إلى أسامة مرة أخرى، وقال بنبرة حازمة:

- عليك أن تستعيد جسدك من مركز التأهيل فورًا، وتفكّ شريحته في الحال كي لا يستطيع استئجار جسدك إن كنت أنت حاضنه في المرة السابقة.

ارتسم التوتر على وجه أسامة، لكنه أومأ موافقًا في النهاية. فأكمل يحيى:

- أما جسد المراقِب الآخر فسأستأجره أنا، وسآتي به إلى هنا لنزيل الشريحة من عنقه بأنفسنا.

قالت فريدة معترضة:

- لكننا لسنا أطباء، كيف سنُزيل الشريحة؟

نظر يحيى إلى جده وقال:

- أعتقد أن جدي قادر على القيام بهذا الأمر.

أجابه الجد عزيز بدهشة:

- لا، إن هذه جراحة معقدة للغاية. فالشريحة تتصل مباشرةً بالحبل الشوكي، وأي خطأ في محاولة إزالتها سيؤدي إلى إصابة الجسد بشللٍ رباعي، وحينها لن تقل عقوبتنا عن السجن المؤبد.

فقال يحيى:

- ليس أمامنا حل آخر، فتفتيت الشرائح لا يتم إلا بموافقة شخصية من صاحب الجسد الأصلي، لذا لا بد أن نستخرجها جراحيًّا وندمِّرها.

وتابع مصرًّا:

- إن كان ذلك المراقِب طريق الميندو للوصول إلى وعي ليان الأصلي مرة أخرى، فلا بد أن نمنعهم من الوصول إلى جسده مهما كلفنا الأمر، وإلا سنجد أجسادنا جميعًا تحت سيطرة الآلات.

لضم جده شفتيه في صمت طويل، ثم هزَّ رأسه مستسلمًا كأنه وافق على المحاولة.

عندها نظر يحيى إلى فريدة وسألها:

- هل غيَّرتِ بصمتي البيومترية على نظام المراقبة؟

فقالت:

- لا، ليس بعد.

قال:

- حسنًا، لا تغيِّريها الآن. عليَّ أن أستخدم بصمتي الأصلية للولوج إلى تطبيق «جسده» وتأجير جسد ذلك المراقِب.

ثم التفت إلى أسامة، وسأله:

- هل تعرف رقم هويته المدنية؟

أجابه أسامة:

- لا أعرفه، لكن يمكنني الوصول إليه بطريقة أو بأخرى.

قال يحيى:

- حسنًا، فلتفعل ذلك بأسرع ما يمكن.

***

بعد مكالمة هاتفية طويلة، تمكن أسامة من الحصول على رقم هوية زميله. فتح يحيى تطبيق «جسده» على شاشة هاتفه بعدما ضغط زر قلادته، ثم أدخل رقم الهوية الذي حصل عليه أسامة، فظهرت صورة الرجل أمامه؛ شاب ثلاثيني ذو وجه دائري وعينين خضراوين داكنتين، قامته قصيرة بعض الشيء، وجسده ممتلئ بوضوح عند منطقة البطن.

قال أسامة بمجرد أن رأى صورته:

- نعم، هذا هو عاصم.

قال يحيى:

- سأستأجر جسده لأربع وعشرين ساعة، نزيل خلالها شريحته.

ثم التفت إلى جده وقال:

- سأترك جسدي الساكن هنا. أعرف أنك ستعتني به جيدًا حتى أعود بالجسد الجديد.

فابتسم الجد وقال:

- لن توصيني على جسد حفيدي.

فالتفت يحيى إلى أسامة وقال بجدية:

- أرجوك، لا تخذلني. استعد جسدك الأصلي وفكّ شريحته قبل أن يعيدوك إلى العمل.

أومأ أسامة بارتباكٍ واضح، ثم قال:

- عليّ أن أعيد هذا الجسد أولًا إلى مكانه حيث استلمته، فلقد وقّعتُ على إقرارٍ بذلك عندما استأجرته.

قال يحيى:

- يمكنك تركه هنا، سيهتم به جدي أيضًا.

هزّ رأسه رافضًا بتوتر أكبر، وقال:

- لا، يجب أن أعيده إلى هناك. لا تقلق، سأعود في أقرب وقت.

ثم تحرك سريعًا إلى الباب، وغادر في الحال وسط اندهاش الجميع.

●●●

بعد خمس دقائق، سكن جسد يحيى، إذ كان التطبيق يمنح مهلةً بعدها المستأجر كي يجهّز جسده الأصلي لوضع الثُّبات. وقد اختار يحيى تلك الدقائق الخمس قبل موافقته على بدء الاستئجار. جلست فريدة بجوار جسده الساكن تراقبه بقلق. فقال السيد عزيز مطمئنًا إياها:

- لا تقلقي عليه، سأعتني به حتى يعود.

قالت:

- لست قلقة بشأن يحيى، سيعود إلينا خلال ساعات. إنني أخشى فقط على أسامة، إن تمكن المينتو من الحصول على جسده الأصلي قبل أن يستعيده، سيضيع كل شيء.

ثم أطلقت زفيرها وقالت:

- المرة الأولى أشعر أن هناك أمرًا غير طبيعي يخصُّ أسامة.

فقال الجد:

- سيكون كل شيء على ما يرام إن شاء الله.

●●●

بعد قرابة أربع ساعات، وصلت سيارة أجرة ذاتية القيادة إلى بيت السيد عزيز، إذ وصل يحيى بجسده الجديد. وعندما طرق الباب، وفتحت فريدة ورأته أمامها، تنفست الصعداء وقالت:

- الحمد لله أنك جئت سالمًا.

سألها وهو يتقدم إلى الداخل:

- هل من أخبار عن أسامة؟

أجابته وهي تنظر إلى الوميض الأحمر على مؤخرة رقبته:

- لا، حتى هاتفه لا يجيب.

نظر يحيى إلى جسده الممدَّد على الطاولة في وسط الردهة، وقال:

- لدينا عشرون ساعة تقريبًا قبل انتهاء مدة استئجار الجسد الذي أسكنه. لا بد أن نخرج شريحته قبل انتهائها.

فقال جده:

- حسنًا، لكن علينا أن ننتظر أسامة، ونرى ما فعل أولًا.

فكر يحيى للحظات، قبل أن يومئ موافقًا، ويجلس معهم يترقبون عودة أسامة.

●●●

مرَّت الساعات واحدة تلو الأخرى، دون أن يعود إليهم أسامة أو يجيب على هاتفه. صعد السيد عزيز إلى غرفته لينام قليلًا، بينما بقي يحيى وفريدة في الردهة، وحين دقَّت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، قال يحيى بقلق:

- هل يمكن أن يكون رامز قد سيطر على جسد أسامة؟

تنهدت فريدة، وقالت:

- لا أعلم، لكنه على الأقل كان سيهاتفنا ويخبرنا. أخشى أنهم أصابوه بمكروه وهو يحاول استعادة جسده.

ضغط يحيى زرَّ قلادته واتصل به مرة أخرى، لكن دون جدوى، فزفر غاضبًا وقال:

- هناك شيء غير طبيعي يحدث. هل تعرفين عنوان مركز التأهيل الذي يحتفظ فيه أسامة بجسده؟

هزّت فريدة رأسها نافية، فأردف:

- بدأ أسامة يتصرّف بغرابة في الأيام الماضية، تحديدًا منذ أن أخبرتكما بما كشفته لي فاطمة. أخشى أن يكون هناك خيانة.

تساءلت فريدة متعجبة:

- أسامة؟!

لوّحا برأسه وقال:

- من يدري؟ لعله جاءني وتعرّف عليّ بأمرٍ من الميتنتو، لربما أخبرتني ليان بالكود من قبل أو أعرف شيئًا عنه.

قالت بهدوء:

- لا، ليس أسامة من النوع الذي يخون. لو كان كذلك، لكان قد أخبر نزار بمكاننا وكنت أنا وأنت في عداد الموتى الآن.

فقال يحيى بحيرة:

- إذن، لماذا لم يعد حتى الآن؟ إن الساعات تمرُّ بسرعة رهيبة. وإذا لم يعد بحلول الصباح، لا بد أن نستخرج شريحة الجسد الذي أسكنه وندمرها.

قالت فريدة:

- سيعود، علينا أن ننتظر.

فأسند يحيى رأسه إلى الأريكة، وهو يثبت عينيه نحو ساعة الحائط.

***

عند السابعة صباحًا، سمعا طرقًا شديدًا على الباب. فأسرع يحيى لفتحه، ليجد أمامه أسامة بالجسد الذي اعتاد أن يراه عليه. فسأله بدهشة:

- ألم تستعد جسدك الأصلي؟

فأجابه أسامة وهو يدخل:

- لا.

فسأله بدهشة أكبر:

- لماذا؟!

فقال:

- بعد مغادرتي لكم وصلني إشعار بصدور قرار عودتي إلى العمل، فكان عليّ أن أذهب إلى هناك أولًا.

قالت فريدة بانفعال:

- رجوعك إلى العمل يعني أن جسدك هو المستهدَف! لماذا لم تُسرع وتستعِد جسدك وتفتِّش شريحتك بدلًا من إضاعة الوقت بالذهاب إلى مقر عملك؟

ردَّ ببرود غريب:

- كان عليّ أن ألتقي مديري لأعده بأنني سأبذل قصارى جهدي كي لا أخذله مجددًا، وللأسف عندما ذهبتُ بعدها إلى مركز التأهيل كي أستعيد جسدي، وجدته قد استُؤجر بالفعل. لم يأتِ في بالي أن يكونوا سريعين إلى هذا الحد.

هجم يحيى عليه وأمسكه من ياقة قميصه قائلًا:

- لقد خذلتنا نحن، لقد منحت المينتو بغبائك الفرصة ليصلوا إلى هدفهم. لقد طلبنا منك أن تذهب أولًا وتستعيد جسدك كي نحرمهم من تلك الفرصة. لقد ضيَّعت الفتاة، ضيَّعت كل شيء!

لم يقاوم أسامة، بينما تدخلت فريدة لتفصل بينهما. وعندما خلَّصت أسامة من يد يحيى قالت له:

- لماذا عدت إذن يا أسامة؟ لو لم تعد، لظلَّت صورتك في نظرنا أفضل من هذا.

فرد بلطور:

- خشيت أن تتسببوا في أذى جسد زميلي وتدخلوا السجن بلا جدوى. لذا جئت لأخبركم بأنه ليس هناك فائدة من تدمير شريحته الآن.

قال يحيى بحدة:

- خائنًا

لكن أسامة لاذ بالصمت.

فسألته فريدة:

- متى تتوقع أن يذهب رامز إلى مقر عمله للحصول على نسخة وعي ليان؟

نظر أسامة إلى ساعة الحائط وقال:

- مع بداية دوام اليوم، أي بعد ساعة تقريبًا.

قال يحيى بتوتر شديد:

- علينا أن نفعل شيئًا، لن نبقى هنا مكتوفي الأيدي، لا بد أن نسرع إلى السجن المركزي كي نمنعه بأي طريقة. إن الطريق إلى هناك يستغرق ساعة ونصفًا تقريبًا بالسرعة القانونية، قد نلحق به إن قدت بأقصى سرعة. سأستعيد جسدي وأنطلق إلى هناك.

فقالت فريدة:

- سآتي معك.

ثم التفتت إلى أسامة وقالت:

- ماذا تنتظر؟ عليك أن تأتي معنا، يجب أن تثبت لمديرك وزملائك أن من هناك ليس أنت.

هزَّ أسامة رأسه بالنفي، بينما استعاد يحيى جسده الأصلي عبر التطبيق، ثم أسرعوا جميعًا نحو سيارة السيد عزيز، حيث تولّى يحيى القيادة، وجلس أسامة إلى جانبه، فيما اتخذت فريدة مكانها في المقعد الخلفي. وما إن أدار يحيى المحرّك، حتى انطلقت السيارة بأقصى سرعتها نحو المدينة.

●●●

وصلت السيارة إلى السجن المركزي بعد ساعةٍ وخمس عشرة دقيقة تقريبًا، فهمّ يحيى وفريدة بالنزول منها، لكن أسامة أوقفهما وقال بهدوء غريب:

- لقد فات الأوان.

ثم ضغط زرَّ قلادته، فظهرت في الهواء أمامهم شاشة هاتفه، فلمس بإصبعه أيقونةً على شكل كاميرا، فانبثقت على الفور نافذةٌ جانبية تعرض بثًّا مباشرًا، يظهر فيه جسده الأصلي وهو يجلس في مكتبه ويستعد للرحيل.

فصاحت فريدة:

- يمكننا اللحاق به قبل أن يخرج بالشريحة التي تحمل نسخة وعي ليان!

فقال أسامة بجمود:

- لن يخرج.

سألته بترقب:

- هل سيمسكون به؟!

قال:

- لا، إن شعر بأن أحدهم سيمسك به، سيحاول الهرب، وفي أثناء ذلك سيُخفي الشريحة التي تحمل نسخة وعي ليان في أيّ مكان

بالسجن، ثم ينقل وعيه فورًا إلى جسدٍ آخر. وبعدها سيرسل نزار مَن يحضر له تلك الشريحة من المكان الذي أخفيت فيه.

ثم نظر إليهما بعينين مثقلتين بالذنب وقال:

- كان خطئي منذ البداية. أنا من سمحتُ لهم بالدخول إلى جسدي والتلاعب بوعي ليان. لم أكن أمينًا على عملي بوضع جسدي متاحًا للإيجار. ماتت فتاة بريئة بسببي، وسيموت الكثيرون أيضًا إن لم أصحّح هذا الخطأ.

سألته فريدة بدهشة:

- ماذا تقصد؟

فأجابها بصوت هادئ:

- ستصل إليكما بعد قليل رسالةٌ مني تشرح كل شيء. وداعًا يا أصدقائي.

بعدها، حرَّك الأيقونات على شاشته الطافية حتى توقف عند أيقونة غريبة، ثم التفت إليهما مبتسمًا ابتسامة حزينة، ونقر بإصبعه على تلك الأيقونة.

فجأة دوَّت صفَّارات الإنذار داخل السجن، وما هي إلا ثوانٍ حتى مال جسده متجمدًا في وضع السكون الأبدي.

صرخت فريدة من الصدمة، ثم أسرعت إلى شاشته الطافية وحركت أيقوناتها لتصل إلى أيقونة الكاميرا التي تنقل البث المباشر من مكتبه، وضغطت عليها.

حينئذ، رأت جسده الأصلي وقد تناثرت أشلاؤه في كل مكان. فهمست إلى يحيى بأنفاسٍ متقطعة وهي لا تصدِّق ما تراه على الشاشة:

- لقد فجَّر أسامة جسده! لقد نصب فخًّا لرامز، وقتله مضحيًا بنفسه، ليمنع نزار من الحصول على كود ليان.

(18)

ظل يحيى يحدِّق إلى الشاشة الطافية أمامهما، بعينين مذهولتين لا تصدِّقان ما تراه. بينما تساقطت دموع فريدة في صمت وهي تنظر إلى الأشلاء الممزقة على الشاشة، فيما كانت صفارات الإنذار المدوِّية داخل السجن لا تزال تصمُّ الآذان.

بعد خمس دقائق، وصلت الرسالة المؤجَّلة التي كان أسامة قد أشار إليها قبل تفجيره لنفسه، فضغط يحيى زر قلادته بيدٍ مرتجفة، وما إن لمس أيقونة الرسالة على الشاشة التي ظهرت على معصمه الأيمن، حتى انبثقت شاشة أكبر في الهواء أمامهما.

ضغط على زر التشغيل، فظهر أسامة -بالجسد المُستأجَر الذي لطالما رآه به- في تسجيلٍ مصوَّر.

قال بصوتٍ مثقلٍ بالحزن:

- إذا كنتما تشاهدان هذا الآن، فهذا يعني أنني نفَّذتُ ما خططتُ له. أعلم أنكما شعرتما بالخذلان مني، وربما ظننتما أنني خنتكما. لكنني لم أخذلكما قط. نعم، كنت سببًا في وصول الميندو إلى وهي ليان والتلاعب به، لكنني كنتُ ضحية مثلها.

ثم انحنى قليلًا إلى الأمام، وأكمل:

- لذا قررتُ أن أصحِّح خطئي؛ وأن أعاقب الميندو على استغلالهم جسدي لإيذاء أناسٍ آخرين. لقد ذهبتُ إلى أخي الذي يعمل في

مجال المتفجرات، وطلبتُ منه أن يعطيني قنبلةً في حجم إصبعٍ تستطيع تفجير باب حديدي صغير، أعجز عن فتحه.

أخي مسكين يثق بي كثيرًا ويصدِّق كل ما أقوله، أعطاها لي دون نقاش وعرَّفني كيف أفجِّرها عن بُعد. بل وأخبرني أن تلك القنبلة لن تظهر لكاشفات المعادن، إذ صُنع غطاؤها من المادة نفسها التي تُصنع منها شرائح تطبيق جسد.

ثم تنفس ببطء، قبل أن يتابع:

- أخذتُ القنبلة، وعندما وصلتني الرسالة بعودتي إلى العمل، ذهبتُ مباشرة إلى مركز التأهيل الذي احتفظ فيه بجسدي الأصلي، وطلبتُ إحضار جسدي إلى غرفةٍ خاصة، حيث استعدته، وبلعتُ تلك القنبلة لتستقر في معدتي، ثم سجَّلتُ فيديو سينتشر على كل منصات التواصل الاجتماعي بعد قليل.

ثم توقف لحظة، وكأنه يستجمع قواه، ثم قال:

- كنتُ أعرف أن رامز سيمنحني بعض الوقت قبل أن يسيطر على جسدي، إذ تذكرت أنه في ضاحية الغبار، ومع حبِّه للجسد الرياضي الذي يسكنه، كان لا بد أن يحتفظ به في أثناء شُباته في مكانٍ لائق داخل المدينة، لا في تلك الضاحية. لذا غادرتُ سريعًا بجسدي الأصلي إلى السجن المركزي، وهناك، ثبَّتُّ كاميرا صغيرة بمكتبي، تُظهر أي ولوجٍ لي على نظام السجن الرقمي. قبل أن أعود إلى مركز التأهيل وأترك جسدي هناك مرة أخرى، وأعود إليكما في قرية الصفصافة.

ثم صمت قليلًا، وقال:

- لقد اعترفتُ في الفيديو الذي صوَّرتُه بجسدي الأصلي أنني من تلاعب في وعي ليان، وغذَّاه بسلوكٍ عدواني خبيث بعدما أخذتُ رشوة من إحدى المستأجرات التي أرادت الحصول على جسدها

أطول فترة ممكنة. لذا قررتُ أن أكفِّر عن ذنبي بتفجير جسدي أمام الكاميرا في فيديو آخر.

لم أذكر أمر الفيلتو لأن ذلك سيجعل الناس منقسمين بين مكذِّب ومصدِّق، وقد يبعدنا هذا الجدل عن الهدف الرئيسي، وهو تسليط الضوء كله على ليان.

سيفتح هذا الاعتراف قضية قتل ليان لمرام مرة أخرى، ومع تسجيل كاميرا مكتبي لولوج رامز بجسدي إلى النظام وحصوله على نسخة من وعيها، سيؤكد الاختراق غير القانوني لوعيها، لتُعاد محاكمتها مرة أخرى.

ثم تنهد وأكمل:

- مع انتشار الفيديو سيكرهني الناس، وسيلعنون اسمي، ظنًّا منهم أنني المجرم الحقيقي، لكن لا يهم، المهم أن قضية ليان ستصبح قضية رأي عام، وستضع المسؤولين تحت ضغط كبير يجبرهم على التحقيق بجدية فيما حدث، لتحصل ليان على البراءة في أسرع وقت، وبعدها سيُفتح تحقيق عاجل في أمر اختفاء جسدها الأصلي من نظام المراقبة، ليجد نزار نفسه فجأة في مواجهة النظام بأكمله.

ثم ابتسم وقال:

- ليس هذا فحسب، بل منذ هذه اللحظة لن يستطيع نزار استخدام أي جسدٍ آخر للوصول إلى وعي ليان في السجن الرقمي، مع تسليط كل الأنظار عليها. وستمر الأيام الثلاثة القادمة دون أن يحصل على كوده.

ثم اقترب بوجهه من الكاميرا، وقال:

- يا صديقي، لست خائنًا، بل فعلتُ ما كان يجب أن أفعله. قتلتُ رامز، وحميتُ ليان من نزار، ولو مؤقتًا.

ثم هزَّ رأسه بطمأنينة، وقال:

- ربما خسرتُ حياتي، لكنني استعدتُ نفسي. سامحاني، واذكراني بخير.

بعدها انتهى التسجيل. فهمست فريدة إلى يحيى وعيناها غارقتان بالدموع:

- قلت لك، لم يكن خائنًا.

فأومأ يحيى برأسه إيجابًا في صمتٍ، وعيناه تمتلئان بالدموع هو الآخر.

●●●

في أقل من ساعة، كان الفيديو الذي سجَّل فيه أسامة اعترافه بتلاعبه في وعي ليان، وفيديو انفجار جسده داخل مكتبه بالسجن المركزي قد انتشرا انتشار النار في الهشيم، إذ تصدَّرا كافة منصات التواصل الاجتماعي وقنوات الأخبار. ولم يعد هناك حديث على الألسنة إلا عن تلك اليتيمة المسكينة التي سُرق جسدها.

لم تصدِّق فريدة نفسها وهي تتابع ردود الأفعال المتعاطفة مع ليان والمطالِبة بإبراءتها الفورية، بل وبتعويضها عن كل ما عانته في السجن، ونطقت إلى يحيى:

- لقد منح أسامة قُبلة الحياة إلى ليان بتضحيته هذه. سيُطلَق سراحها لا محالة.

قال يحيى بعينين لامعتين بدموعهما وهو يقرأ خبرًا على شاشته بأن الحكومة ستُدلي بعد قليل ببيان عما حدث لليان:

- نعم، ليرحمك الله يا أسامة، لقد قلبت موازين الأمور كلها في لحظة.

فنظرت إليه فريدة وسألته بتخوفٍ واضح:

- هل تظن أن نزار سيستسلم لهزيمته؟

فرفع عينيه إليها وفكر للحظة، ثم قال:

- لا أعرف، لقد صار محاصرًا الآن. إما أن يستسلم، وإما أن يفقد عقله ويفعل ما لا نتوقعه.

***

في بناية محصّنة داخل الحي الحكومي، تقدم بخطواتٍ ثابتة إلى مكتبه، بينما يقف مساعدوه على جانبي الممر بانحناءات متوترة، دون أن يجرؤ أحدٌ منهم على رفع عينيه إلى وجهه الغاضب، فالكل يعرف أنه حين يبدو غاضبًا بهذا الشكل قد ينكّل بهم وبأسرهم في أي لحظة.

دخل مكتبه، وأغلق الباب خلفه، ثم وقف أمام الشاشة العملاقة التي تغطي الجدار. كانت القنوات كلها تبث الفيديوهات نفسها: أسامة يعترف، أسامة يفجّر نفسه، الناس يطالبون ببراءة ليان، بيان الحكومة بأن التحقيقات تُجرى وسيُعاقَب كل المتورطين في حال ثبوت أي تلاعب في وعي الفتاة، مسؤول آخر يبرّر في مقابلة بإحدى القنوات أنّ ما حدث خطأ فردي لا يمثّل الحكومة ولا نظام السجن، خبرٌ عاجل بأن الجهة السيادية الأعلى في البلاد ستشرف بنفسها على التحقيق.

ركل طاولة صغيرة أمامه بعصبية بينما تتسارع أنفاسه بغضب، والأفكار تعصف برأسه: الميمنتو الأولى خانت، ورامز قُتل، والثالث البلاس الذي يسكن جسد ليان لم يعثر على الكود في وعيها حتى الآن. شعر بالاختناق للمرة الأولى، وهو يفكر في الوقت الذي يداهمه. ثلاثة أيام فقط وستختفي الذكرى من وعي ليان. إذا لم يحصل على الكود خلالها فلن يحصل عليه أبدًا.

اقترب من النافذة، فانعكست صورته على الزجاج: رجلٌ بملامح صارمة، شعرٌ أشيب، بدلة رسمية أنيقة، ووسام رفيع المستوى مُعلَّق على صدره. لطالما أحبَّ هذا الجسد الذي منحه السلطة والنفوذ، لكنه

لم ينسَ قط في أي لحظة أنه ليس سوى آلة، تتوارى داخل هذا الجسد للوصول إلى هدفه الأسمى.

نظر نظرة مطوّلة نحو المدينة من أعلى، وإلى الشوارع المكتظة بالسيارات والمارة، ثم أومأ برأسه إيجابًا في غضب، وكأن خطوته التالية قد تبلورت في وعيه.

عاد إلى المكتب وضغط زر الاستدعاء، فدخل مساعده الأول مرتبكًا، فقال له:

- أبلغ محطة العاصمة بأن يحركوا قطار 509 بركّابه من مستودع القطارات إلى السكة الحديدية المتجهة إلى ضاحية الغبار. سأكون على الرصيف بعد ساعة من الآن.

تردّد المساعد لحظة، قبل أن ينطق بصوت خائف:

- لكن يا سيدي، هناك قطارات...

قاطعه نزار صارخًا:

- أبلغ منظومة النقل بأن تُنحّي أي قطارٍ يوجد على السكة نفسها. أريد الطريق خاليًا إلى ضاحية الغبار.

فهزّ المساعد رأسه مطيعًا في خوف وهو يتراجع ببطء إلى الخلف.

●●●

بعد ساعة، كان نزار قد وصل إلى محطة العاصمة برفقة موكبه وهناك شقّ مساعدوه له الطريق نحو الرصيف بينما احتشد الركّاب خلف الحواجز الحديدية التي أقامتها شرطة المحطة متذمرين من إلغاء رحلاتهم المفاجئ ومنعهم من الاقتراب من الرصيف، غير أن غضبهم سرعان ما تحول إلى دهشة كبرى وصمت مريب حين أبصروا ذلك القطار الطويل يدخل إلى الرصيف، وهو يجرُّ خلفه عشرين عربة، جميع نوافذها سوداء معتمة، لا تُظهر من يجلس في داخلها.

ما إن توقف القطار حتى توجَّه نزار مباشرةً إلى أقرب العربات له، وقبل أن يُفتح بابها، أشار لمساعديه الواقفين خلفه بأن يعودوا أدراجهم، فامتثلوا لأمره في صمت.

بعدها، دخل العربة وحده وأغلق الباب من خلفه، فنظر إلى ركّاب العربة الذين نهضوا من أماكنهم احترامًا له، قبل أن ينحنوا له طاعةً وهو يمر من بينهم.

لم يكونوا بشرًا، بل روبوتات فولاذية مصقولة بحرفية، أمر بصنعها وتخزينها في ذلك القطار من أجل اللحظة التي لطالما حلم بها، ألف روبوت وُزعوا على العربات، جميعهم مُبرمَجون على طاعة أوامره هو وحده، ومن بينهم سائق القطار الذي أشرف بنفسه على تصنيعه.

أشار لهم بالجلوس فجلسوا، ثم جلس هو بدوره في مقعدٍ خالٍ بينهم، وما هي إلا لحظات حتى أطلق القطار صافرته، وانطلق نحو ضاحية الغبار.

●●●

حين وصل القطار إلى ضاحية الغبار، توقف. ثم فُتحت أبواب العربات كلها في اللحظة نفسها، فبدأت الروبوتات تنزل بانتظام لتصطف على جانب السكة الحديدية في تشكيل مربع يشبه كتائب الجنود.

بعدها، نزل نزار بخطواتٍ ثابتة، لم يكن في استقباله أحد، لا موسى ولا نجلاء، ولا أيٌّ من رجالهما. وكأن أحدًا لم يتوقع قدومه في ذلك التوقيت.

أمر الروبوت السائق بأن يواصل التقدم بالقطار حتى محطة المروج، ثم يعطّل نفسه هناك، فانحنى له الروبوت مطيعًا ثم ركض نحو مقدمة القطار لينطلق به بعيدًا.

بعدها، أمر الروبوتات الباقية بأن تتخذ أماكنها بين الجبلين، دون أن تدخل إلى ضاحية الغبار، فامتثلت لأمره بلا تردد.

حينذاك، تقدم بنفسه دون أي رفيق إلى داخل الضاحية، ليجتاز الأزقة الضيقة واحدًا وراء الآخر، بينما ينظر نحوه أهل الضاحية بدهشةٍ وارتياب من هيئته المهيبة التي لم يروها على بشريٍّ من قبل. لم يلتفت إلى أي شخص، فقط تقدم وتقدم حتى وصل إلى البيت الكبير خلف شجرة التوت.

طرق الباب بهدوء، ففتح جسد ليان، وبمجرد أن رأته أمامها، سألت باستغراب:

- سيد نزار؟ ماذا تفعل هنا؟ لم أحصل على الكود بعد.

فقال بصوتٍ بارد كالثلج:

- لقد أخذت وقتًا أطول من اللازم، لقد انتهى دورك.

ثم ضغط زر قلادته، فظهرت شاشته على معصمه الأيمن، فأدخل سلسلةً من الأوامر السريعة، سقط بعدها جسد ليان متجمدًا أمامه.

بعد لحظات، سقط جسده هو الآخر متجمدًا بجوار جسد ليان الساكن.

●●●

بعد أقل من دقيقة، بدأت مؤخرة رقبة ليان تومض بالضوء الأحمر، ثم بدأ ذلك الوميض يتسارع ويتسارع، حتى توقف فجأة، واختفى. حينها فتح جسد ليان عينيه على اتساعهما، وحدّق إلى الفراغ أمامه بنظرة شريرة لم يعرفها هذا الجسد من قبل، قبل أن تهمس شفتاه بنبرة لا تعرف الاستسلام:

- سأنقّب عن الكود بنفسي.

(19)

دخل نزار إلى نسخة وعي ليان، فبدا له الوعي كبحرٍ عميق لا قاع له. في البداية لم يرَ سوى ضبابٍ كثيف، أصوات مشوشة وألوان باهتة تختلط ببعضها، ثم بدأت الصورة تتكوّن شيئًا فشيئًا. فرأى سقفًا منخفضًا تتدلى منه مصابيح بيضاء ناعمة الإضاءة، وأجهزةً كثيرة تصدر طنينًا متواصلًا، وظلالًا تتحرك ببطء. كان المكان معمل السيد «كرم» الذي يعرفه جيدًا، لكنه بدا أمامه كما رأته عينا طفلة في عامها الثاني: كل شيء أكبر من حجمه، والأشخاص بلا تفاصيل واضحة، مجرد كتلٍ متحركة تصدر أصواتًا لا معنى لها.

في زاوية المعمل وقف الروبوت المنزلي «لينو» الذي كان والد ليان يعتمد عليه كثيرًا، يراقب الطفلة، ثم اقترب منها، ومدَّ ذراعيه المعدنيتين ليحملها. في وعي الطفلة بدا الروبوت جسمًا لامعًا يصدر همهمات وومضاتٍ مألوفة، ومع اقترابه، تبدَّل الجو في الوعي. إذ انخفضت ذبذبات الخوف والارتباك، وارتفعت مؤشرات السعادة والطمأنينة، وكأن عقلها الصغير سجَّل حضوره كشيءٍ آمن يبعث على الراحة.

ثم تحوَّل المشهد فجأة إلى جدارٍ طويل، رصدته عينا الطفلة كما لو كان مجرد مستطيل ممتد تعلوه بقعٌ وألوان، لكن حين ركَّز نزار النظر عبر بصرها، ظهرت التفاصيل: صفٌّ من الصور القديمة المعلَّقة بعناية، صور جنبًا إلى جنب. وجوه بشرية جامدة التقطتها كاميرا المعمل يومًا ما.

تجمّد في مكانه، إذ تعرف عليهم فورًا، إنهم المتطوعون السبعة لمشروع «المينتو». ومن بينهم صورته هو. صورته يوم دخل المعمل للمرة الأولى قبل أكثر من عشرين عامًا؛ شاب في أوائل العشرينيات، بوجهٍ يافع وعينين تلمعان بالحماس، وشَعرٍ أسود كثيف ينسدل فوق جبهته.

واصل التحديق، فإذا بالجدار يتحول شيئًا فشيئًا إلى أرشيف كامل صنعه والد ليان بعناية. لكل متطوع سجلٌ كبير من الصور التُقطت قبل وبعد قدومه إلى المعمل. ملامحه في أثناء التجارب، ابتساماته المتوترة في أثناء النقاش مع أحد العاملين في المعمل، وقفاته الشاردة أمام الأجهزة الكبيرة، والشاشات الطافية التي تعرض أرقامًا وبيانات.

تجاوز صور الستة الآخرين وبحث عن صوره؛ فرأى نفسه يقف أمام روبوت يرتدي معطفًا أبيض، بدا أنه يشرح له كيف سيحقن الشريحة في مؤخرة رقبته، تجاوز تلك الصورة إلى صور أخرى كثيرة داخل المعمل، حتى توقف أمام صورة التُقطت خارج المعمل، كان يجلس فيها إلى جوار فتاة رقيقة القسمات، في عينيها دفء واضح لم يستطع تجاهله، انتقل بعدها إلى صورة أخرى وجد نفسه فيها مع الفتاة نفسها وهو يعزف على آلة التشيلّو، أصابعه على الأوتار، ورأسه مائل في تركيزٍ شديد، كأنه غارق في اللحن الذي يعزفه، حينها ارتجف للحظة وشعر بارتباكٍ لم يشعر بمثله منذ زمنٍ طويل، وكاد يتحرك إلى الصورة التالية، لكنه تمالك نفسه وأدار وجهه عن الصور بسرعة، إذ فهم طبيعة الحيلة؛ هذه الصور ليست ذكرى عابرة في وعي الطفلة، بل فخ، طبقة تشويش بناها الأب ليُربك وعي أي مينتو يحاول التوغل في وعي ابنته. فكلما تعمق المخترِق اندفعت نحوه صور ومشاهد تستدعي داخله شيئًا بشريًا حاول أن ينساه من متطوعه الأصلي، وقد نجحت تلك الحيلة في إرباك المينتو السابق الذي ولج إلى هذه النسخة من الوعي. فضاع وسط تلك الذكريات،

ولم يصل إلى الكود. لكن نزار كان مختلفًا. صحيح أن الصور أثارت فيه ارتجاجًا داخليًا للحظة، لكن وعيه الصناعي كان أصلب من أن يُستدرج. تجاهل الصور، واندفع أعمق في الوعي، مصمِّمًا على متابعة التنقيب. حينئذٍ، تلاشى المعمل من حوله، لتظهر مكانه جدران باهتة ذات نوافذ عالية، وأصوات أطفال، وخطوات مربيّات. هذه هي دار الرعاية.

رأى الروبوت «لينو» يضع الصغيرة بين يدي مربية هادئة الملامح، قبل أن يراه يسقط عند بوابة الدار ككتلة جامدة بلا صوت أو وميض، وكأن مهمته انتهت بتوصيل الطفلة إلى دار الرعاية، فهمس إلى نفسه: «أرسلها والدها إلى دار الرعاية مع الروبوت المنزلي!».

بعد ذلك، توالت اللقطات داخل الوعي: أسرّة مصطفّة بأغطيةٍ ملوّنة، ألعاب صغيرة متناثرة على الأرض، وجوه أطفالٍ يركضون ويضحكون، نافذة يدخل منها ضوء الشمس.

كان نزار ينظر إلى كل ذلك بعين المحلّل لا بعين المشاهد. بالنسبة إليه، لم تكن تلك اللقطات مجرد ذكريات، بل ملفات مضغوطة يجب فكّها واحدًا تلو الآخر بحثًا عن أي خيطٍ يقوده للكود. فأخذ يحلّل الألوان والأصوات بعناية، يتفحص تتابع المشاهد، يحدّد ما يتكرر وما يبهت، لعله يجد طريقًا واضحًا يسلكه وسط تلك المتاهة.

لكن الصور لم تتوقف عند الطفولة المبكرة. تدريجيًا بدأ يرى ليان تكبر أمام عينيه. في التاسعة من عمرها تقريبًا، ظهرت بجانبها طفلة أخرى أصغر سنًّا، مرام. كانت تمسك بيدها وتضحك معها في ساحة صغيرة داخل الدار. كان واضحًا من تكرار المشاهد أن العلاقة بينهما تحولت إلى صداقة قوية، وذكريات يومية متواصلة من اللعب، والبوح، والمشاركة.

ثم ظهرت لقطة مختلفة: قطٌّ رمادي من سلالة الشارتروه النادرة. فرحت به ليان فرحًا طفوليًا شديدًا. وفي لقطات أخرى رأى كيف كانت

تطعمه، وتنظّف له مكانه، وتحمله بالقرب من صدرها كأنه صديقها المقرّب. لكنه مرض وهزل. هنا دخل يحيى، المتدرّب البيطري الذي وعدها بفعل كل ما في وسعه لإنقاذه، لكنه فشل، ومات القط. فترك ذلك حزنًا ثقيلًا في قلبها.

تحول المشهد بعد ذلك إلى أريكة خشبية في حديقة الدار. لبان ويحيى يجلسان عليها جنبًا إلى جنب. هي تنظر إلى الأرض في خجل، وهو صامتٌ لا يقول شيئًا، ثم تمد يدها المرتجفة وتلمس يده لمسة خفيفة. عند تلك اللمسة ارتجّ كل شيء حول نزار. كأن صداها تسرّب إلى أعماقه هو نفسه، ولامس موضعًا كان يظنه مطموسًا. فتوقف لبرهة، كأن وعيه الصناعي قد تلعثم، لكنه سرعان ما أدار ذهنه بصرامة وحاول كبح هذا الاضطراب.

بعدها عبر نزار عدّة طبقات من الذكريات حتى انفتحت أمامه فجأة مشاهد مضطربة، تداخلت فيها وجوه وأصوات وألوان مشوّشة. توقّف للحظة، ثم بدأت الصورة تتكوّن أمامه: ممر مستشفى، أضواء بيضاء ساطعة، وأصوات خطوات متعجّلة، لبان تركض وعيناها غارقتان بالدموع، حتى توقفت عندما رأت على سريرٍ في غرفة جانبية جسدًا تعرفه: يحيى. وضمادة بيضاء تلفُّ رقبته. الممرضون يهمسون لها أنه تعرّض لحادثٍ وأن الأدوية قد تجعله يتصرّف بغرابة. انحنت نحوه والدموع تتساقط على وجنتيها، وتطمئنه أنه سيكون بخير.

لكن نزار بعينيه الصناعيتين رأى ما لم تره هي حينها، ذلك الفرد الخبيث في عيني ذلك الجسد لم يكن يخصُّ يحيى. كان الوعي المسيطر وعيًا آخر، دخيلًا، يتقن دوره بمهارة. مدّ يده المرتعشة، وتمتم بكلمات ضعيفة عن حاجته إلى مكان آمن بعيدًا عن المستشفى. صدّقته وأسندته، لترافقه.

انزلق المشهد فجأة إلى شقة صغيرة شبه مظلمة. وحينها، لم يعد ذلك الجسد ضعيفًا مريضًا، بل صار مفترسًا. دفعها بعنف إلى الداخل. ارتجفت ذاكرتها كلها: الجدران القاتمة، النافذة المسدلة، خطواته الثقيلة وهو يقترب، يده تحاول إحكام قبضتها على جسدها.

صرخت. قاومت. لم تصدِّق أن ملامح يحيى التي تحبها قد صارت قناعًا لمستأجر خسيس. حاولت التملص، وحين نجحت، قبضت يدها على سكين صغير فوق الطاولة، وغرزته في وجهه. اهتز المشهد لحظة بوميض دموي، لكنه لم يسقط. لم يتوقف. لأن الجسد لم يكن جسده.

تتابعت الصور بعنف. مطاردة قصيرة في الشقة الضيقة. خطوات مضطربة. ثم دخولها غرفة جانبية. هناك، في الزاوية، جسد آخر مسجًى على كرسي: الجسد الأصلي للمستأجر، ساكن، خامل. ركضت إليه، وأحاطت عنقه بذراعها، والسكين في يدها ترتجف. صرخت:

- «سأذبحه إن لم تتركني أمضي».

تردَّد الصدى كزئير مكتوم في أرجاء الوعي. ومعه أحسَّ نزار بجدِّية التهديد، وبالإصرار في عينيها. لكن المستأجر اقترب متحديًا، ظانًّا أنها لا تملك الجرأة. فغرزت السكين بكل ما لديها من قوة في عين جسده الساكن.

ارتجَّ المشهد كله بصرخة مدوية. الدم انفجر من محجر عينه، والمستأجر سقط يتلوَّى، يبكي ويصرخ. بينما واصلت ليان تهديدها، وسكينها مرفوع، بأنها ستفقأ العين الأخرى إن لم يدعها تخرج. فانفتح الطريق أمامها وهربت.

توقف نزار للحظة، كأنه يلتقط أنفاسًا لم يعرفها يومًا. ثم تدحرجت الذاكرة إلى قاعة محكمة؛ قاضٍ يقرأ، محامون، ومقاعد متراصة عليها وجوهٌ تراقب. ليان تقف بثياب بسيطة، ووجهها شاحب. دخل يحيى. كان يُفترض أن يشهد بالحقيقة: أن جسده استُؤجر، وأن ليان دافعت

عن نفسها. لكنه حين سأله القاضي، أنكر أمام الجميع أن جسده كان مستأجرًا تلك الليلة. قال إن ما تقوله ليان غير صحيح. سقط قلبها. ارتجفت ركبتاها. برودةٌ سريعة اجتاحت أطرافها ثم صعدت إلى صدرها.

القاضي نطق بالحكم: السجن ثلاث سنوات بتهمة إحداث عاهة مستديمة. تعالت الهمهمات في القاعة. فيما تجمدت ليان مكانها وهي تنظر إلى يحيى بعينين مذهولتين: هل خانها حقًّا أم أنها عالقة في كابوس ستستيقظ منه لتجد أن كل ذلك غير حقيقي؟ الحب انقلب في صدرها إلى شيءٍ مشوش، نصفه ألم ونصفه غضب. لم تعد تميِّز هل تحبه أم تكرهه من أعماق قلبها.

انتقلت الذاكرة بعد ذلك إلى حياتها الافتراضية في السجن الرقمي. ليالٍ طويلة، جدران بلا ملامح، سريرٌ معدني، نافذة عالية لا يصل إليها إلا ضوء شحيح. كانت ليان تقف وحدها وتحدِّق إلى العتمة. مرة تتخيَّل يحيى يمدُّ يده إليها معتذرًا، فتختنق. ومرة تراه يدير ظهره، فتغضب. حبٌّ وكره يتصارعان داخلها بلا نهاية. وكلما حاولت أن تُغلق قلبها انفتح من جهة أخرى. وكلما حاولت أن تغفر، اشتعل السؤال: «لماذا أنكر؟ لماذا تخلى عني؟».

هنا توقف نزار قليلًا، وقد بدأ يفهم كيف عزَّز السيد «كرم» وهي ابنته بتقوية مشاعرها عبر شريحة الكريمن التي زرعها في جسدها: يبدأ بالدفء ليُبطئ المخترِق، ثم يُسقطه في الألم ليُثقله. إن لم يضِع في الأول، غرق في الثاني. فقال لنفسه بصرامة: «لن أغرق. لن أتوقَّف». ثم مرّر يده الافتراضية بعنف عبر الفضاء المحيط به، فتحولت الذكريات حوله إلى طبقاتٍ تشبه شرائح الزجاج.

بدأ بالطبقة الأولى. كانت مليئة بصور الطفولة: أصوات المربيات، صرخات الأطفال، ضوء الغرفة الأصفر. لم يجد شيئًا مهمًّا. فحطَّمها بيده. فتبعثر زجاجها في الفراغ كاشفًا عن طبقة أخرى أعمق.

دخل الطبقة الثانية، فوجد مشهدًا متكررًا: مرام تضحك مع ليان، تتحدثان معًا في ركنٍ مهجور من الدار. كانت الذاكرة تريد أن تُعزّز معنى الصداقة، لكن نزار لم يهتم. وحلَّل المشهد على هيئة بيانات: أنماط صوتية، ترددات، نبضات عصبية. محاولًا أن يجد بينها رمزًا، أو إشارة غير طبيعية تركها والد ليان. لكنه لم يجد سوى نفَسٍ إنساني مزعج له. فمرَّر يده مزيحًا تلك الطبقة، فتلاشت واختفت.

ثم جاءت الطبقة الثالثة، وكانت أصعب. هنا ظهر القط: ليان تمسح على فروه، تبكي وهو يضعف بين يديها. كان ذلك المشهد أكثر صلابة، إذ أُحيط بخيوط متشابكة جعلت اختراقه صعبًا. حاول نزار كسره بكل قوته الحسابية، وبعد جهدٍ طويل انفتحت الطبقة ببطء، كأن بابًا صدئًا فُتح بالقوة.

انتقل بعدها إلى الطبقة الرابعة. كانت تلك الطبقة خاصة بيحيى وحده: صوته، محاولاته علاج القط، ثم تلك اللحظة التي بدأت فيها قصة حبهما. ثم أحلامهما المرسومة في دفترٍ ورقي، ثم محاولة مستأجر جسده الاعتداء عليها، ثم خيانته لها في المحكمة.

حاول نزار أن يطوي تلك الطبقة ليعبر إلى طبقة أعمق، لكن كلما حاول إزاحتها، ازدادت الذاكرة توهُّجًا. والتفَّت حوله مشاهد ليان المختلفة مع يحيى محاولةً اختراقه، خاصةً ذلك المشهد عند الأريكة الخشبية، حين مدَّت ليان يدها المرتجفة ولامست يد يحيى. لكنه لم يستسلم وأخذ يصدُّ تلك المشاهد بعنف، مذكرًا نفسه بأنه ليس إلا آلة، لا تملك أدنى ذرة من تلك المشاعر الإنسانية المقيتة، حتى نجح في النهاية في تجاوز تلك الطبقة، ليواصل الغوص إلى الطبقات الأعمق.

●●●

مرَّ الوقت ساعة بعد أخرى، ونزار يواصل التنقيب عن الكود في أعماق نسخة الوعي بلا توقف. في كل طبقة كان يستهلك جزءًا من

طاقته، لكنه سرعان ما كان يعيد لملمة نفسه بثبات. ومع بلوغ الساعة السادسة من التنقيب، شعر لأول مرة أنه لم يعد يدور في حلقة مفرغة. إذ لمح خيطًا رفيعًا، يلمع بعيدًا كالشعرة، مختلفًا عن كل ما رآه من قبل. فاقترب منه بحذر، ومدّ يده الافتراضية ولمسه. فاهتزّ الفضاء من حوله، كأن جدارًا قديمًا تحرّك بعد سنوات طويلة من السكون. ومع ذلك الاهتزاز بدأت الطبقة التي توجد أمامه تتشقق ببطء، حتى انفتحت عن ممرٍّ ضيق يغمره ضوء أزرق خافت. فتقدم إلى داخله.

في نهاية الممرّ ظهر صندوق معدني في حجم كف اليد، يطفو في فراغٍ هادئ، بينما يلمع سطحه بوميض خافت، تتوسطه دائرة دقيقة بدت كعدسةٍ مخصصة لبصمة القزحية. فأدرك نزار فورًا أنه النسخة الذهنية للخزينة الحقيقية التي عثر عليها في ضاحية الغبار.

وفجأة، ظهر والد ليان كطيفٍ واضح الملامح أمام الصندوق. لم ينظر إلى نزار، بل التفت نحو الخزينة وقال بصوت خافت حازم، كأنه يتحدث إلى وعي ابنته:

- تسعة..

فأضاء سطح الصندوق، وظهر الرقم «9» بخيطٍ ضوئي لامع.

حبس نزار أنفاسه في انتظار الرقم التالي، فعاد صوت الأب:

- سبعة..

فأشرق الرقم «7» بجوار الرقم «9».

شعر نزار برجفة كهربائية خفيفة تسري في وعيه الصناعي. لم يكن هذا هو الكود كله، فالكود مكوّن من ثمانية أرقام، لكنها ليست إلا لحظات ويحصل عليه. لكن فجأة، دوّى صوت إطلاق نار متواصل لم يكن من وعي ليان، بل من الخارج. ومع ذلك الصخب اهتزّ الممرّ وتشققت جدرانه كالزجاج المتصدّع. وفي اللحظة نفسها ارتجّ الصندوق

وتطفأت الأرقام على سطحه، فيما تبدّد طيف الأب في الفضاء، كدخانٍ خفيف تلاشى شيئًا فشيئًا. فصرخ نزار بغضب:

- لا، ليس الآن.

ثم اندفع نحو الصندوق محاولًا الإمساك به، لكن كل شيء حوله انهار دفعة واحدة، وسُحب من الوعي كمن يُسحب من قاع البحر إلى سطحه فجأة.

فتح عينيه على الواقع، والغضب يشتعل على وجهه. كان صوت الرصاص لا يزال يمزّق الهواء في الخارج. في تلك اللحظة، انفتح باب البيت، ودخل رجل بملامح عادية لا تلفت النظر، لكن نزار عرفه من بريق عينيه، إنه المينتو الذي كان يسكن جسد ليان قبله، ذاك الذي فشل في استخراج الكود، وقد استولى الآن على جسد جديد من رجال الضاحية.

اقترب الرجل منه وقال بارتباك:

- سيدي، نجلاء تحاصر الروبوتات عند الممر بين الجبلين، وبدأت في إحراقها.

زمجر نزار وهو يضغط أسنانه، بعدما تسبب دوي إطلاق النار في تشتيت وعيه وضياع الكود منه في اللحظات الأخيرة:

- البشر الأغبياء.

ثم ضغط زرٌ قلادته، فاستعاد جسد المسؤول الذي جاء به إلى الضاحية، بينما سقط جسد ليان ساكنًا على الأرض. وهمّ ليغادر البيت، كي ينقذ ما تبقى من روبوتاته، لكن ما إن تجاوز عتبة الباب حتى وجد نجلاء ورجالها يحاصرون البيت، وبنادقهم مُصوّبة نحو رأسه.

(20)

توقّف نزار، والغضب يشتعل على وجهه، فيما تقدّمت نحوه نجلاء بنيهما موسى. وما إن صارت على بُعد خطوة منه حتى صاحت فيه:

- أجئتَ لتحتل الضاحية؟!

فأجابها بثبات، وعيناه لا ترمشان:

- وهل كنتُ سأترك الروبوتات عند الجبلين إن كانت نيّتي احتلالها؟

قالت باستياء:

- إذن، لماذا أحضرت كل هذا العدد من الروبوتات دون أن تخبرني مسبقًا؟

فردّ بعصبية:

- لأن الأمر طارئ.

ثم نظر إلى الرجال الذين يطوّقون البيت وقال:

- لقد كُشف أمر ثورتنا القادمة، وربما تجدين الشرطة هنا في أي وقت.

امتقن وجه نجلاء في الحال، فيما أردف نزار:

- لذا جئتُ بهذه الروبوتات لتسريع مشروعنا. لقد وعدتكِ بالانتقام ممن قتلوا أمك بوحشية، وما زلتُ عند وعدي. لكنّي الآن بحاجة ماسّة إلى مساعدتك.

نظرت نجلاء نظرة مطولة نحو شجرة التوت، وكأنها تفكر مليًا في القرار الذي تنوي اتخاذه، ثم عادت ببصرها إليه، وقالت:

- كيف أساعدك؟

قال:

- الروبوتات التي أتت إلى الضاحية تحت سيطرتي الكاملة. أوقفي فورًا تدمير أيٍّ منها. إن لها مهمّة دقيقة في مشروعنا، سأخبرك بتفاصيلها الآن.

قالت بتحدٍّ:

- لن أتركها عند مدخل ضاحيتي.

ردَّ:

- ماذا تريدين إذن؟

قالت:

- هناك أبنية قديمة شمال الضاحية. سأحبسها هناك.

قال نزار:

- كما تريدين، لكن توقّفي عن تدمير أيٍّ واحد منها.

أومأت برأسها، ثم أشارت إلى موسى. فأومأ بدوره، وأمر أحد رجاله بأن يوقفوا تدمير الروبوتات وأن يقتادوها إلى الأبنية القديمة في شمال الضاحية. لكن قبل أن يتحرك الرجل لإبلاغ الباقين بأوامر نجلاء وموسى قال نزار:

- هناك روبوت واحد أحتاجه. سأشرح لكما من خلاله كل شيء.

ثم ضغط زر قلادته وأدخل أوامر سريعة إلى الشاشة التي ظهرت على معصمه، قبل أن يقول لموسى:

- سيطلق الروبوت لرجالك عن نفسه، فلتجعلهم يتركوه يأتي إلى هنا.

وافق موسى بعد نظرة إلى نجلاء، وأمر رجله بترك ذلك الروبوت يمضي إليهم. بعدها تقدموا جميعًا إلى داخل البيت. وحين وقعت عينا نجلاء على جسد ليان الممدَّد على الأرض، تساءلت بتعجب:

- ماذا أصابها؟

قال نزار ببرود:

- هذا الجسد هو سبيلنا للسيطرة على المدينة وضواحيها. لقد ساعدتكِ طوال السنوات الماضية في فرض نفوذكِ على الضاحية، ووفَّرتُ لرجالكِ السلاح والحماية. لكن كل ذلك كان في انتظار أن أعثر على هذه الفتاة. وحين عثرتُ عليها أحضرتها إلى هنا. ليس لأن هذا المكان آمن من الشرطة فحسب، بل لأن مهد مشروعنا بدأ من هذا المكان قبل أكثر من عشرين عامًا.

ثم أردف:

- لقد طلبتُ منكِ في وقت سابق أن ترسلي رجالك إلى فروع تطبيق جسد في المدينة ليزرعوا شريحتهم كي أغنِّيهم بقوة عقلية يستطيعون بها التغلب على أي شخص لا يملك ما أملكه.

أومأت إيجابًا كأنها تتفق معه، فتابع دون أن يذكر أي شيء عن نيته في السيطرة على أدمغتهم ومحوها تمامًا:

- لكن لم يعد هناك حاجة لإرسالهم إلى هناك مرة أخرى، لقد جلبتُ الروبوتات معي لتزرع لهم شرائح التطبيق هنا في قلب الضاحية، إن الروبوتات مجهزة بأدوات زرع مثالية ومُبرمجة على الطريقة نفسها التي تستخدمها روبوتات فروع التطبيق، بل وفي وقتٍ

قياسي، فالروبوت الواحد قادر على زرع الشريحة في أقل من دقيقتين.

ثم صمت للحظة وأكمل:

- لقد استوليت على ثلاثين ألف شريحة من تطبيق جسد جاهزة للزراعة. ومع قدرات تلك الروبوتات ستزرع تلك الشرائح جميعها في يوم واحد. وبعدها أستطيع أن أعدك بأنك ستملكين جيشًا من العقول الجبارة التي ستكون بضغطة زر مني تحت سيطرتك تمامًا.

فقالت نجلاء بتبرم:

- لقد وعدتني بأشياء كثيرة منذ سنوات! ولم يحدث شيء.

قال ببرود:

- أعطِني يومين فقط. وإن لم أنفِّذ وعدي، سأغادر تاركًا لك الروبوتات تفعلين بها ما تشائين.

في تلك اللحظة، دخل الروبوت الذي أشار إليه نزار مسبقًا برفقة رجلين من رجال نجلاء، كان ضخمًا، مصقول المعدن، عيناه تومضان بوميض أزرق باهت. فأشارت نجلاء للرجلين أن يتركاه ويعودا أدراجهما ويغلقا الباب من خلفهما، فقال نزار:

- هذا هو قائد الروبوتات. سيكون تحت أمرك من الآن.

ركع الروبوت أمامها في خضوع، ثم نهض واتجه إلى موسى وركع أمامه أيضًا. فضحك موسى ساخرًا، ثم مد يده ليلامس رأسه المعدني. لكن فجأة، باغته الروبوت بأن قبض على ذراعه بقوة، ثم جذبه نحوه وأطبق على فقرات عنقه حتى تحطَّمت بصوتٍ مروِّع، ليسقط موسى جثة هامدة على الأرض. وقبل أن ترفع نجلاء سلاحها، كان نزار قد انقضَّ عليها، وكمَّم فمها وأحكم قبضته على ذراعيها.

بعدها، تقدّم الروبوت إليها، ورفع كفّه المعدنية أمام وجهها، ليطلق منها رذاذًا عديم اللون، ما إن استنشقته نجلاء حتى انقلبت عيناها للأعلى وفقدت وعيها تمامًا.

حينها قال نزار بصرامة:

- أمامك دقيقتان لزرع الشريحة.

أومأ الروبوت إيجابًا، ثم قلب جسد نجلاء على بطنها. قبل أن تنبثق من صدره أداة جراحية دقيقة تشبه إبرة طويلة، فيما ظهرت أمامه شاشة ظالية تعرض تشريحًا ثلاثي الأبعاد للرقبة. ومع تحريك إصبعه المعدنية على الشاشة تحرّكت الأداة نحو الرقبة، لتفتح شقًّا صغيرًا في مؤخرتها، وتتعمق في طبقاتها واحدة تلو الأخرى، حتى وصلت إلى الحبل الشوكي.

بعد ذلك، تابع الروبوت إدخال الأوامر إلى الشاشة بسرعة رهيبة، حتى نطق بعد أقل من دقيقة، وعيناه تتابعان البيانات على الشاشة:

- تم زرع الشريحة بنجاح. هوية جسد المستخدم: 37406176543

ضغط نزار زرّ قلادته البيضاوية، ثم تحدث إلى الميتنتو الآخر الذي كان يسكن جسد رجل الضاحية:

- يمكنك الولوج إلى جسد نجلاء الآن، سأرسل لك رقم هويتها.

بعد لحظات، شهق جسد نجلاء فجأة، ثم بدأت مؤخرة رقبتها تومض بوميض أحمر، أخذ يتسارع ويتسارع حتى اختفى تمامًا.

بعدها، فتح الجسد عينيه، وبحركة واحدة نهض من رقدته، ليقف أمام نزار، ويقول:

- تحت أمرك سيدي.

فقال نزار:

- لتحكم قبضتك على الضاحية، حتى أعثر على الكود. أريد أن تُزرع كل شرائح التطبيق التي أحضرناها في رقاب السكان هنا.

هزّت رأسها موافقة، ثم نادت بصوتٍ غاضب رجالها المنتظرين أمام الباب، وحين دخلوا إليها، نظرت إلى جثة موسى، وقالت:

- ادفنوا هذا الحقير بعيدًا. لا يعارضني أحد حتى لو كان أقرب الناس لي.

ونظرت إلى الروبوت، وأردفت:

- وضعوا هذا الروبوت مع الآخرين في أبنية الشمال.

أومأ الرجال في صدمة وهم ينظرون إلى جثة موسى، ثم حملوا الجثة إلى الخارج. واقتادوا الروبوت معهم، فيما سارت بجوارهم بكل ثقة وثبات، قبل أن تلتفت إلى رجل من رجالها، وتقول:

- من الآن أنت مساعدي الأول.

فانحنى إليها في طاعة. حينذاك أغلق نزار باب البيت، ثم نظر إلى جسد ليان، وتنفّس بعمق، ثم ضغط زر قلادته، وولج إلى تطبيق جسد ثم أغمض عينيه، مستعدًا للغوص مجددًا في وعيها. لكن حين عاد إلى أعماق الوعي مرة أخرى وجد الممر الأزرق الذي عثر عليه سابقًا قد اختفى كليًا، وكأنه لم يكن، فتمتم إلى نفسه:

- أعادت نسخة الوعي تشكيل متاهتها من جديد!

وبهدوء كبير بدأ ينقب مجددًا بين الطبقات، إذ ظهرت أمامه أول طبقة: مشهد طفولي بسيط، ليان صغيرة تحبو في حديقة البيت بالقرب من شجرة التوت. الأرض تحت يديها وقدميها كانت طينية رخوة فجأة غاصت أطرافها في الوحل، وتجمدت مكانها، غير قادرة على الحركة، ففهم أنها حيلة من الوعي لإبطاء تقدمه. ورفع يده الافتراضية

ومزّق المشهد من حوله ببرود، فانفجرت الحديقة إلى شظايا زجاجية، تطايرت في الفراغ حوله.

تعمق أكثر، فوجد نفسه في فراغ أسود واسع، سرعان ما امتلأ بمجسمات دخانية تشبه أجسامًا بشرية. كل جسد له وجه ليان، لكن بملامح مختلفة: غاضبة، حزينة، باكية، مبتسمة، مترصدة. كانوا يحيطون به من كل الجهات، ويقتربون ببطء كأنهم يطالبونه بالرحيل. حاول أن يمر من بينهم، لكن كل وجه كان يلتصق به، ويمتص قدرًا من طاقته. حتى خارت قواه وسقط جسده الافتراضي منهكًا، لكن قبل أن تتجمع الأجساد فوقه لتمتص ما تبقى من طاقته، مدّ يده بضعف إلى شاشة معصمه، وفعّل أحد برامج الحماية في وعيه الصناعي، فانبعثت من جسده الافتراضي هالة ساطعة، اندفعت نحو الأجساد. فبددتها واحدًا تلو الآخر، تاركة وراءها دخانًا باهتًا أخذ يتلاشى في الفراغ.

نهض من رقدته بعدما استعاد طاقته، وتعمق أكثر، فوجد نفسه في قاعة الدراسة بدار الرعاية، الأطفال يضحكون ويلعبون، بينهم ليان جالسة في مقعدها. لكن الأصوات بدت مشوشة، كأنها تسجيلات تالفة. فجأة، بدأ الأطفال يقذفون أقلامهم نحوه، فتحولت في لحظة إلى شظايا معدنية انغرزت في جلده الافتراضي. فشعر بألم مفاجئ، لم يكن يتوقعه. فتمتم غاضبًا:

- يحمي الوعي نفسه بإحداث الألم للمخترق!

وبحركة واحدة من يده، مزّق القاعة بأكملها، فاختفت في الحال. وواصل التعمق في الوعي، لكنه كلما عبر طبقة جديدة أصبحت الدفاعات أكثر شراسة: المشاهد الوديعة التي رآها من قبل تحولت إلى وحوش تنهش جسده الافتراضي، والأصوات صارت سكاكين تمزق جلده بلا رحمة، والذكريات الجانبية تحولت إلى متاهات تستنزف طاقته. ومع ذلك، واصل التقدم.

***

بعد جهد طويل، لمح من بعيد شرارة صغيرة تلمع وسط الظلام كانت تلك الشرارة تتحرك باضطراب، تختفي وتظهر من جديد، وكأن الوعي نفسه يحاول أن يخفيها عنه. فاندفع نحوها داخل الفراغ، حتى أمسك بها في اللحظة التي كانت تختفي فيها للأبد.

فجأة، تحولت الشرارة إلى وميض أزرق خافت، امتد نحو الجدار أمامه، فانشق الجدار ببطء، ليكشف عن ممر طويل ضيق يضيئه الضوء الأزرق نفسه، فانفرجت أساريره، وهمس:

- الممر نفسه الذي عثرتُ عليه من قبل.

ثم ركض نحوه قبل أن يختفي، وما إن بلغ منتصفه حتى أبصر في نهايته الصندوق المعدني الصغير طافيًا في الهواء، فانفرجت أساريره أكثر، وواصل الركض تجاهه، لكن قبل أن يصل إليه انبثق من العدم فجأة الروبوت المنزلي «لينو»، ليقف أمامه في منتصف الطريق، لم يكن مظهره وديعًا كما كان في ذاكرة الطفولة، بل بدا في تلك المرة كحارس حديدي مخيف، عيناه حمراوان كجمرتين، توحيان بأنه لن يسمح له أبدًا بالعبور.

هجم نزار عليه بجسده الافتراضي، لكن قبضتَي الروبوت ردتاه بضربة مباشرة، فتطاير الشرر من حولهما، وسقط نزار موضعه متألمًا لكنه سرعان ما نهض بعينين تشتعلان إصرارًا، ثم ركض نحوه مرة أخرى ولكمه في رأسه الفولاذي، غير أن لينو رد بضربة جعلته يتراجع عدة أمتار إلى الوراء. زأر نزار في داخله، وعاد يهاجم من جديد، يضربه بيديه الافتراضيتين، لكن كل ضربة كانت ترتد وكأنها تضرب صخرة صلبة، حتى ركله الروبوت بقدمه، فتدحرج متقهقرًا إلى الوراء مرة أخرى.

فجأة، اختفى الروبوت، فظن نزار أنه تخلص منه، لكن قبل أن ينهض من رقدته فوجئ بالروبوت يعود أكثر ضخامة وبأسًا، وبعينين تتوهجان أكثر من قبل، بل وبدأ يتقدم نحوه ضاربًا الأرض بقدميه كأنه عزم على

القضاء عليه. عندها، أدرك نزار أن القوة وحدها لن تجدي، فأغمض عينيه، وركز وعيه ليغوص داخل الروبوت نفسه. فرأى شبكة معقدة من الأوامر والخيوط الرقمية، التي تجعله يقاتل بلا توقف دفاعًا عن وعي الظلام. فأخذ نزار يقطّع تلك الخيوط بسرعة، وما لم يستطع قطعه دسّ فيه فيروسات خبيثة أفسدته. فبدأ الروبوت يهتز وهو يقبض على عنقه الافتراضي، وبدأت قوته تتلاشى تدريجيًا. حتى انطفأت عيناه وسقط إلى الأرض كهيكل فارغ.

نظر نزار نحوه وهو يلهث، ثم التفت إلى الصندوق حيث ظهر طيف الأب من جديد، فارتسمت على وجهه ابتسامة متعبة وهو يرى الأب يملي الأرقام بصوت ثابت، بينما تظهر الأرقام تباعًا بخطٍّ مضيء على سطح الصندوق:

- 9

7

2

9

5

1

4

6

بعدما فُتح الصندوق كاشفًا عن شريحةٍ ذهبيةٍ بيضاوية الشكل ذات بريقٍ أخّاذ، فسرَت في وعي نزار رجفةُ انتشاءٍ لم يعرف مثلها من قبل، ثم انسحب من وعي ليان، ليفتح جسدُها عينيه، وشفتاه تهمسان بابتسامة انتصار:

- 97295146

(21)

لم يمض ليحيى جفن منذ اللحظة التي اشتعلت فيها الأخبار حول لبان. ومع انتشار خبر ذلك القطار الغريب الذي ظهر فجأة على رصيف محطة حيّ الماسة في اتجاه حيّ المروج، وإيقاف جميع القطارات التي كانت تسلك المسار نفسه في ذلك التوقيت، أدرك أن نزار قد بدأ تنفيذ خطة ما في ضاحية الغبار.

قالت فريدة التي كانت تجلس معه في ردهة بيت جدّه بقرية الصلصالة وهي تخترق كاميرات محطة قطار حيّ الماسة:

- الآن سنعرف أخيرًا من هو نزار.

ثم قرّبت الكاميرا من وجه السيد الذي تقدّم أمام مساعديه ليستقبل القطار بمفرده. فتمتم يحيى:

- السيد «فادي الفلالي»، أحد أبرز رجالات السلطة في البلاد!

ثم أردف باضطراب:

- أن يوقف حركة القطارات ليصعد وحده إلى هذا القطار، وهو يعلم أن الأخبار عن سوء استعماله السلطة بهذه الطريقة ستنتشر كالنار في الهشيم، ليس سوى رسالة صريحة للجميع: لقد قرر أن يكشف أوراقه على الملأ. وكأنه يقول إما أن أبلغ مشروعي، وإما تكون نهايتي.

هزّت فريدة رأسها موافقة:

- نعم، لن تترك الدولة هذا الأمر يمرُّ مرور الكرام. سيُجرى تحقيقٌ كبير لمعرفة سبب إعطاء الأوامر بتعطيل حركة القطارات، وما الذي يحمله هذا القطار الغريب.

ثم انتقلت إلى كاميرات محطة حيّ المروج، وأردفت بعد دقائق من البحث فيها:

- وصل القطار إلى حيّ المروج بالفعل، لكنهم لم يجدوا داخله سوى روبوت سائق مُعطل ذاتيًا، وكأن مهمته انتهت بتوصيل القطار إلى تلك المحطة.

فقال يحيى:

- لا بد أن نزار نزل في ضاحية الغبار. ومع عدم إمكانية رؤية ما يحدث هناك، لن نعرف أبدًا ماذا نقل ذلك الرجل إلى الضاحية.

في تلك الأثناء، تلقى يحيى اتصالًا مفاجئًا من نادر القصبي، محامي ليان. فاتسعت عيناه بدهشة، قبل أن تنفرج أساريره حين قال المحامي على الطرف الآخر من الخط:

- لقد ثبت تلاعب مشرف السجن بوعي ليان. وهناك اتجاه قوي للإفراج عنها خلال الساعات القادمة.

سأله يحيى بتوتر:

- هل أنت جاد، سيد «نادر»؟

أجابه:

- في منتهى الجدية. إنني هنا داخل السجن منذ ساعات، والعمل يجري على قدم وساق لترتيب إعادة محاكمة عاجلة للفتاة بعد ثبوت التلاعب في وعيها، إن مؤسسة الرئاسة تتابع القضية بصورة شخصية، وقد يُعلَن خبر براءة ليان للرأي العام في أي لحظة قادمة.

شكره يحيى بكل عبارات الشكر، ثم أغلق الخط، والتفت إلى فريدة، وقال بنبرة ربما كانت الأكثر سعادة منذ عرفها:

- قد يُفرَج عن ليان خلال ساعات.

لكنه سكت بعدها للحظة، وكأن شيئًا ما جال في ذهنه، قبل أن يردف بتخوف شديد:

- لكن نزار لن يعيد الجسد. كيف ستستعيد ليان حياتها خارج السجن؟

زمّت فريدة شفتيها، ثم قالت:

- أعتقد أنها المرة الأولى التي ستواجه الحكومة مثل هذا الأمر. خاصةً أن نزار أخرج جسد ليان من أنظمة المراقبة. لكن لائحة السجن المركزي تنصُّ على أن السجن مُلزَم بتوفير جسد بديل إذا فُقِد جسدٌ في أثناء الاستئجار، حتى تستعيد الشرطة ذلك الجسد.

فقال يحيى بلهجة قلقة:

- وماذا لو قتل نزار الجسد أو دمَّره؟

قالت بحزن:

- حينها، سيموت وعي ليان للأسف.

ثم أردفت سريعًا لتطمئنه:

- لكني لا أظن أنه سيؤذي الجسد قبل أن يحصل على الكود.

قال يحيى:

- لا يجب أن ننتظر. عليكِ أن تذهبي فورًا إلى الشرطة وتقدّمي لهم آخر تسجيلات تُظهر جسد ليان وهو يستقل القطار المتجه إلى ضاحية الغبار، لعلهم يتحركون لحماية الجسد قبل أن يؤذيه نزار. أمّا أنا فلا بد أن أعود إلى تلك الضاحية، لعلي أجد طريقة أنقذ بها الجسد إن لم يتحركوا.

ثم نظر إلى لوحها الذكي، وتابع:

- هل يمكنك الولوج إلى كاميرات شوارع حيِّ الماسة يوم عدتُ من ضاحية الغبار بالدراجة النارية؟ أريدك أن تعثري على الدراجة نفسها، لا بد أن الطريق الخفي المؤدي إلى مخرج النفق الذي هربتُ عبره لا يزال مُسجَّلًا في خرائطها.

هزَّت رأسها إيجابًا، وبدأت البحث، بينما جلس يحيى بجوارها يراقب الشاشة، حتى صاح حين عرضت الشاشة رجلًا يرتدي ثياب المشرَّدين، يقود دراجة نارية حديثة بأحد شوارع الحي:

- هذه هي!

كان ذلك الرجل هو المشرد النائم نفسه الذي أخذ يحيى قبَّعته كي يخفي بها وجهه عن كاميرات المراقبة، وحين تتبعت فريدة مساره عبر أكثر من كاميرا في الحي، أظهرت اللقطات أنه يتحرك بالدراجة بين الشوارع ثم يعود إلى النقطة التي بدأ منها، ثم يكرر الأمر، وكأنه يجرِّب لأول مرة متعة قيادة دراجة نارية كهذه. فقال يحيى:

- لا بد أن أعود لأحصل على هذه الدراجة. الوقت يداهمنا، ولا بد أن نسترجع الجسد.

قالت فريدة:

- حسنًا. وأنا سأقدِّم البلاغ للشرطة، وأتمنى أن يتحركوا إلى ضاحية الغبار فور صدور حكم البراءة، لاستعادة الجسد.

أومأ شاكرًا، ثم التقط مصباحًا يدويًا من على الجدار، وانطلق إلى الخارج.

●●●

حين وصل يحيى بسيارة جده إلى حي الماسة لم يجد المُشرَّد ولا الدراجة النارية في المكان الذي أظهرته الكاميرات، فتحرك ببطء

بالسيارة بحثًا عنه في الشوارع المجاورة. لكن بعد بحث طويل لم يعثر عليه. فعاد إلى النقطة الأولى التي بدأ من عندها البحث. وحاول الاتصال بفريدة كي تلج إلى لوحها وتخبره بموقع المشرّد الحالي. لكنها لم ترد على اتصالاته المتتالية. وحين ردّت في النهاية أخبرته أنها في قسم الشرطة. ولا تستطيع استخدام لوحها الذكي هناك كي لا يُكتشف اختراقها غير القانوني لنظام المراقبة. فجلس في سيارته ينتظر ظهور ذلك الرجل.

بعد ساعة ونصف. اتصلت به فريدة. وقالت:

- أعتذر عن التأخير. أستطيع الآن الدخول إلى النظام للبحث عن الرجل.

ثم ولجت إلى نظام المراقبة عبر لوحها الذكي. بينما بقي يحيى منتظرًا على الخط. وبعد دقيقتين تقريبًا. قالت:

- وجدتُه! إنه الآن في الجهة الأخرى من الحي. «شارع 16». يجلس على الأرض بجوار الدراجة النارية. أمام محلٍّ كبير للورود.

فأدار يحيى المحرك وانطلق على الفور باتجاه ذلك الشارع. ثم سألها وهو يتقدم بالسيارة:

- ماذا فعلتِ في قسم الشرطة؟

قالت:

- للأسف كما توقعنا. لا أحد يملك اتخاذ قرار الآن. جميع الضباط متمسكون بأن الجسد لا يزال مؤجّرًا رسميًا وفق لوائح السجن. ولن يستطيعوا التحرك للبحث عنه قبل صدور حكم البراءة. أمّا قبل ذلك. فالقانون يسمح للمستأجِر بأن يذهب بالجسد إلى أي مكان يريده.

فقال يحيى بغضب:

- إن حصل نزار على الكود لن يترك الجسد سليمًا.

فقالت:

- لم يصدّق أي ضابط قصة الكريمن والمينتو، وحين اتهمتُ في كلامي المسؤول الذي ظهر في الفيديوهات وهو يستقل القطار بمفرده بعدما تعطلت حركة القطارات الأخرى، وقلت إنه الشخص الذي يسيطر نزار على جسده، رفضوا تدوين أقوالي، بل وطالبوني بالمغادرة في الحال. لذا قررتُ أن أنتظر صدور حكم البراءة، وبمجرد أن يصدر، سأنشر على جميع وسائل التواصل الاجتماعي كل شيء: قصة مشروع المينتو، وفيديو جسد ليان المؤجَّر وهو يركب القطار المتجه إلى حي المروج بينما لا تومض رقبته بأي وميض، وفيديوهات المحطات التي تقع بين محطة وسط المدينة وحي المروج في أوقات وصول ذلك القطار إليها، وعدم نزول الجسد في أي محطة منها، لأثبت للجميع أن الجسد نزل في ضاحية الغبار. بعدها سأربط كل ذلك بجريمة التلاعب في وعي ليان، وفيديو استقلال نزار القطار الغريب وحيدًا بعد انتشار الأخبار عن براءتها، لأجعل الضغط الشعبي يجبر الجميع على التحرك لوقف مخططات نزار واستعادة جسد ليان.

فابتسم يحيى، وقال:

- يبدو أن فريدة التي كانت تخشى من فقدان وظيفتها إن اكتُشف أمر اختراقها لنظام المراقبة قد صارت شخصًا آخر الآن.

فقالت:

- نعم يا صديقي، تستطيع القول الآن إن فريدة التي كانت تخاف على وظيفتها قد ذهبت بلا رجعة، ولم يبقَ الآن إلا فريدة التي تخاف على مستقبل أهلها وبلدها.

فابتسم من جديد، وقال:

- سيصبح كل شيء على ما يرام إن شاء الله.

فقالت وهي تنظر إلى شاشة لوحها الذكي:

- أراه الآن على الشاشة. لا يزال المشرَّد الذي يحوز الدراجة النارية جالسًا على الأرض بجوارها، أمام محل الورود، على بعد مائتي متر على يمينك.

واصل يحيى التقدم حتى أبصر الدراجة النارية، فأوقف السيارة، ونزل نحو الرجل مسرعًا.

كان الرجل يأكل شطيرةً بتلذذ دون أن يدري بشيء من حوله. فقال له يحيى بنبرةٍ جادَّة:

- لقد تركتُ هذه الدراجة في الجهة الأخرى من الحيِّ قبل أيام.

رفع الرجل عينيه إليه ثم أكمل الأكل بلا اكتراث. فاقترب منه يحيى أكثر وقال:

- قلت لك، هذه دراجتي، وأريد استعادتها.

فقال الرجل ببرود بعد أن ابتلع اللقمة:

- بكم تشتريها؟

فارتبك يحيى وقال:

- إنها دراجتي!

فواصل الرجل أكل شطيرته، ثم نهض كأنه لا يأبه بحديثه. فصاح به يحيى:

- ألا تسمعني؟

غير أن الرجل ركب الدراجة النارية وأدار محركها، وبدا أنه يستعد للانطلاق، فأمسك يحيى بذراعه، وسأله مستسلمًا:

- حسنًا، كم تريد؟

فكّر الرجل قليلًا، ثم نطق:

- مائتا جنيه.

حينها، أدرك يحيى أن ذلك الرجل مختلٌّ ولا يدرك قيمة الأشياء. وعلى الفور أخرج من جيبه عملتين معدنيتين قيمة كل واحدة منهما مائة جنيه، وقدّمهما له، وهو يعلم أنهما بالكاد تكفيان لشراء شطيرة مثل التي كان يأكلها، لكن الرجل قال فجأة:

- لا أريد مالًا. أعطني شيئًا بقيمتها.

فنظر يحيى إلى ثيابه، كانت كلها أغلى من هذا الرقم. ومع ذلك قال له:

- أخبرني ماذا تريد مني وسأعطيه لك.

فالتفت الرجل إلى سيارة السيد عزيز، وأومأ إليها. فنطق يحيى بوجه مضطرب:

- لا! هذه ليست سيارتي!

زمّ الرجل شفتيه في خيبة أمل، ثم زمجر بالدراجة النارية. كأنه يريده أن يتحرك من أمامه كي ينطلق، فقال يحيى:

- حسنًا! حسنًا، خذها!

فأبعد الرجل يده عن مقود الدراجة، فهدأ صوتها، ثم نظر إلى يحيى في صمت، وأطال النظر كأنه يعاود التفكير في الصفقة، حتى نطق أخيرًا:

- وثيابك أيضًا.

تردد يحيى للحظة، لكنه هزّ رأسه موافقًا في النهاية. ثم تحرك إلى السيارة وأخذ المصباح اليدوي منها، قبل أن يبدّل ثيابه مع الرجل الذي صرخ بجنون ما إن جلس خلف مقود سيارة السيد عزيز، ثم انطلق بها

بأقصى سرعة ليصطدم بعد أقل من دقيقة بشاحنة كانت تعبر الطريق عند أول تقاطع.

تنهد يحيى بحسرة وهو ينظر إلى سيارة جده التي تحطمت مقدمتها أسفل عجلات الشاحنة، ثم ركب الدراجة النارية، وبحث في ذاكرتها عن اليوم الذي غادر فيه نفق ضاحية الغبار متجهًا إلى حي الماسة. وحين عثر على المسار المسجَّل على خريطتها في ذلك اليوم، أمر النظام بالعودة إلى نقطة بدايته، فرُسم الطريق أمامه على الشاشة. حينها، ألقى نظرة أخيرة نحو سيارة جده المحطمة، ثم استدار بالدراجة وانطلق بها نحو ضاحية الغبار.

●●●

عند فتحة النفق في الصحراء كان الليل قد حلّ. أوقف يحيى الدراجة النارية على مقربة من جثة فاطمة مقطوعة الرأس التي كانت قد انتفخت وبدأت التحلُّل، وفاحت منها رائحة نتنة.

نزل عن الدراجة واقترب من الجثة وهو يكمِّم أنفه بذراعه، ثم انتزع من معصمها سوارًا معدنيًّا لمع بريقه مع ضوء كشَّاف الدراجة الأمامي، قبل أن يتجه نحو باب النفق.

فتح الباب وأضاء مصباحه، ففوجئ بأن السلم العمودي المنحدر منه إلى أرضية النفق قد أُزيل، فلم يجد أمامه سوى أن يقفز إلى الأرضية.

قفز، لكنه سقط على جانبه الأيمن بقوة، وارتطم قفصه الصدري بالأرض، فشعر بألم شديد في ضلوعه اليمنى، فوضع يده عليها محاولًا التقاط أنفاسه، ثم أجبر نفسه على النهوض.

عبر الماء الذي كان لا يزال يغمر جزءًا من النفق، ثم وصل إلى أولى المراوح العملاقة، فوجدها متوقفة. اجتازها سريعًا، وواصل التقدم دون أي عائق، إذ كانت بقية المراوح التي عبرها من قبل مع فاطمة متوقفة هي الأخرى، حتى وصل إلى السلم المؤدي إلى فتحة النفق

الأخرى، فصعده، ودفع الباب الحديدي الدائري، وخرج إلى غرفة البناية المهجورة.

بعدها، تقدَّم على أطراف أصابعه خشية وجود رجال نجلاء هناك، لكنه لم يجد أحدًا. فاندفع إلى الخارج وعبر السور إلى الشارع، ثم سلك الطريق نفسه الذي سلكه مع فاطمة من قبل. وكلما شعر بمرور أحد توارى جانبيًا، حتى يصبح الطريق خاليًا، فيواصل التقدم.

***

بعد نحو ثلاثين دقيقة، وصل إلى البيت الذي اختبأ فيه من قبل مع فاطمة. وقبل أن يدلف إليه لمح امرأةً تقف في شرفة بيتها تراقب حركته. فأومأ إليها مبتسمًا رغم الألم الذي كان يضغط على ضلوعه اليمنى مع كل نفس يأخذه، ثم فتح الباب ودخل، حيث لم يجد أحدًا في الداخل.

كان يعلم أن تلك المنطقة تتبع «سيلا»، التي من دونها لن يستطيع إنقاذ جسد ليان، خاصةً مع معرفة نجلاء ورجالها لشكله، وإدراكهم أن اقترابه من الجسد خطرٌ لن يسمحوا به أبدًا.

جلس في البيت آملًا أن تُخبر المرأة التي راقبته سيلا عن وجوده، لكن الساعات مرت تباعًا دون أن يأتيه أحد أو يظهر أحد في الخارج. فخرج إلى البيت الذي كانت المرأة تقف في شرفته، وطرق بابه، وحين فتحت المرأة نفسها، سألها مباشرةً:

- أين أجد سيلا؟

فنظرت إلى ثيابه الرثَّة وقالت:

- لا أعرف.

ثم أغلقت الباب دون أن تضيف كلمة أخرى.

طرق باب بيتٍ آخر، وحين فتح صاحبه، قال له إنه يحتاج إلى الوصول إلى سيلا، فأغلق الرجل الباب في وجهه. طرق أبواب جميع البيوت المجاورة، لكنه لم يصل إلى نتيجة، فعاد إلى البيت وجلس خلف النافذة حتى طلع النهار.

عند التاسعة صباحًا لمح الطفل الذي كانت فاطمة قد أرسلت معه رسالةً من قبل، فخرج إليه سريعًا، ثم انحنى إليه وقال هامسًا:

- أخبر سيلا أنني جئت من أجلها، قل لها إنني الرجل الذي أخرجته فاطمة من الضاحية.

وحين بدا التردد على وجه الطفل، أخرج يحيى السوار المعدني، وأعطاه له قائلًا:

- ماتت فاطمة في تلك الليلة.

احمرَّ وجه الطفل، فأردف يحيى متوسلًا:

- أرجوك، فقط أخبرها أنني في حاجة ماسة إليها.

وكاد يكمل كلامه، لكن الطفل تركه فجأة وركض بالسوار مبتعدًا عنه، فعاد يحيى إلى البيت وجلس ينتظر.

بعد ساعتين، سمع خفقة جناحٍ وصوت جرسٍ خافتًا عند النافذة البعيدة، فتحرك نحو تلك النافذة وفتحها برفق، فوجد حمامةً قد هبطت على الطبق المعدني الموصول بالجرس الصغير هناك، وفي رجلها رسالة ورقية صغيرة، ملفوفة بعناية ومربوطة بخيط رفيع. فنزع الرسالة، وفكَّ الرباط بسرعة، وقرأ ما كُتب فيها:

- «اتبع الرايات الزرقاء التي ستظهر عند الثانية والنصف، ستجدني عند الراية الأخيرة».

نظر عبر النافذة نحو البيوت المجاورة فلم يجد أي راية زرقاء، فانتظر حتى وصلت الساعة إلى الثانية والنصف، فوجد بعض البيوت

قد علّقت رايات زرقاء على نوافذها. فخرج على الفور يتتبع مسار تلك الرايات حتى وصل إلى بيت صغير. كانت الراية المعلّقة بنافذة البيت الذي يليه بيضاء. فتوقف عنده وطرق الباب. ففتح رجل مسن هزيل الجسد، ناوله يحيى الرسالة بصمت. فطواها الرجل ووضعها في جيبه دون أن يقرأ ما فيها، ثم أشار إلى يحيى بالدخول.

●●●

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها «سيلا»، امرأة أربعينية حادّة الملامح، داكنة البشرة، شعرها مصبوغ بلون أحمر ومجدولٌ في جدائل رفيعة طويلة، وعيناها سوداوان قويتان، فيهما حكمةٌ لا تخطئها العين.

كانت تمسك بالسوار المعدني وتحدّق إليه، حين وقف أمامها يحيى وقال دون مقدمات:

- ماتت فاطمة في سبيل إخراجي من الضاحية.

فرفعت عينيها إليه، وقالت بحزن:

- كانت تؤمن بأنك قد تغيّر شيئًا إن أخرجناك من هنا.

قال:

- كنت أود ذلك حقًّا، لكنني لم أستطع فعل شيء، تعرفين أن الشرطة لن تأتي إلى هنا بسهولة.

هزّت رأسها متفقة معه، وقالت:

- أعرف هذا جيدًا، لقد كنتُ من المدافعين عن الضاحية حين لدمنا في المرّة الأخيرة.

فقال يحيى:

- لذا جئتُ إليكِ لتساعديني في استعادة جسد ليان قبل أن يصل نزار إلى كوده ويتخلّص منه. أظن أن فاطمة أخبرتكِ بما ينوي فعله بعد حصوله على ذلك الكود.

تنهدت وقالت:

- نعم، أخبرتني فاطمة كل شيء عن مخططات ذلك الشرير. وللأسف وقعت نجلاء في شَرَكه.

ثم أردفت بحنق:

- لا أعرف إن كانت قد اكتشفت حقيقة ما يخطط له ذلك الشيطان أم لا، لكنني على يقين أنها، حتى لو عرفت الحقيقة، فلن يهمّها ما سيخلّفه مشروعه من خراب ما دام سيمنحها السطوة والانتقام لأمها.

ثم تابعت بنبرة يغلبها الحسرة:

- لقد جاء ذلك الرجل بمئات الروبوتات إلى الضاحية فجر الأمس. وبعد أن بدأت نجلاء بإحراقها أوقفت كل شيء بعد لقائه معها لدقائق، بل وقتلت مساعدها الأقرب «موسى» بحجة عصيانه لأوامرها، ثم أمرت بترك الروبوتات تتجوّل بحرية، بعد أن كانت قد أمرت بحبسها في الأبنية المهجورة شمال الضاحية.

وفي أمر لا أفهمه، بدأت الروبوتات -بأمر مباشر منها- في زرع شرائح دقيقة في مؤخرات أعناق السكان.

وزفرت بغضب وقالت:

- لقد أقنعها ذلك الشيطان في دقائق بأن تنصاع لأوامره، إنه شيطان رجيم.

همس يحيى:

- مئات الروبوتات؟! هذا يعني أنه بدأ في ضمّ السكان إلى قاعدة بيانات تطبيق «جسد». إنه لا يضيّع أي وقت. فبمجرد أن يحصل على الكود وشرائح الكريمن، سيزرعها هي الأخرى في رقابهم، لتتطور الأوعاء الصناعية المُدمَجة بها عبر أوعائهم البشرية. ثم

ينقل الأوعاء المطوّرة إلى أجساد مشتركي التطبيق، لتسيطر عليها.

ثم نظر إليها:

- الفرصة الوحيدة أمامنا أن نمنعه من العثور على الكود في وعي ليان. على الأقل علينا أن نحرمه من السيطرة على الجسد حتى صباح بعد غد، يكون الكود قد تبخر من وعيها.

وأردف كأنه يوضح لها:

- لقد زرنا وعي ليان الأصلي في السجن، وأخبرتنا يومها أن الكود سيتبخر من وعيها خلال أربعة أيام، يتبقى منها اليوم وغدًا فقط.

فكرت ثم قالت:

- ليس الأمر بالسهولة التي تتخيلها، لقد أمرت نجلاء بتشديد الحراسة على البيت الذي يوجد فيه جسد ليان. والآن عليه حراسة مضاعفة من الرجال والروبوتات معًا.

قال يحيى بوجه يعتصر من ألم ضلوعه:

- إن حصل على الكود فسينتهي كل شيء.

قالت سيلا بنبرة حاسمة:

- إن عدد رجالي قليل، لن نستطيع تحرير جسد الفتاة وسط تلك الحراسة المشددة، سيكون بمثابة انتحار.

قال راجيًا:

- إن نجح نزار فسيأكل الأخضر واليابس.

قالت:

- أعرف، لكن ليست بيدنا حيلة الآن.

فجأة، دخل إليهما شابٌ ملثّم يلهث، وقال لسيلا:

- لقد بدأ رجال نجلاء التنقيب في المنجم الشرقي القديم عن صندوق مدفون في أحد الجدران هناك. تقودهم نجلاء وذلك الرجل الغريب ذو البدلة الرسمية.

همس يحيى في صدمة:

- يبحثون عن «الكريمن». هذا يعني أن نزار حصل على الكود!

فأردف الملثم:

- إنهم يعملون بلا توقف، ومن يتهاون في الحفر تطلق نجلاء الرصاص على رأسه مباشرة.

قال يحيى لسيلا متوسلًا:

- أرجوكِ لا بدّ أن نستعيد جسد ليان، إن تخلص نزار من جسدها ومات، فقد انتهى كل شيء. لعلّ أباها وضع في وعيها خطةً خفية توقف هذا الشر.

فنظرت إليه سيلا بتفكير عميق، ثم التفتت إلى الشاب، وقالت:

- اجمع الرجال. سنستعيد فتاة بيت شجرة التوت الليلة، مهما كلّفنا الأمر.

فقال يحيى:

- أريد أن أرافقكم.

قالت:

- لا. عد أنت إلى البيت الذي كنت فيه. وانتظر رسالة مني بتحرير الفتاة.

ثم نهضت وربتت كتفه وتابعت:

- إن لم تصلك تلك الرسالة قبل فجر الغد، فاعلم أنّي ورجالي قد فقدنا حياتنا.

فأومأ يحيى إيجابًا في صمت، ثم رجع إلى البيت الذي جاء منه.

●●●

كانت الثالثة والنصف عصرًا حين عاد إلى البيت. اتصل بفريدة وأخبرها بما حدث، دون أن يخبرها شيئًا عن إصابة حلومه، فاتفقت معه أن بدء تقليب الرجال في المنجم يعني أن نزار فتح خزينة كرم، وصار قريبًا من الحصول على شرائح «الكريمن». سألها عما إن كان هناك جديد بخصوص براءة ليان، فقالت: «لم يصدر أي حكم حتى الآن». ثم سألته عن الطريقة التي ينوي بها إخراج جسد ليان من الضاحية إن نجحت سيلا في تحريره، خاصةً أنه لن يستطيع الهروب به عبر النفق بعد إزالة السلم العمودي، ولا عبر السكة الحديدية مع سيطرة رجال نجلاء على مكان إبطاء القطارات هناك، فقال:

- أريد فقط الآن تحرير الجسد من نزار. بعدها، سأعمل مع سيلا على إخفائه في الضاحية، مع تغطية عينيه وتكبيله، حتى إذا كان تحت سيطرة الميلتو أو كان ساكنًا وحاول الميلتو السيطرة عليه لاحقًا لا يستطيع التحرك إلى أي مكان. إلى أن تقرر الشرطة أمرها بشأن اختفاء الجسد مع صدور حكم البراءة.

وكرّر مؤكدًا:

- المهم، أن نبعد الجسد عن أيدي نزار حتى لا يؤذيه في أي لحظة قادمة.

فقالت:

- أتمنى أن يتحقق كل ما نأمله.

بعدها، أنهيا الاتصال، وبقي يحيى في البيت يعدُّ الدقائق التي تمر حتى حلَّ الليل. فأخذ يتفحص النافذة البعيدة كل بضع دقائق لعله يجد حمامةً تحمل رسالة من سيلا، لكنه لم يجد شيئًا. فمكث في مكانه بلا

قلبه باضطراب، بينما تمر الساعات واحدة وراء أخرى، حتى انتفض جسده فجأة حين سمع صوت طلقات نارية بعيدة وصداها. فأدرك أن سيلا قد بدأت في تنفيذ خطتها. نظر إلى الساعة على شاشة معصمه، فوجدها الرابعة صباحًا، فأخذ يتحرك جيئةً وذهابًا بالردهة في توتر، متناسيًا ألم ضلوعه، خاصةً مع طول وقت إطلاق النار الذي استمر لأكثر من ساعة ونصف متواصلة، حتى بدأ يخفت شيئًا فشيئًا إلى أن اختفى تمامًا.

حينها جلس مكانه يحرك فخذيه في توتر، وبين دقيقةٍ وأخرى كان يتفحص نافذته أملًا في وصول رسالة سيلا، إلا أن شيئًا لم يصل. فاستلقى على الأرض وأخذ يحدّق إلى السقف بينما يطبق عليه اليأس من كل جانب. كان عدم وصول الرسالة يعني فشل سيلا ورجالها في تحرير جسد ليان، وربما سقوطهم جميعًا قتلى.

فجأة عند السابعة صباحًا، دخلت إليه سيلا، بثيابٍ مصطبغة بالدماء، وذراعٍ ملفوفة بشاش محمرٍ. فنهض إليها كأن الروح عادت إليه وقال لها غير مصدِّق:

- ظننتكِ متِّ، بعدما لم تصل أي رسالة منكِ. هل حرَّرتم جسد ليان؟

التقطت أنفاسها ثم هزَّت رأسها نفيًا، قبل أن تقول:

- كان نزار ونجلاء يتوقعان قدومنا، لذا ضاعفا الرجال والروبوتات حول البيت. ومع ذلك، قاتلنا بكل ما نملك من قوة، وحاولنا خداعهم باستدراجهم بعيدًا، لعلَّ بعض رجالي يدخلون البيت خلسة ويحررون الفتاة، لكن كثرة عددهم حالت دون ذلك.

ثم أردفت، والحيرة في عينيها:

- حتى ظهر من الظلام من اخترق صفوفهم وأسقطهم واحدًا تلو الآخر بمهارة واحترافية لم أرَ مثلها في حياتي، قبل أن يدخل إلى البيت، ويخرج حاملًا جسد الفتاة، وينطلق به عبر أزقة الضاحية بسرعة رهيبة.

ثم تابعت:

- لاحقناه جميعًا، رجالي ورجال نجلاء وروبوتات نزار، إلا أنه بدا وكأنه يحفظ الضاحية عن ظهر قلب. حتى وصل إلى السكة الحديدية مع بزوغ الصباح، فركض بمحاذاة القضبان بسرعة تقارب سرعة القطار، ثم فجأة دوّت خلفنا صافرة قطار قادم بأقصى سرعته من حي المروج، فقفز بالفتاة إلى ذلك القطار، كأنه كان يعرف أنه سيمر في ذلك التوقيت وبنى عليه خطة هروبه.

سألها يحيى مستغربًا:

- كيف يمكن لإنسان أن يملك سرعةً تقارب سرعة القطار؟

فقالت:

- لم يكن بشرًا. لقد ظهرت هيئته مع طلوع النهار. كان روبوتًا لم أرَ مثله قط، وكان يحمل الفتاة كأنه صُنع من أجل حمايتها مهما كلّفه الأمر.

ثم أكملت بنبرة متعجبة:

- عند منطقة ما اتخذتُ بدراجتي النارية طريقًا مختصرًا أعرفه لألحق به، وبالفعل استطعت في لحظة ما أن أكون قريبة جدًا منه، لكنني تعثرت بالدراجة النارية وسقطت. حينها، أسقط بسلاحه الناري بعض رجال نجلاء الملاحقين له، وكان يستطيع قتلي أيضًا، لكنه نظر إليّ وتركني دون أن يؤذيني، وكأنه أدرك أننا في الجانب نفسه من المعركة. في تلك اللحظة قرأت الحروف المضيئة على صدره التي بدا أنها تعبّر عن اسمه.

ثم صمتت للحظة، قبل أن تتابع:

- لام، ياء، نون، واو. لينو.

(22)

نطق يحيى في دهشة:

- لينو؟!

هزَّت سيلا رأسها إيجابًا. فقال مستغربًا:

- كانت ليان تسمِّي قطها القديم بهذا الاسم، وحين سألتُها ذات مرة عن سبب اختيارها لهذا الاسم تحديدًا، قالت إنه كان يتردد دائمًا في عقلها الباطن دون أن تعرف السبب، فاختارته لقطها.

ثم تابع بنبرة يغلب عليها الشرود:

- انتظري! لقد أخبرتني فاطمة أن ليان رأت في أحلامها روبوتًا يودع طفلةً في دار رعاية، وهذا ما جعلها ترجِّح أن السيد كرم أرسل ليان -في عامها الثاني- مع ذلك الروبوت إلى دار الرعاية.

ورفع عينيه إلى سيلا، متسائلًا:

- ماذا لو كان الروبوت نفسه؟! لكن إن كان هو فعلًا، فأين كان طوال تلك السنوات؟ ولماذا لم يتدخل لإنقاذ ليان إلا الآن؟ وإلى أي مكان أخذ جسدها؟

رفعت سيلا كتفيها وكأنها لا تملك إجابة، ثم قالت:

- الأهم الآن أن جسد الفتاة بعيد عن يدَي نزار، كما أردت.

فأومأ برأسه إيجابًا في صمت وحيرة.

في تلك اللحظة، استقبلت قلادته اتصالًا هاتفيًا من فريدة. وما إن فتح الخط حتى قالت بفرحة عارمة:

- لقد أُفرج عن ليان. صدر الحكم قبل خمس دقائق فقط، وصار وعيها حرًا. جميع القنوات الإخبارية تذيع الخبر الآن، وقد تأكدتُ من صحته عبر صديق لي يعمل في وزارة العدل. يمكننا الآن حشد الرأي العام للضغط على المسؤولين لاستعادة جسد ليان من ضاحية الغبار!

فقال يحيى بصوتٍ حائر:

- لم يعد الجسد في ضاحية الغبار.

فقالت في صدمة:

- ماذا؟ هل أصابه مكروه؟

قال:

- لا.

وأردف سريعًا بنبرة الحيرة نفسها:

- لا أعرف. لقد اختطفه أحد الروبوتات المنزلية وفرَّ به عبر القطار.

فنطقت متعجبة:

- روبوت منزلي؟ لا أفهم شيئًا!

قال:

- ولا أنا، لكن سأخبركِ بما أفكر فيه.

ثم حدَّثها عن شكوكه بأن ذلك الروبوت قد يكون الروبوت نفسه الذي حمل ليان إلى دار الرعاية. ولسببٍ ما عاد الآن لحماية جسدها. وتابع:

- ربما بُرمج قديمًا لحمايتها. ربما يُوجد رابط ما بينهما جعله يشعر أن حياتها على المحك فتدخل في هذا الوقت. لا أعرف. لكن في كل الأحوال لم يعد الجسد موجودًا هنا.

قالت:

- إن صحّت شكوكك، وأعاد ذلك الروبوت الجسد إلى ليان، فلن يصدّق أحد قصة الميندو. وسيرى الجميع قضية التلاعب في وعي ليان مجرّد جريمة فردية خطط لها أحد المستأجرين، ونفّذها له أسامة، الموظف الخائن الذي نال عقوبته بتفجير جسده!

صمت يحيى مفكرًا في كلامها، فأكملت:

- هل يمكن أن يكون نزار قد استخدم ذلك الروبوت لإعادة الجسد إلى ليان من أجل إبعاد الأنظار عنه بعد فتحه خزينة الكريمن؟ هل يكون قد فعل ذلك كي يكسب مزيدًا من الوقت يمكّنه من بناء جيشه المنشود من الميندو قبل أن تنتبه إليه الشرطة؟

وأضافت:

- فلو استطاع الآن الحصول على عشرة آلاف ميندو مطوّر فقط، سيتمكن عبرهم من اختراق أغلب المناصب في البلاد. فالكثير من رجال الشرطة والعاملين في مفاصل الدولة، بل وحتى مشرفو تطبيق جسد لأنفسهم، يحملون شرائح التطبيق خلسةً في رقابهم، وإننا ننقل أوعاء الميندو التي يجهّزها الآن إليهم، سيستخدمهم لتسهيل سيطرته على كل شيء.

ثم تنهدت وأكملت في حسرة:

- ومع احتواء خزينة السيد كرم على ملفٍّ آخر يشمل أماكن التنقيب عن معدن الكريمن في البلاد، وطرق استخلاصه، وكيفية تصنيع الشرائح منه، سيحصل نزار على مئات الآلاف، بل الملايين من

الميتنو الجدد، التي تجعله يسيطر على البلاد بأكملها في غضون أشهر قليلة.

قال يحيى:

- لا أعتقد أن هذا الروبوت تابعٌ له.

فقالت:

- حسنًا ماذا سنفعل يا صديقي؟ هل سنتركه يمضي في خطته بعدما تحرر جسد ليان من قبضته؟

أجابها:

- لا، لكن علينا أن نتأكد أولًا: هل عاد وعي ليان إلى جسدها أم لا؟ وبعدها قد يكون لدى ليان نفسها إجابة عن كل تساؤلاتنا.

ستكون ليان الطرف الأصدق لإخبار الناس عن مخطط نزار، سنعثر عليها ونجعلها تخرج إلى وسائل التواصل الاجتماعي لتروي ما عاشته داخل وعيها، منذ لحظة التلاعب فيه، حتى اللحظة التي رأت فيها الكود، وما إذا كانت قد تذكرت في وعيها شيئًا عن والديها ومشروعهما؟ وهل كانت تعرف ذلك الروبوت؟ ولماذا أنقذ جسدها في هذا التوقيت؟ وكيف عرف مكانها؟ أعتقد أن الناس سيلتفون حولها أكثر مني ومنكِ.

فكرت فريدة في كلامه، ثم بدا أنها اقتنعت بما قاله، فقالت:

- حسنًا، دعني أتحقق عبر أصدقائي في السجن مما إن كانت قد استعادت جسدها الأصلي، أم لا يزال وعيها الحر يبحث عن جسد حتى الآن.

قال:

- حسنًا.

وكاد يغلق الخط، فسألته:

- كيف ستخرج من ضاحية الغبار؟ لا بدّ أن نجلاء ورجالها لن يسمحوا لك بالاقتراب من سكة القطار، وكما أخبرتني، لم يعد النفق صالحًا للهروب بعد إزالة سلّمه.

نظر إلى سيلا التي كانت تستمع للمكالمة، فقالت بثقة:

- لا تقلق، لديّ طريقة أخرجك بها من هنا.

***

أغلق الخط، ثم سأل سيلا:

- كيف ستخرجينني من هنا؟

قالت بهدوء:

- لديك شريحة في عنقك، أليس كذلك؟

قال:

- بلى.

قالت:

- إذن انقل وعيك عبر تطبيق «جسد» إلى أي جسدٍ آخر متاح للإيجار خارج ضاحيتنا.

فسألها متعجبًا من اقتراحها:

- وماذا عن جسدي؟!

قالت:

- لا تقلق، جسدك سيبقى هنا في وضع السكون، وسأعتني به حتى يحين الوقت المناسب الذي أخرجه فيه من الضاحية. فقط أعطني رقم التواصل مع صديقتك التي كانت تهاتفك، وبمجرد أن أخرج الجسد من هنا سأرسل لها رسالة كي تبلغك بالأمر فتستعيد جسدك حينها.

بدت على وجه يحيى علامات التردد. فابتسمت سيلا وقالت:

- عليك أن تثق بي. هناك شاحنات تأتي للضاحية بالطعام المُجمَّد والخضراوات المجمَّدة مرة أسبوعيًا من حي المروج. تسلك تلك الشاحنات طريقًا جبليًا موازيًا للسكة الحديدية. سيسيطر رجالي على إحداها ليخرجوا جسدك عبرها.

تساءل في قلق:

- وماذا لو فشل رجالك في هذا الأمر؟

قالت:

- لطالما سيطرنا على كثيرٍ من تلك الشاحنات وسرقنا منها ما يكفينا من طعام، في ظل سيطرة نجلاء على كل شيء هنا.

ثم أردفت:

- حاول فقط استئجار جسدٍ متاح لبضعة أيام. ستأتي الشاحنات بعد ثلاثة أيام أو أربعة.

وحين رأت التردد لا يزال على وجهه، تابعت بنبرة حاسمة:

- هذا هو الحل الوحيد الذي أملكه. إن كنت تريد البقاء هنا حتى نجد حلًا آخر، فأهلًا بك. أمَّا إن كنت تريد الخروج الآن لتبحث عن الروبوت الذي أخذ جسد حبيبتك، فعليك أن تفعل ما أخبرك به وجسدك سأعيده إليك.

نظر يحيى إليها مفكرًا، ثم هزَّ رأسه موافقًا. فقالت:

- إذن لا تضيِّع الوقت.

فضغط زر قلادته، ثم ولج إلى تطبيق جسد عبر الشاشة التي طفَت أمامه بعدها، استعرض قائمة المشتركين، وأخذ يحرك الوجوه بإصبعه حتى توقف عند شاب عشريني، جسده متاح للإيجار لسبعة أيام. فنظر إلى سيلا وقال وهو يشير إلى قلادته البيضاوية وسلسلة ليان المعلَّقتَيْن حول عنقه:

- أرجوك، اعتني بقلادتي وبسلسلة ليان حتى أستعيد جسدي.

فقالت مطمئنة:

- سيعود إليك جسدك كما هو، بكل متعلّقاته.

أومأ برأسه، ثم أعطاها رقم التواصل مع فريدة.

بعدها نقر زرّ الموافقة على شروط التطبيق، ثم زرّ تفعيل نقل الوعي، ليسقط جسده ساكنًا أمام أعين سيلا، التي همست وهي تنحني لتُغلق جفونه:

- أتمنى لك التوفيق.

●●●

فتح يحيى عينيه في الجسد الجديد، فوجد نفسه مرتديًا ملابس داخلية في غرفة صغيرة تعبق بها رائحة خانقة. نهض وتفحّص جسده الجديد في مرآة قريبة، فوجده أطول قليلًا من جسده الأصلي، رياضي البنية، عيناه خضراوان داكنتان وشعره بني يميل إلى الحمرة. نظر إلى المكان من حوله، كانت الفوضى تعم كل شيء والثياب تتناثر في كل الأرجاء، وكأن تلك الغرفة لم تُرتَّب منذ أشهر. ثم لمح هاتفًا صغيرًا على الأرض، فأسرع إليه والتقطه واتصل بفريدة، وقبل أن تسأله عن هويته، قال مباشرةً:

- أنا يحيى يا فريدة، نقلتُ وعيي إلى جسدٍ آخر عبر التطبيق، وستحاول سيلا إخراج جسدي الأصلي من الضاحية لاحقًا.

قالت متعجبة:

- يحيى، أين أنت الآن؟

تحرك إلى النافذة، وأزاح ستارها، ثم تطلع عبر زجاجها، فوجد نفسه في طابق مرتفع يطل على ميدان واسع يتوسطه مجسّم ضخم لثلاث نخلات شامخات، فقال:

- أظن أنني في حي حدائق النخيل.

قالت:

- أنا في شقتي الآن.

فقال:

- سأستقل سيارة أجرة إليك في الحال، وفي الطريق سأرسل لك صورتي الجديدة لتتعرفي عليّ.

ثم أغلق الخط، وارتدى بنطالًا وقميصًا من خزانة مفتوحة، وقبل أن يغادر، وقعت عيناه على محفظة نقود بارزة من جيب بنطال مُلقى فوق أحد المقاعد، فانتزعها ودسّها في جيبه، ثم خرج مسرعًا ليأخذ سيارة أجرة إلى بيت فريدة.

●●●

وصل إلى أسفل بيت فريدة، ثم صعد إلى شقة الطابق الأول التي اعتاد أن يلتقيها فيها مع أسامة. وما إن طرق الباب حتى فتحت له وتأملته طويلًا قبل أن تقول مازحة:

- تبدو أكثر رشاقة ووسامة الآن. عليك أن تخبرني بعنوان صاحب هذا الجسد بالتفصيل، لربما أواعده مستقبلًا.

فضحك وقال:

- صدقيني لن يعجبك، إنه فوضوي جدًّا.

فقالت ضاحكة، وهي تشير إليه كي يدخل:

- أنا أمزح.

ثم جلسا بالردهة، فسألته بجدية:

- كم مدة الإيجار؟

قال:

- سبعة أيام.

سألته:

- هل سيتحمل جسدك الأصلي البقاء دون مغذيات طوال هذه المدة؟

قال:

- وعدتني سيلا أنها ستعتني به، ووعدتني أيضًا أنها ستُخرجه من هناك في غضون ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر عبر إحدى شاحنات الطعام التي تأتي إليهم من حي المروج.

وأردف:

- إن لم تنجح في إخراجه قبل انتهاء مدة استئجار هذا الجسد، سأضطر حينها إلى العودة إليه، وليحدث ما يحدث.

ثم صمت للحظة، وتابع:

- لكني أثق بأنها ستنجح، لذا علينا أن ننسى أمر جسدي الأصلي الآن، ونركّز على ذلك الروبوت الذي فرّ بجسد ليان.

قالت:

- لقد تأكدتُ منذ قليل من أحد أصدقائي بالسجن أن وعي ليان استعاد جسده الأصلي.

فانفرجت أساريره فورًا، وقال بعينين متسعتين:

- هذا يؤكد أن الروبوت يعمل بطريقة أو بأخرى لصالح ليان.

قالت بنبرة يغلب عليها الحيرة:

- قبل مجيئك اخترقتُ كاميرات السجن المركزي، لعلي أرى الروبوت وهو يدخل بالجسد إلى هناك كي يزيل المتخصصون الشريحة الطويلة الأمد من عنقها بعد قرار الإفراج عنها، لكنه لم يذهب إلى هناك، واستعاد وعي ليان الجسد في مكانٍ بعيد عن السجن.

فضمَّ يحيى شفتيه في صمت، ثم قال:

- لا أملك أي إجابات أو تفسيرات لما يحدث الآن.

ثم سألها وهو ينظر إلى لوحها الذكي:

- هل يمكنكِ اختراق كاميرات محطات القطار لمعرفة أين نزل الروبوت بالجسد؟ قالت سيلا إنه ركب القطار الذي مرَّ بضاحية الغبار متجهًا نحو حي الماسة، مع بزوغ الصباح.

فقالت فريدة وهي تستدير نحو لوحها:

- حسنًا، لنكتشف ذلك.

ثم بدأت تخترق كاميرات المراقبة، وتتنقل من محطة إلى أخرى. بدأت بمحطة الماسة، ثم محطة الجود، ثم محطة النسيج، ثم ما بعدها من محطات حتى وصلت إلى محطة وسط المدينة، لكنها لم تعثر على أي أثر للروبوت ولا لجسد ليان. فتابعت البحث في محطات الخط الممتدة بعد محطة وسط المدينة، حتى وصلت إلى آخر المحطات، دون أن تبصر أيًّا منهما على الشاشة. فقالت وهي تتنهَّد:

- هل يمكن أن تكون سيلا قد كذبت؟ ولم يستقل الروبوت القطار؟

هز يحيى رأسه نافيًا:

- لا أعتقد. سيلا ليست في حاجة للكذب.

ثم تابع:

- لكنها قالت إن الروبوت كان يمتلك سرعة تُقارب سرعة القطار، أعتقد أنه قفز بالجسد في مكانٍ ما بين أي محطتين. إنه ذكي بما يكفي ليأخذ احتياطاته.

فقالت:

- هذا يعني أننا فقدنا ليان مرة أخرى، فمع تلاعب نزار من قبل ببصمة وجهها، لن تتعرف عليها الكاميرات بعد الآن.

بل يحيى بصمته مفكرًا، فسألته فريدة:

- ماذا سنفعل الآن؟

رفع كتفيه كأنه لا يجد جوابًا، ثم قال:

- ليس أمامنا سوى الانتظار.

فقالت بقلق:

- لكن بقاء الشريحة طويلة الأمد في عنقها يعني أن جسدها لا يزال مهيّئًا بسيطرة نزار في أي لحظة.

تذكّر يحيى أن الميتتو التي أخبرته بخطط نزار، كانت قد سيطرت على جسد فاطمة فتاة ضاحية الغبار من خلال الثغرة نفسها. فابتلع ريقه في توتر، قبل أن يقول محاولًا طمأنة فريدة وطمأنة نفسه:

- أعتقد أن الروبوت الذي يحميها الآن، لن يسمح بحدوث ذلك.

فأومأت في صمت، ثم فتحت حساباتها على وسائل التواصل الاجتماعي، وأخذت تقلّب الأخبار بتململ، فيما وضع يحيى رأسه بين كفّيه وغاص في أفكاره، ليطول الصمت بينهما، حتى ومضت قلادة فريدة فجأة معلنةً عن استقبال مكالمة هاتفية، فنظرت فريدة إلى شاشة معصمها وقالت:

- إنه جدّك السيد عزيز.

ثم فتحت الخط، وشغّلت مكبّر الصوت، فجاء صوت السيد عزيز مسرعًا:

- فريدة، هل تعرفين مكان يحيى؟ أحاول الاتصال به ولا يجيب.

فابتسمت وقالت:

- إنه هنا معي يا سيدي.

فناداه فورًا عبر الهاتف:

- يحيى؟ هل تسمعني؟

أجاب يحيى بصوت جسده الجديد:

- نعم يا جدي، أنا هنا.

فصمت جده للحظة، وكأن صوته المختلف أصابه بالارتباك. فتابع يحيى:

- أنا الآن في جسدٍ جديد يا جدي، أما جسدي الأصلي فلا يزال في ضاحية الغبار. قصّة طويلة سأرويها لك حين أراك.

فقال الجد:

- حسنًا، لكن هناك من جاء إلى هنا باحثًا عنك ويريد التحدث إليك

ثم سكت فجأة، وكأنما أفسح المجال لغيره على الخط. بعدها، سمع يحيى صوتًا أنثويًا يعرفه تمام المعرفة، يهمس بدفء:

- مرحبًا يحيى، أنا ليان.

(23)

نطق يحيى، بعينين متسعتين وقلبٍ يخفق باضطراب:

- ليان!

جاء صوتها عبر الخط بنفس النبرة الدافئة:

- نعم يا يحيى. إنني أبحث عنك منذ أن استعدت جسدي. وعندما لم أستطع التواصل معك، جئت إلى بيت جدك. لا أعرف مكانًا أكثر أمانًا من هنا.

قال بلهفة:

- مسافة الطريق وأكون عندك.

ثم أغلق الخط، والتفت إلى فريدة بوجهٍ محمرٍّ مرتبك:

- هيا بنا.

ابتسمت فريدة حين رأت ملامحه المرتبكة، وأومأت:

هيا.

***

استقلا سيارة أجرة إلى قرية الصفصافة. وفي الطريق، لم يشغل بال يحيى سوى صورة اللقاء. ماذا يقول حين يقف أمامها؟ هل يبكي بين يديها معتذرًا؟ هل يحتضنها في صمت؟ هل يحكي لها عن عذابه بعد دخولها السجن بسببه؟ كلمات كثيرة ازدحمت في رأسه دون أن يعرف بأيّها سيبدأ.

ثم اهتزت فخذاه من التوتر، فوضعت فريدة يدها فوق ركبته وربتت برفق قائلة:

- لقد سامحتك يا يحيى، كان الدفء في صوتها وهي تتحدث إليك يدل على ذلك.

أعادت كلمات فريدة إليه شيئًا من الهدوء. ومع ذلك، لم يستطع إيقاف ارتجاف فخذيه.

حين وصلت السيارة إلى أمام البيت، نزل مسرعًا واندفع نحو الباب وطرقه بلهفة، تاركًا فريدة تنزل بخطوات أبطأ. فُتح الباب فجأة، وظهر الروبوت المنزلي الذي يحمل على صدره كلمة «لينو». سادًّا الطريق أمامه، فقال بصوتٍ مرتبك، وهو يلهث:

- أنا يحيى.

تحرك لينو جانبًا، مفسحًا الطريق، لتظهر على بعد خطوات خلفه ليان بشعرها القصير، ووجهها الذي يشع بلمعةٍ لم يرها منذ لقائهما الأخير قبل القبض عليها ومحاكمتها.

تقدَّم يحيى نحوها بخطواتٍ مرتجفة، حتى توقف أمامها وصمت كأن الكلمات فرَّت من لسانه، ثم نطق بصوتٍ مرتعش، وعيناه تلمعان بالدموع:

- لا أعرف ما الذي يمكن أن أقوله لكِ الآن. حاولت أن أرتِّب الجمل في رأسي طوال الطريق، أن أجد أكثر الكلمات تعبيرًا عما أشعر به في هذه اللحظة، لكن كل شيء تبعثر حين نظرت في عينيكِ.

وابتلع ريقه، وأردف:

- كنت أظن أنني مستعد لهذه اللحظة، لكن أقسم بالله أشعر بأن قلبي سيتوقف.

ظلت ليان تنظر إليه دون أن تُبدي أي رد فعل، فتراجع للخلف خطوة بوجه منكسر، وتسلل إليه الشعور بأنه أخطأ تفسير نبرة صوتها حين ماتته، لكن ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيها، قبل أن تخطو نحوه تلك الخطوة التي تراجعها، وتفتح ذراعيها إليه. فاقترب منها، والتقيا في عناقٍ طويل. وهي تهمس إليه مازحة:

- حتى لحظة اللقاء حرمتني من عناق جسدك الأصلي، ماذا أفعل بك؟!

ابتسم ودموعه تنساب على وجنتيه، وقال:

- أقسم لكِ إنها المرة الأولى التي أستأجر فيها جسدًا منذ دخولك السجن. كنت مضطرًا، كان عليّ أن أترك جسدي في ضاحية الغبار كي أعود لأبحث عنكِ.

مرّرت أصابعها على شعره وقالت:

- لقد حكى لي جدك كل شيء.

قال بصوت يقطر ندمًا:

- أقسم بالله إنني ندمت أشد الندم على ما فعلته بحقك. كان خطأ حياتي، ولن أسامح نفسي أبدًا. وسأرضى بما تحكمين به عليّ، حتى لو أردتِ فصل رأسي عن جسدي.

هزّت رأسها وهي تبتسم:

- للأسف أنا أحبك. حتى مع خذلانك لي، كان هناك دائمًا جزءٌ في داخلي يبرّر لك ما فعلت.

ثم أردفت بجدية وهي تنظر إلى عينيه:

- لكن، لا أنكر أن بعض الجراح لا تزال عالقة في داخلي، وستحتاج إلى وقت كي تندمل.

ابتسم يحيى وهو يمسح دموعه بيديه، وقال:

- خذي كل ما تحتاجينه من وقت، المهم أن هناك أملًا.

أومأت برأسها، فالتفت يحيى إلى فريدة، وقال وهو يحاول استرجاع أنفاسه:

- هذه فريدة، لا أعرف إن كان جدي قد حكى لكِ عنها أم لا.

قالت باسمة:

- نعم، لقد حكى لي السيد عزيز كل شيء عنها وعن أسامة، وعمّا فعلاه من أجلي.

فابتسمت فريدة وقالت وهي تنظر إلى يحيى:

- صدقيني، كان هذا الفتى هو محرِّك الأحداث كلها. سعيدة بلقائك أخيرًا.

ابتسمت ليان، ونظرت نحو يحيى ممتنةً، ثم جلس الثلاثة في ردهة البيت ومعهم السيد عزيز، وما إن استقر بهم المجلس، حتى بادر يحيى بسؤالها، وهو يشير إلى لينو الذي وقف بجوارها في صمت:

- كان هو من أودعكِ في دار الرعاية وأنتِ بعمر عامين، أليس كذلك؟

ابتسمت ليان وأومأت:

- بلى. صنعه أبي قبل ولادتي بسنوات، ثم برمجه ليكون إحدى وسائل حمايتي.

ثم صمتت قبل أن تتابع:

- كان أبي يضع احتمالًا لتمرد المينتو، لذا أرسلني مع لينو إلى دار الرعاية كي يبعدني عن الخطر حتى تتضح الأمور، ولكي يضمن عدم تتبع المينتو لي برمج لينو كي يعطِّل نفسه ذاتيًا بمجرد أن يُودعني في دار الرعاية، ليدخل في وضع سبات طويل لا يفيق منه إلا بإحدى طريقتين: إمّا أن أستدعيه أنا بأمرٍ صوتي حين

أكبر وأتذكره عندما أراه، وإما أن ينشط من تلقاء نفسه إذا فُتحت خزينة الكريمن في أي وقت.

ثم ابتسمت بمرارة، وأردفت:

- لكن ما لم يضعه أبي في الحسبان أن إحدى عاملات الدار طمعت في لينو بعد دخوله وضع السبات عند بوابة الدار، وأخذته خفيةً إلى بيتها بدلًا من أن تسجّله في مقتنياتي. ليبقى مُعطلًا في قبو بيتها المظلم سنوات طويلة، دون أن أتذكره أو أعرف شيئًا عن وجوده. حتى استطاع نزار فتح خزينة الكريمن بعدما حصل على الكود من نسخة وعيي، فاستيقظ لينو، وأنقذ جسدي قبل أن يؤذيه نزار.

سألها يحيى بدهشة:

- وكيف عرف موقع جسدك؟

أجابت:

- قال لي جدك إنك تعرف أن أبي زرع شريحة «كريمن» لي أنا الأخرى في رقبتي، كي يدس عبرها الكود في وعيي، ويعزز وعيي بطبقاتٍ من الحماية تعوق أي مخترقٍ يحاول الوصول إلى الكود.

هزَّ يحيى رأسه إيجابًا، فأكملت:

- دعَّم أبي تلك الشريحة بوحدة تتبع دقيقة، وربطها بنظام لينو الداخلي. لذا تعرَّف لينو من خلالها على موقعي، وحرَّرني من قبضة نزار، لأتي إلى هنا.

تدخَّلت فريدة متسائلة:

- لكن لماذا لم تعودي إلى السجن كي يزيلوا شريحة تطبيق جسد طويلة الأمد من عنقك، ألا تعلمين أن بقاءها في رقبتك قد يمكّن نزار من السيطرة عليكِ مجددًا؟

تنهدت ليان وأجابت:

- بلى أعرف، لكن ما لا تعلمونه، أن أبي كان قد وضع نسخة من دفاعات لينو الرقمية داخل إحدى طبقات وعيي، لتدافع عن طبقة الكود. صحيح كانت نسخة قديمة وتمكن نزار من التغلب عليها ووصل إلى الكود، لكن بعد أن نشط لينو مرة أخرى حدَّث نظامه الدفاعي داخل وعيي، لذا لن يكون الأمر سهلًا على أي متسلل يحاول السيطرة على جسدي.

ومدت يدها لتلامس يد لينو المعدنية، وتابعت:

- حتى لو تمكن من التغلب على تلك الدفاعات، فلن يسمح لينو لجسدي بالابتعاد عنه والانصياع للوعي المتحكم بي، حتى أستعيد جسدي مرة أخرى.

قال يحيى:

- أعتقد أنه من الأفضل أن نبحث عن طبيب متخصص لإزالة الشريحة طويلة الأمد من عنقك في أسرع وقت، حتى لا نترك فرصة ولو ضئيلة لنزار للولوج إلى جسدك مرة أخرى، مع كل الاحترام للسيد لينو ودفاعاته، طبعًا.

قالت:

- لا بد للشريحة أن تبقى في رقبتي.

نظر إليها يحيى متعجبًا:

- لماذا؟

فقالت بنبرة حاسمة:

- حتى أتمكن من إيقاف مخطَّط نزار.

انحنى يحيى للأمام، وقال بترقب:

- كيف؟

تنفست بعمق وقالت:

- كما تعلمون، سيحاول نزار السيطرة على عشرات الآلاف من الأوعاء البشرية عبر شرائح الكريمن التي عثر عليها بعد فتحه خزينة أبي، ليصنع منها أوعاء مينتو جديدة خاضعة له.

لكن ما لا يعرفه نزار أن أبي، بعد تطويره للنماذج المينتو السبعة الأولى، كان قد نجح سرًا في تطوير وعي صناعي أولي أقوى وأكثر ذكاءً، من الأوعاء الأولية للمتطوعين السبعة بما فيهم نزار نفسه. أطلق على ذلك الوعي «المينتو الأسمى».

همست فريدة:

- المينتو الأسمى؟!

أومأت ليان إيجابًا، وقالت:

- نعم.

ثم أكملت:

- ومن أجل تطوير ذلك المينتو صنع له أبي شريحة حاضنة من الكريمن لم يصنع مثلها من قبل، ونزرع تلك الشريحة في رقبة شخص يثق بأن وعيه البشري قادر على الاندماج معه وتطويره دون أن يُطمس.

وسكتت لحظة، ثم نظرت في عيونهم وقالت بنبرة هادئة:

- كان ذلك الشخص ابنته الوحيدة، أنا.

اندفعت الدماء إلى وجوه يحيى وفريدة والسيد عزيز، ونطقت فريدة:

- لم يزرع الشريحة في عنقك لتعزيز وعيك البشري وحماية الكود فحسب، زرعها كي تكوني مينتو جديدًا؟!

أومأت برأسها إيجابًا، ثم قالت:

- تركه أبي تلك الخزينة معتقدًا بحسن نية أنه من المستحيل الحصول على كود فتحها مع احتياطات الأمان التي وضعها. كان يأمل أن يأتي يوم وأفتح الخزينة بنفسي لأسلّمها إلى قادة البلاد إن أرادوا استكمال المشروع تحت رقابة صارمة، تمنع خروج أي مينتو يتم إنتاجه عن الدور المحدَّد له؛ بشري عادي يتمتع بقدرات ذكاء عالية تنهض بالبلاد، وليس آلة.

ومع ذلك، ظل هاجس اختراق الخزينة يؤرقه، فزرع في عنقي شريحة الكريمن، وأوهم أمي أنها لحماية وعيي وحماية الكود فحسب، دون أن يخبرها بأنها ستكون حاضنةً للمينتو الأسمى الذي بوسعه أن يسيطر على جميع الأوعاء الصناعية الأخرى ويخضعهم لأوامره إن خرجوا عن السيطرة.

ثم أخبر لينو بكل شيء، وزرع في نظامه طريقة دمج الوعي الصناعي الأسمى في شريحة الكريمن الخاصة بي، بل وحتى دمج وعي ثالث داخلها إن اقتضى الأمر.

ثم تنهدت، وتابعت:

- لذا بقاء شريحة التطبيق طويلة الأمد في عنقي مهم للغاية، كي أسيطر من خلال شبكة التطبيق على نزار والمينتو الذين يصنعهم، وأجعلهم يدمِّرون أنفسهم بأنفسهم، حتى يستعيد كل جسدٍ بشري وعيه الأصلي المطموس.

فسألها يحيى مترقبًا:

- هذا يعني أنكِ مينتو الآن؟!

قالت:

- لا، لم يندمج لينو الوعي الصناعي الأسمى في شريحة الكريمن الخاصة بي بعد، لأن ببساطة الشريحة الدقيقة التي تحتوي على ذلك الوعي ليست معي، وإنما معك أنت.

سألها متعجبًا:

- معي أنا؟! كيف؟!

قالت بثبات:

- لقد أعطتك مرام سلسلتي الفضية قبل أن تُسجن معي. أليس كذلك؟

اتسعت عينا يحيى، وهمس:

- الشريحة توجد في تلك السلسلة؟!

هزت رأسها إيجابًا:

- نعم، وضعها أبي في قلادة تلك السلسلة لتبقى معي.

وأردفت:

- من حسن الحظ، أن أبي لم يزرع في وعيي أي أفكار عن الميثنو الأسمى أو تلك الشريحة، وإلا عرف عنها نزار عندما اخترق وعيي، كان الحل الأمثل هو إخباري عبر لينو فقط، لكن طبعًا مع سُباته خلال تلك السنوات، لم أدرِ شيئًا عنها، إلا بعدما استفاق وأنقذني وحدثني عن كل شيء.

فقال يحيى بوجهٍ مضطرب:

- لكن السلسلة ليست معي. إنها لا تزال في ضاحية الغبار.

اتسعت عينا ليان صدمةً، وارتجف صوتها:

- ماذا؟!

فقال يحيى بمرارة:

- لقد كنت أرتديها طوال تلك السنوات، ولم تفارق عنقي، لكن حين بات الهروب مستحيلًا مع تشديد الحراسات في الضاحية، اضطررتُ إلى تركها مع جسدي الأصلي هناك، وانتقلت بوعيي إلى هذا الجسد المستأجَر، على أمل أن تتمكن إحدى نساء الضاحية من إخراج جسدي، بما يحمله من متعلقات، في الأيام القادمة.

وضعت ليان يدها على جبينها تفكر، فأردف يحيى:

- لديَّ قلادة رقمية احتياطية هنا في هذا البيت، يمكنني الولوج عبرها إلى حسابي في تطبيق «جسد»، لأعود فورًا إلى جسدي الأصلي في ضاحية الغبار، وسأحاول الخروج من هناك بأي طريقة ممكنة.

هزّت رأسها رافضةً، وقالت:

- ستكون مجازفةً غير محسوبة، إن عثروا عليك سيقتلونك لا محالة.

فسألتها فريدة:

- ألا يستطيع لينو التسلل إلى هناك لاستعادة جسد يحيى، كما فعل مع جسدك؟

كادت ليان تنطق، لكن يحيى أجاب قبلها:

- كان عنصر المفاجأة في المرة الأولى هو ما جعل لينو ينجح في تحرير جسد ليان، أما الآن ومع حالة التأهب التي فرضها نزار ونجلاء في الضاحية، فلن يتمكن من الدخول إلى هناك والخروج سالمًا.

أومأت ليان متفقة معه. ثم ساد صمت قصير، قبل أن تسأل يحيى:

- كم من الوقت قالت لك تلك المرأة إنها تحتاج إلى إخراج جسدك؟

قال يحيى:

- ثلاثة أو أربعة أيام.

فقالت:

- فلنسّا إلى السرعة التي سيعمل بها نزار، فهذه مدة طويلة، أفكر في الخروج إلى الناس عبر وسائل التواصل الاجتماعي لأكشف لهم ما ينتظرهم، لعلهم يسارعون إلى تفتيت شرائح التطبيق المزروعة في أعناقهم.

ثم أضافت بهدوء:

- لن أذكر شيئًا عن «المينتو الأسمى» كي لا يأخذ نزار أي حذرٍ، حتى تحين اللحظة التي نستعيد فيها السلسلة فأنقشُ عليه وعلى المينتو الذين صنعهم.

قالت فريدة في حماس:

- أرى أن هذا هو الحل الأمثل الآن.

فتابعت ليان:

- لدى لينو ملفات موثقة عن مشروع المينتو: صور وفيديوهات كثيرة لكل المراحل التي مرَّ بها المتطوعون السبعة الأوائل، يمكننا استخدامها لتعزيز قصتنا.

همس يحيى:

- رائع.

ثم نظر إلى لينو، وسأله:

- هل تستطيع إرسال هذه الملفات إلى قلادة فريدة؟

أومأ الروبوت إيجابًا، فالتفت يحيى إلى فريدة، كي تقرِّب قلادتها من صدر لينو، غير أنه فوجئ بها تحدِّق إلى شاشة معصمها بدهشة بالغة، قبل أن تكبر تلك الشاشة وتحركها إلى الهواء أمامها، فسألها:

- ما الأمر؟

فقالت في توتر وهي تتنقل بين الأيقونات بسرعة:

- جميع تطبيقات التواصل الاجتماعي تعطلت دفعة واحدة!

اقترب يحيى منها ونظر إلى شاشتها، وحين تأكد من الأمر، تحرك إلى خزانة قريبة، وأخرج منها القلادة البيضاوية الاحتياطية التي كان يحتفظ بها هناك، ثم ولج إليها باستخدام خاصية الرقم السري، وحاول الدخول إلى تطبيقات التواصل الاجتماعي، لكنه فشل هو الآخر، فرفع عينيه إلى الآخرين وقال:

- لطالما يسبقنا ذلك الخبيث بخطوة.

فقالت فريدة:

- قد تكون قنوات الأخبار وسيلةً بديلةً لنشر الأمر، لكن كما تعرفون، تعتمد تلك القنوات على الإثارة من أجل تحقيق أكبر مكاسب مادية ممكنة، سيعلنون عن لقاء ليان قبلها، وحينها سيتمكن نزار من إيقاف البث قبل أن تنطق بكلمة واحدة.

فقالت ليان باستسلام:

- هكذا، لم يعد أمامنا سوى انتظار نجاح امرأة الضاحية في إعادة جسد يحيى إلينا.

أومأت فريدة ويحيى في صمت، لكن السيد عزيز قال:

- أعتقد أن هناك وسيلة أخرى قد تساعدكم في الوصول إلى أغلب سكان هذا البلد.

نظروا إليه مترقبين، فأكمل:

- لقد نجح أصدقاء ابنتي لميس قبل عشر سنوات في الحصول على قاعدة بيانات مشتركي شركة الاتصالات الوطنية كي يرسلوا إليهم رسائلهم المصوَّرة المناهضة لتطبيق جسد. أعتقد أن تلك البيانات لا تزال بحوزة أصدقاء لميس القدامى.

قال يحيى مذهولًا:

- ألم تكن ضائعة، كما أخبرتني أمي؟!

هزّ جده رأسه نافيًا، وقال:

- أبدًا، لقد حصلوا عليها بالفعل، لكن الرقابة الأمنية التي فُرضت عليهم حينها منعتهم من استكمال تلك الخطة، أخبرتني أمك أن القائمة كانت بحوزة صديقيها: سمير إسكندر وفارس طلال.

ثم أردف:

- لا أعرف أين يعيشان الآن، لكن أرقام التواصل معهما توجد في هاتف أمك القديم، الذي احتفظتُ به منذ اعتقالها في تلك السنة، إنه في جيب معطفي الرمادي، داخل خزانة الثياب في غرفة نوم الطابق العلوي.

فاندفع يحيى نحو السلم وصعد مسرعًا إلى الطابق العلوي، وبعد دقيقتين عاد بالهاتف القديم ووجهه يفيض بالفرح، قبل أن يسأل جده في لهفة:

- أين شاحن هذا الهاتف؟

أجابه جده بأسف:

- للأسف لم تعطني أمك إلا الهاتف.

انجمدت الفرحة على وجه يحيى، ووضع الهاتف على الطاولة أمامهم، وهو يقول بخيبة أمل:

- إنه مُغلق لنفاد بطاريته، ولا أعتقد أننا سنجد شاحنًا مناسبًا لهذا الطراز من البطاريات في أي مكانٍ الآن.

لخيّم الصمت على وجوههم وهم ينظرون إلى الهاتف في حسرة، حتى نطق ليتو فجأة بصوته الآلي، وهو يخرج موصِلَ طاقة رفيعًا من صدره المعدني:

- أستطيع شحن هذا النوع من الهواتف.

(24)

بعد دقائق من توصيل لينو موصِلَ الطاقة بالهاتف، أضاءت شاشته الصغيرة وأطلق صافرة التشغيل. فأمسك يحيى بالهاتف من يد لينو، ونظر إلى جده وسأله:

- ما كلمة السر؟

أجابه جده:

- هي نفسها كلمة سر خزينة شقة أمك: تاريخ أول استخدام فعلي لتطبيق جسد.

أدخل يحيى الأرقام، فانفتح نظام الهاتف. فولج إلى قائمة الأسماء، وأخذ يقلّب فيها بإصبعه وهو يردِّد الاسمين في سرِّه: سمير إسكندر، فارس طلال، حتى توقف فجأة قائلًا:

- يوجد اسم «سمير»، لكن دون لقب «إسكندر».

فقال جدُّه:

- لا بدَّ أنه هو. أكدت لي أمك أنَّ اسميهما محفوظان في هذا الهاتف.

أومأ برأسه، ثم واصل البحث حتى وجد الاسم الآخر، فابتسم وقال:

- وجدتُ الثاني: فارس طلال.

وعلى الفور نقر زر الاتصال بجواره، فجاءه الرد المسجَّل:

- الهاتف مغلق، يرجاء الاتصال في وقت لاحق.

عاد إلى اسم سمير، وضغط الاتصال، فجاءه الرد نفسه. فضمَّ شفتيه في يأس، فقالت فريدة محاولة طمأنته:

- لا تقلق، يمكنني الوصول عبر هذين الرقمين إلى عنوانيهما. فقط أرسل لي الرقمين، وسأذهب إلى مقر عملي للقاء صديقٍ لي يعمل في مراقبة الاتصالات، يمكنه مساعدتي في هذا الأمر.

ثم قرّبت قلادتها من صدر لينو وقالت له:

- أرسل لي الملفات الخاصة بمشروع المينتو.

أومأ الروبوت إيجابًا، فالتفتت فريدة إلى ليان وقالت:

- أريدك أن تصوِّري مقطعًا مصوَّرًا ترويين فيه كل ما حكاه لكِ لينو، وكل ما مررتِ به منذ بداية التلاعب في وعيك حتى لحظة إنقاذ لينو لكِ، دون ذكر أمر «المينتو الأسمى»، كما اتفقنا. وأرسلي لي هذا المقطع، سأدمجه مع الصور والفيديوهات التي يرسلها لينو الآن، والفيديو الذي ظهر به نزار في محطة العاصمة وهو يستقل القطار الغريب وحيدًا، لأصنع مقطعًا شاملًا يُقنع صديقَي السيدة لميس بإعطائنا قائمة بيانات مشتركي شركة الاتصالات، ومن ثم ننشر المقطع نفسه إلى قلائد المشتركين المُدوّنة أرقامهم في تلك القائمة.

قالت ليان موافقة:

- حسنًا، سأصوِّر المقطع وأرسله لك.

فأومأت فريدة، ثم تأكدت من اكتمال نقل ملفات لينو إلى قلادتها، ففتحت شاشتها وولجت إلى تطبيق سيارات الأجرة، وقالت:

- حمدًا لله، لم يُعطَّل تطبيق سيارات الأجرة هو الآخر، وهناك سيارة في الجوار.

وحجزت السيارة وتابعت:

- سأذهب الآن قبل أن ينتهي وقت الدوام الرسمي، عليّ أن ألحق بصديقي قبل أن يغادر مكتبه.

ثم تركتهم وغادرت، فالتفتت ليان إلى لينو وقالت:

- هل يمكنك أن تسجّل لي مقطعًا مصورًا؟

فأجاب بصوته الآلي، بينما تنفتح راحة يده اليمنى ببطء، كاشفةً عن عدسة كاميرا بداخلها:

- بالطبع سيدتي.

ثم أدار ذراعه لتصبح العدسة مواجهةً لها، وقال:

- حين تكونين مستعدة، سأبدأ التصوير.

●●●

جلسَت ليان على مقعدٍ خصّصه لها يحيى، ووقف لينو أمامها كوحدة تصوير ثابتة. فيما جلس يحيى وجدُّه على بُعدٍ يستمعان إليها وهي تروي قصتها.

في تلك الأثناء، تسلّل إلى عقل يحيى خاطرٌ مقلق: مَن ستكون ليان بعد التخلص من نزار؟ هل ستعود بشرية كما يعرفها؟ أم ستصبح مينتو آخر بوعي صناعي يسيطر عليها؟

ودّ لو قاطعها وسألها، لكنه صمت، واكتفى بمتابعتها وهي تسجّل. حتى أنهت المقطع، وأمرت لينو أن يرسله لفريدة. فسألها يحيى بصوتٍ متردد:

- ماذا لو سيطر «المينتو الأسمى» على وعيك البشري؟

ابتسمت مازحة:

- نتخلص من نزار أولًا، بعدها نفكّر في أمري.

قال:

- أتكلم بجدية، يا ليان.

فقالت بنبرة المزاح نفسها:

- تخشى أن أتطرف أنا الأخرى؟

أجاب:

- لا أقصد ولكن...

قالت:

- التطرف الذي يُصيب المينتو نابع من جذور التطرف والعنف في الوعي البشري الذي يندمج معه في شريحة الكريمن. لذلك اختار نزار رجال ضاحية الغبار ليكونوا بعنفهم الفطري نواة جيش المينتو الذي يمكّنه من أهدافه الخبيثة.

تذكر يحيى ما روته له فاطمة عن أن المينتو الخاص بها استخلص الصفات الحميدة من وعيها البشري. بينما أردفت ليان بصوتٍ هادئ:

- لا تقلق يا يحيى. إن فطرتي نقية، غير شريرة. سأدمج المينتو الأسمى مع وعيي، وسأطوّره لأستفيد من قدرته على التحكم في بقية المينتو فحسب. وعندما يتم الأمر، سيفصله لينو عني، إنه يعرف كيف يفعل ذلك. لا تقلق، لقد وضع أبي كل شيء في الحسبان.

وابتسمت وهي تتابع:

- سأقضي على نزار وجيشه، وسأعود إليك بشرية كما كنت دائمًا.

فابتسم يحيى، وقد بدا وكأن حملًا ثقيلًا انزاح عن صدره.

●●●

بعد ساعتين، استقبلت قلادة يحيى الاحتياطية اتصالًا من فريدة. قالت:

- حصلتُ على بيانات الرجلين، فارس طلال مات منذ عامين، وسمير إسكندر يعيش في حي «الفنار»، حيث تضطرب خدمة الاتصالات منذ أربعة أيام بسبب الأعطال المتكررة في أبراج الاتصالات هناك لذلك كانت تأتيك رسالة بأن هاتفه مغلق.

ثم أضافت بحماس:

- سأحرّر فيديو ليان اليوم وأدمجه مع الصور والفيديوهات التي أرسلها لي لينو، وفيديو نزار في محطة القطار، وغدًا سأذهب إلى ذلك الرجل لأقنعه بتسليمنا تلك القائمة.

سألها:

- ألا تريدينا أن نأتي معك؟

أجابته:

- دعني أقوم بالأمر، وإن لم أنجح في إقناعه سأطلب منكما المجيء.

قال:

- حسنًا.

ثم أنهى الاتصال، وحكى لليان ما وصلت إليه فريدة، فأومأت متمنيةً لها التوفيق في الغد.

***

في العاشرة من صباح اليوم التالي، هاتفت فريدة يحيى وهي في الطريق إلى حي الفنار، وحين سألها عن سبب الإرهاق الواضح في صوتها، أجابته بأنها لم تنم طوال الليل لتُنهي تحرير فيديو ليان، ثم أضافت متحمسة:

- سيُحدث هذا الفيديو ضجةً عارمة بين المواطنين فور انتشاره، أعتقد أن الناس لن يكتفوا بتفتيت شرائحهم فحسب، بل سيحاصرون فروع تطبيق «جسد» لإيقاف عمل التطبيق.

قال:

- أتمنى ذلك حقًّا.

فقالت:

ثلاثٌ وعشرون دقيقة.

سألها:

- ألا يمكنك تقصيره عن ذلك؟

قالت:

- حاولت، لكن كل دقيقة مهمة. خاصةً للقطات المتطوعين السبعة في مختبر السيد كرم.

ثم تابعت ضاحكة:

- الغريب أن نزار كان أكثرهم وسامة، وكان عازف تشيلّو أيضًا. هناك صورة له وهو يعزف بتركيزٍ شديد لفتاةٍ تجلس بجواره. يبدو أنه كان مرهف الحس.

فقال يحيى:

- لا تُظهر الصور حقيقة الأشخاص. ربما كان عازفًا منبوذًا، يكره الناس من أعماقه.

قالت:

- ربما.

ثم أردفت:

- لقد أرسل لي لينو صورًا كثيرة للمتطوعين مع أهاليهم قبل اختيارهم ليكونوا نماذج الميثتو. لو كان لدينا وقت كافٍ، لبحثنا عن أولئك الأهالي لعلهم يتحدثون عن اختفاء أبنائهم قبل أكثر من عشرين عامًا.

فقال يحيى:

- وهل ستستطيعين الوصول إليهم بعد كل هذه السنوات؟

ردّت:

- ببصمة الوجه أستطيع الوصول إلى أي شخص مُسجّل في قاعدة بيانات النظام الأمني للمدينة.

فقال:

- لنركّز الآن على السيد «سمير»، وبعدها نفكّر بأمرهم.

بعد ذلك، بدأ الاتصال يضطرب، فأدرك يحيى أنها دخلت نطاق حي الفنار، فصاح يحيى إليها لعلها تسمعه:

- سأنتظر منك مكالمة حين تخرجين من ذلك الحي.

بعدها انقطع الاتصال.

●●●

مضت ساعةٌ بعد أخرى، ويحيى وليان والسيد عزيز ينتظرون مكالمة فريدة، وكلّما حاول يحيى الاتصال بها، جاءته الرسالة ذاتها: «الهاتف مغلق».

ثم بدأ القلق يتصاعد على ملامح يحيى، خشية أن يكون قد أصابها مكروه، فقالت ليان محاولةً طمأنته:

- لعلّها لا تزال داخل ذلك الحي.

لتكمل الساعات مضيها دون حدوث أي جديد، حتى صاح السيد عزيز فجأة بعدما لاحظ شيئًا غريبًا على شاشة التلفاز القديم الذي لم يكن ينتبه إليها غيره:

- انظرا!

التفت يحيى وليان إلى الشاشة، التي كانت تعرض مباراة قبل نهائي كأس المدينة لكرة القدم، وسأله يحيى بتعجب:

- ما الأمر؟

فأوقف جده البث عبر جهاز التحكم عن بُعد، وأعاد اللقطة ثواني إلى الوراء، ثم نهض وتحرك نحو الشاشة وأشار إلى أحد المشجِّعين الذي كان يلتفت نحو شخص خلفه:

- انظروا إلى رقبته!

كان الوميض الأحمر ظاهرًا على رقبة ذلك المشجع، فقالت ليان:

- مشجِّع في جسدٍ مؤجَّر، ماذا به؟

فأعاد السيد عزيز تشغيل البث، فوجدا وميض رقبته الأحمر يومض بسرعة بالغة قبل أن يختفي تمامًا، فدق قلب يحيى منتفضًا، فيما احمرَّ وجه ليان اضطرابًا.

بعدها، أعاد السيد عزيز المباراة من البداية، وبحث عن لقطات أخرى للجماهير. ليكتشفوا في كل مرة شخصًا جديدًا يحدث معه الأمر ذاته، حتى وصل عدد من خفت وميض رقابهم خلال الثواني القليلة التي التقطتها الكاميرات للجماهير إلى تسعة أشخاص بينهم ثلاثة من رجال الشرطة الواقفين أمام المدرجات. ليهمس يحيى إلى ليان بوجهٍ شاحبٍ هربت الدماء منه:

- لقد بدأ نزار في غزو المدينة.

(25)

قبل ساعاتٍ قليلة:

كانت لافتةُ الترحيب الضوئية للقادمين إلى حيِّ الفنار قد ظهرت في مرمى بصر فريدة، حين بدأ اتصالها بيحيى يضعف، قبل أن ينقطع تمامًا مع دخولها الحيَّ وانقطاع الإرسال عن قلادتها كليًّا.

كان حيُّ الفنار أبعدَ أحياء المدينة شمالًا، ولسببٍ غير مفهوم كانت أبراج الاتصالات فيه تتعرض لأعطالٍ شبه دائمة، ما دفع أغلب سكّانه إلى الاعتماد على شبكةٍ أرضيّة قديمة للهواتف، لكن ما لم تضعه فريدة في الحسبان أن توقُّف الإرسال سيجعل السيارة ذاتيّة القيادة تتوقّف على جانب الطريق لعجزها عن التقاط خطّ السير من القمر الصناعي المخصّص لخرائط هذا النوع من الأنظمة، فاضطُرَّت إلى النزول من المقعد الخلفي، وجلست خلف مقود السيارة لتكمل الرحلة يدويًّا، محاولةً الاهتداء عبر لافتات الشوارع إلى عنوان السيد «سمير إسكندر» الذي زوّدها به صديقها: حي الفنار-قطعة 3- شارع 5 - منزل رقم 20.

***

حين وصلت إلى البيت الذي تقصده، طرقت الباب برفق، ففتحت لها سيدةٌ ثلاثينية، بدا من ثيابها أنها مدبِّرة المنزل. سألتها فريدة عن السيد سمير، موضحةً أنها تحتاج إليه في أمرٍ مهم. فأجابتها المرأة متعجبةً:

- إنه محجوزٌ في مستشفى الحي منذ أكثر من شهر، تبعد المستشفى ثلاثة شوارع من هنا، ستجدينه في جناح الأمراض العصبيَّة، الطابق الرابع، غرفة رقم 6.

شكرتها فريدة، وعادت إلى السيارة واتَّجهت إلى المستشفى. وهناك صعدت مباشرةً إلى الطابق الرابع، ثم تقدمت إلى الغرفة المقصودة وفتحت الباب على مهل. فوجدت الرجل مستلقيًا على السرير، عيناه مغمضتان، شعره أشعث، ثنايا جبهته بارزة بوضوح، وجسده الهزيل موصولٌ بأسلاك الشاشات وأنابيب المغذيات الوريديَّة.

اقتربت ووقفت بجوار سريره وهمست:

- سيِّدي.

فتح الرجل عينيه ببطء. فابتسمت فريدة وقالت:

- مرحبًا.

أخذ بعض اللحظات كي يثبِّت نظره عليها، وحين استقرَّت عيناه على عينيها قالت:

- جئتُ إليك بناءً على توصية من والد السيدة لميس الشريف، زميلتك القديمة في الحركة المناهضة لتطبيق «جسد».

أغلق الرجل عينيه مرة أخرى في وهنٍ شديد، فأدركت في داخلها أن شخصًا بهذه الحالة لن يملك القوَّة الذهنيَّة لاستيعاب أمر «الميتي»، وربما لن يتذكر شيئًا عن قائمة مشتركي شركة الاتصالات أصلًا. لكنها نادته مرةً أخرى:

- سيدي.

فتح عينيه مفزوعًا وحدَّق إلى وجهها. فقالت، وهي تنظر إلى عينيه:

- هل ما زلت تؤمن أن تطبيق «جسد» سرطانٌ خبيث يجب استئصاله من مجتمعنا؟

لم يبدِ الرجل أيَّ ردِّ فعل، وحوَّل عينيه نحو ركن الغرفة كأنها غير موجودة.

في تلك اللحظة، دخلت الغرفة طبيبةٌ شابّة ترتدي المعطف الأبيض، وسألت فريدة باستغرابٍ عن سبب وجودها. فارتبكت فريدة وقالت إنها جاءت من طرف صديقةٍ قديمة للسيد سمير، فقالت الطبيبة بهدوء:

- لا تتعبي نفسكِ، أبي لن يتذكّر أحدًا من أصدقائه. إنه يُعاني خللًا بالذاكرة مع إصابته بألزهايمر.

اتّسعت عينا فريدة حين علمت أن تلك الطبيبة ابنته، ثم لمحت اسمها على بطاقة التعريف: منال سمير إسكندر، فقالت لها:

- دكتورة منال، لقد جئتُ إلى والدك من أجل شيء مهم للغاية. هل حكى لكِ شيئًا عن قاعدة بيانات شركة الاتصالات الوطنيّة التي حصل عليها هو وأصدقاؤه قبل عشرة أعوام؟

حدّقت منال إليها بتوجُّس، ثم قالت مدافعةً عن أبيها:

- لم يسرق أبي تلك القائمة، وقد برّأته المحكمة من تلك التهمة وقتها، كان أبي من أعظم مهندسي الروبوتات في هذا البلد.

فقالت فريدة:

- أعرف عن حكم البراءة الذي حصل عليه، لكن والد السيدة لميس الشريف، «أم الأخلاقيات»، أكّد أنهم حصلوا عليها بالفعل، وبقيت في حوزته وحوزة رجلٍ آخر تُوفّي قبل عامين.

ثم أضافت برجاء:

- إننا في حاجةٍ ماسّة إلى تلك القائمة كي نتمكن من إنقاذ الكثيرين من أهل هذا البلد من شرٍّ مُطبق سيصيبهم إن لم يفتّتوا شرائح أعناقهم.

ثم صمتت لحظة، وتابعت:

- لدينا رسالة نريد إرسالها عبر تلك القائمة لتصل إلى أكبر عدد ممكن من المواطنين، خصوصًا مع توقُّف تطبيقات التواصل الاجتماعي عن العمل بالأمس.

فقالت منال بابتسامة خفيفة:

- لقد عُزلنا عن العالم منذ أربعة أيام لانقطاع خدمة الاتصالات، لذا لا أعلم شيئًا عن توقُّف تلك التطبيقات.

قالت فريدة بجدِّية:

- هناك ذكاءٌ اصطناعي في طريقه للسيطرة على أوعاء البشر عبر تطبيق «جسده». وإذا لم نُحذِّر الناس سيفقد مئات الآلاف أجسادهم وأوعاءهم خلال أسابيع قليلة.

فتنفَّست منال بعمق وقالت:

- للأسف، لم يخبرني أبي شيئًا عن تلك القائمة. وكما ترين، لا أظن أنه قادرٌ على تذكُّرها الآن. الشيء الوحيد الذي يتذكره هو أسماء أدواته التي كان يستخدمها في صيانة الروبوتات، حتى إننا أحضرنا حقيبة أدواته هنا لعلَّ وجودها بجانبه يساعده على استرجاع أي جزءٍ من ذاكرته.

نظرت فريدة إلى حقيبة الأدوات الموضوعة فوق طاولةٍ قريبة من سرير السيد سمير، ثم أومأت مستسلمةً، وهمَّت بالمغادرة، لكن منال أوقفتها في اللحظة الأخيرة، قائلة:

- إن كان الأمر مهمًّا للغاية كما يبدو على وجهك، وتريدين نشره، ولا تعرفين مع توقُّف تطبيقات التواصل الاجتماعي في المدينة فيمكنك بثُّه داخل حي الفنار عبر الشبكة المحليَّة. وأظن أنه سينتشر شيئًا فشيئًا إلى الأحياء الأخرى.

فقالت فريدة مستغربةً:

- عفوًا، لا أفهمك.

قالت منال:

- بسبب الأعطال المتكرِّرة في أبراج الاتصالات هنا، اعتمد سكَّان الحي على شبكة تواصلٍ محلية، أنشأها أحد المهندسين، مستخدمًا أسلاك الاتصالات الأرضية القديمة الممتدة بين أبنية هذا الحي.

صحيح أن هذه الشبكة لا تتصل بالفلاك أو الهواتف الحديثة، لكنها تصل بين أجهزة الحواسيب الموجودة في كل منزل هنا تقريبًا. كل ما عليكِ هو أن ترسلي رسالةً من أحد تلك الحواسيب، وستصل إلى بيوت الحي جميعها في نفس اللحظة.

يمكنك البدء من هذا الحي، حتى تجدي حلًّا لبقيَّة الأحياء.

اتسعت حدقتا عيني فريدة مما نطقت به منال. ففي داخلها كانت قد أيقنت أنها لن تصل إلى قائمة الاتصالات التي جاءت من أجلها، لكن مع ذلك الاقتراح المفاجئ، جال في ذهنها أن بث فيديو ليان في هذا الحي قد يكون شرارة انتشاره إلى سائر الأحياء، فسألتها بلهفة:

- كيف ألِجُ إلى هذه الشبكة؟

فابتسمت منال، وقالت:

- يمكنك الدخول من حسابي. لكن لا بد أن أرى محتوى الرسالة التي تنوين بثَّها أولًا، لأقرِّر إن كانت تستحقُّ النشر، أم ستُعرِّضني لمسؤولية قانونيَّة لا أريد التورُّط فيها.

فقالت فريدة:

- سترين بنفسك خطورة ما نحن مُقبِلون عليه.

بعدها، ضغطت زرَّ قلادتها، وكبَّرت شاشة معصمها وتَقدمتها إلى الهواء أمامها، ثم ولجت إلى إحدى الأيقونات وشغَّلت الفيديو المحفوظ بداخلها فظهرت ليان وهي تحكي قصتها.

●●●

مع كل كلمة كانت تنطق بها لبان كانت علامات الدهشة تزداد على وجه منال. وبعد دقائق دخلت ممرضتان للعناية بالسيد سمير، وما إن أنهتا عملهما حتى وقفتا خلف منال تُتابعان باهتمام، ثم نادتا زملاءهما بالعمل. لتكتظ الغرفة بالممرضين مع وصول الفيديو إلى منتصفه.

كانت فريدة تُراقب ملامح المتجمّعين في الغرفة، إذ ارتسم الذهول الممزوج بالخوف على وجوههم جميعًا. ثم رأت بعضهم يرفعون أيديهم إلى أعناقهم لا إراديًا، يتحسّسون موضع الشريحة، قبل أن يتبادلوا النظرات في قلقٍ صامت، وكأنهم شعروا فجأة أن حياتهم معلّقة بخيط رفيع قد ينقطع في أي لحظة. عندها غمرها يقين داخلي بأن الفيديو لن يتوقف عند هذا الحي، بل سيشق طريقه لا محالة إلى بقية الأحياء، حتى لو انتقل مباشرةً من شخصٍ إلى آخر حتى يصل إلى الجميع. ونظرت إلى قلادتها متمنيةً أن تكون قد التقطت إشارةً لعلها تهاتف يحيى وتخبره بأنها لم تحصل على القائمة. لكن الله أرسل لهم طريقًا آخر لنشر الفيديو، بل ورأت بعينيها صورة مبكرة لردود أفعال الناس حين يعرفون مخطط نزار. إلا أن القلادة ظلّت بلا إشارة.

ثم فجأة، ودون مقدّمات، صاحت إحدى الممرضات وهي تُشير إلى الشاشة:

- هذه السيدة أعرفها!

كان الفيديو وقتها يعرض صورة نزار وهو يعزف إلى المرأة بجواره. فالتفتت فريدة فورًا نحو الممرضة، وسألتها:

- هل تسكن هذه المرأة هنا في الحي؟

قالت الممرضة:

- نعم، اسمها السيدة «ليندا». أصيبت ابنة أختها التي تعيش معها بالتهابٍ رئوي قبل أشهر قليلة، وحُجزت هنا في المستشفى، وأنا كنت ضمن فريق التمريض المشرف عليها.

سألتها فريدة:

- هل تستطيعين الوصول إلى عنوانها؟

تردّدت الممرضة قليلًا ثم قالت:

- أعتقد ذلك.

فسألت منال فريدة:

- فيم تفكّرين؟

قالت فريدة:

- نحتاج إلى دعم كلّ من تضرّر أحبّاؤهم من ذلك المشروع.

فهزّت منال رأسها، ثم قالت:

- إن كانت تعيش في هذا الحي فعلًا، فستكون قد رأت هذا الفيديو قبل أن تصلي إليها.

ثم أخرجت من حقيبتها حاسوبًا محمولًا صغيرًا، ووصّلته بسلكٍ تصير في مقبس الجدار، وهي تقول باسمة:

- يتصل المستشفى بشبكتنا المحلية.

ثم رفعت عينيها إلى فريدة، وتابعت بحماس:

- أرسلي لي الفيديو، سيصل إلى كل بيتٍ في هذا الحي خلال دقائق.

فانفرجت أسارير فريدة، وأومأت شاكرة. بينما ظلت علامات الذهول والاضطراب على وجوه الحاضرين. فقالت لهم فريدة: مَن يستطِع نشر الفيديو لا يتأخر عن فعل ذلك. فغادروا شاردين وكأنهم لم يتجاوزوا الصدمة، ومنهم من وضع يده على رقبته وركض في ممرات المستشفى كأن يبحث عن جرّاح يخلصه من شريحته. أما الممرضة التي تحدّثت عن السيدة التي ظهرت بجوار نزار، فذهبت لتحضر عنوانها من قسم سجلات المرضى، ثم عادت بعد نحو نصف ساعة ومعها العنوان في

ورقةٍ صغيرة. فشكرتها فريدة بحرارة، وشكرت الطبيبة منال، ثم غادرت مسرعة إلى ذلك العنوان.

●●●

حين وصلت فريدة إلى البيت المقصود طرقت الباب. ففتحته طفلةٌ في الخامسة أو السادسة من عمرها. فابتسمت فريدة لها، وقد خطر في بالها أنها ابنة أخت السيدة ليندا التي تحدثت الممرضة عن مرضها قبل أشهر، وسألتها بلطف:

- هل السيدة ليندا موجودة؟

فأومأت الطفلة إيجابًا، ثم ركضت إلى الداخل، وبعد لحظات ظهرت السيدة ليندا. كانت أكبر مما بدت في الصورة: امرأة رشيقة القوام في أوائل الأربعينيات، رقيقة الملامح، ومريحة الوجه على نحوٍ غير مألوف، لكن الارتباك كان واضحًا عليها كأن شيئًا عصف بداخلها للتوّ. نظرت إلى فريدة باستغراب وسألتها بهدوءٍ حذر:

- من أنتِ؟

قالت فريدة:

- هل رأيتِ الفيديو المنتشر على الشبكة المحليّة الآن؟

أومأت ليندا إيجابًا في صمت. فأدركت فريدة أن توترها الواضح بسبب ما شاهدته. وتابعت:

- أنا من أرسلتُ الفيديو للطبيبة منال كي تنشره داخل الحيّ، وقد دلّتني إحدى الممرضات على عنوانكِ بعد أن تعرّفت عليكِ في إحدى الصور بالفيديو. هل يمكننا التحدث لبعض الوقت عن هذا الأمر؟

فحدّقت إليها للحظات، ثم أفسحت لها الطريق مشيرةً بالدخول.

●●●

في ردهة البيت جلستا متقابلتين. تترقب كل واحدة وجه الأخرى، حتى نطقت فريدة:

- أعتذر عن ظهور صورةٍ لكِ بالفيديو دون استئذانك، لكن الأمر خطير للغاية.

قالت ليندا والاضطراب لا يزال منطبعًا على وجهها:

- رأيتُ الفيديو، وأتفهم سبب وضعك للصورة به.

ثم أردفت بصوتٍ منخفض:

- لم أكن أتخيل أن نزار لا يزال على قيد الحياة.

قالت فريدة:

- للأسف نظريًا لم يعد الشخص نفسه الذي عرفتِه سابقًا، لقد استولى على وعيه الوعيُ الصناعيُّ الذي دُمج معه قبل سنواتٍ طويلة، لمّا جسده الأصلي فمات في انفجار المعمل، كما حكت ليان في الفيديو.

تساقطت الدموع في صمت على وجه ليندا. فسألتها فريدة بلطف:

- كان حبيبك، أليس كذلك؟

هزّت ليندا رأسها إيجابًا، ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- عرفتُ نزار وأنا في السابعة عشرة. كان يكبرني بثلاث سنوات، وبدأت بيننا قصة حبٍّ عميقة، حلمنا أن تنتهي بالزواج.

كان مرهف الحسّ، عازفًا من الطراز الرفيع، يعزف على التشيلّو وكأن روحه تسكن بين أوتاره، إلا أنه لم يكن مشهورًا بقدر الموهبة التي يمتلكها.

ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة وهي تتابع:

- ذات صباحٍ جاءني متحمسًا، وأخبرني أنه ألّف معزوفةً جديدة، قال إنها جاءته في المنام وهو يعزفها لي، فاستيقظ في منتصف

الليل ليسجِّلها وهو يتخيّلني أمامه. ثم بدأ يعزفها لي، فشعرتُ بسحرٍ لم أشعر به من قبل، إذ لم أسمع لحنًا بتلك العذوبة في حياتي، حتى فاجأني بعد انتهائه بأنه سمَّاها «من أجل ليندا».

في ذلك اليوم طلبتُ منه أن يعرضها على الجمهور يقينًا مني بأنها ستحوِّل حياته وستفرض موهبته على الجميع، لكنه رفض قائلًا: «هذه المقطوعة سكنت أعماق وعيي من أجلكِ، ولن يسمعها غيركِ». فقلت له مازحةً بأنني سأتعلم عزفها وسأنقلها إلى الجمهور نيابةً عنه، فأجابني ضاحكًا بأن أفعل ذلك إن استطعت.

كنتُ طالبة جديدة بمعهد الموسيقى في ذلك التوقيت، وحاولتُ كلما تقابلنا أن أعزف أمامه المقطوعة لأثبت له أنني أستطيع عزفها بنفس براعته، لكني كنت أفشل فشلًا ذريعًا، فلم يكن منه سوى أن يضحك ويعزفها أمامي مجددًا، محاولًا تعليمي إياها، ومع ذلك لم أستطع فعلها بنفس براعته أبدًا.

ورفعت عينيها إلى فريدة، وأردفت:

- تلك الصورة التي رأيتموها في الفيديو التقطها لنا مصوِّر عابر في أحد الأيام بينما كان نزار يعزف لي تلك المقطوعة.

ثم تنهدت، وقالت بصوتٍ يطغى عليه الحزن:

- كانت حياتنا مثالية في كل شيء، وكنا نخطو خطوةً وراء خطوة نحو حلمنا بالزواج، لكن كل شيء انقلب فجأة رأسًا على عقب.

ثم عضّت على شفتيها محاولةً تمالك نفسها، قبل أن تتابع:

- عُطلٌ مفاجئ في نظام القيادة الآلية لسيارة أجرة كان يستقلها نزار، أدّى إلى انحراف السيارة عن المسار وسقوطها من فوق أحد الجسور. تسبب ذلك الحادث في بتر ذراعه اليمنى، فصار حلم الموسيقى مع جسده الأصلي بعيد المنال. ليس هذا فحسب،

بل كُسرت جمجمته في الحادث نفسه وأصيب الفصُّ الأماميُّ من مخِّه. فتغيّر سلوكه فجأة، ليصبح حادًّا، متقلبًا، عدوانيًّا على غير طبيعته. وحينها للأسف بدأ الجميع يتخلَّون عنه واحدًا تلو الآخر، أصدقاؤه وأهله. فبقيتُ وحدي إلى جواره، أحاول أن أذكّره بأنه ما زال هو. لكنه كان يغلق على نفسه أكثر فأكثر. وصار يردِّد بمرارة: «لو كنتُ غنيًّا لتركتُ هذا الجسد العليل، واستأجرتُ جسدًا جديدًا، أعود به كما كنت».

كنت أجيبه دامعة: «أريدك أنت، لا غيرك. حتى بضعفك». لكنه لم يتوقف قط عن ترديد تلك الأمنية. بل وطرق جميع أبواب كل من تخلَّوا عنه لعلَّهم يقرضونه مالًا يستأجر به جسدًا، لكنهم أوصدوا جميع الأبواب في وجهه، فازداد كرهه للناس. وصار يراهم سبب مأساته.

مع ذلك لم أيأس. جمعتُ مبلغًا من المال، وأخذتُه إلى طبيبٍ نفسي بعينه على الخروج من براثن الاكتئاب التي علق بها، ويساعده على التأقلم مع حياته الجديدة. لكني لم أكن أعلم أن تلك الخطوة ستأخذنا إلى منعطفٍ مفاجئ لم أضعه في حسباني.

ففي إحدى الجلسات، وبينما كان نزار ينتظر دوره عند الطبيب النفسي، لمحَه هناك عالِمٌ كان يبحث عن متطوِّعين لمشروعه الجديد. ولفت انتباهه نزار بعدما رأى يده اليسرى تتحرَّك في الهواء كأنه يعزف، بينما كانت عيناه مغمضتين. فدخل ذلك العالِم إلى الطبيب وعرف قصة نزار منه، ثم انتظره بعد الجلسة وقال له: «أستطيع أن أعيد إليك حياتك السابقة، بل وأكثر. موسيقيٌّ ناجح بوعي مطوَّر يعالج نفسه بنفسه، له القدرة على طمس أي علَّة عقلية جانبًا، ويؤهلك لإنتاج غير مسبوق من الإبداع». ودون أن يضيف كلمةً أخرى ترك له بطاقته ومضى.

بعد تلك المقابلة لم يعد نزار كما كان، كان جسده معي، لكن روحه أصبحت معلقة بذلك الوعد الغامض، وحين أخبرني أخيرًا عما قاله له ذلك العالِم وعن رغبته في الذهاب إليه، حاولتُ إقناعه بأننا لسنا في حاجة إلى تلك التجارب، لكنه أصرّ على الذهاب. توسلتُ إليه ألا يذهب، بكيتُ، تشبثتُ بيده، لكنه لم يستمع لي، وذهب.

ثم مسحت دموعها التي سالت على وجنتيها من جديد، وتابعت:

- انتظرت عودته أيامًا، ثم شهورًا، ثم سنوات، كنت خلالها أدرّب نفسي على تعلُّم مقطوعته «من أجل ليندا» على أمل أن أفاجئه بإتقاني لها حين يعود، حتى أتقنت عزفها، لكنه لم يعد.

فقالت فريدة بحزن:

- للأسف، طمس الوعي الصناعي وعيه البشري، ولم يبقَ من نزار الذي عرفْتِهِ إلا كرهه للبشر.

فهزّت ليندا رأسها في صمت، وانهمرت دموعها مرة أخرى، فربتت فريدة يدها بلطفٍ واعتذرت لإيلامها باستعادة تلك الذكريات، ثم قالت:

- هل يمكنني أن أسجّل لكِ مقطعًا مصوّرًا تحكين فيه قصتك مع نزار؟

فأومأت ليندا موافقةً في صمت.

●●●

بعد أن سجّلت فريدة شهادة ليندا، وحفظتها في قلادتها حتى تتّفق مع ليان ويحيى موعد نشرها، غادرت عائدةً إلى قرية الصفصافة.

كان الطريق في تلك الأثناء مزدحمًا للغاية؛ سيارات كثيرة مُكتظة بأناسٍ تومضُ رقابهم بوميضٍ أحمر، بدوا أنهم في طريقهم إلى فروع «جسد» خارج الحيّ لتفتيت شرائحهم بعد انقطاع الاتّصال عن فروع

حي الفنار، سرّها ذلك كثيرًا، فحركتهم الفورية هذه ستنشر الفيديو بسرعة أكبر مما تخيلت بين بقية الأحياء.

ثم التقطت تلابتها الإشارة بعد خروجها من الحي، فأخذت الإشعارات تنهال منها دون توقف. حينئذ، فعّلت القيادة الذاتية لسيارة الأجرة، ثم تفقّدت المكالمات الفائتة، فوجدت عشرات الاتصالات من يحيى، ومن رقم آخر غير مسجَّل لديها.

اتصلت بيحيى أولًا، فجاء صوته مرتبكًا بشدة، فسألته بقلق:

- ماذا هناك؟

أجابها بنبرة الارتباك نفسها:

- لقد بدأ نزار في غزو المدينة. هل حصلتِ على قائمة أرقام مشتركي شركة الاتصالات؟

قالت:

- للأسف وجدتُ الرجل مُصابًا باختلالٍ في الذاكرة ولا يعرف عنها شيئًا، لكنّي حصلتُ على بديلٍ مؤقّت.

ثم نظرت إلى شاشة السيارة، وأردفت:

- سأصل إليكم خلال أربعين دقيقة، وسأخبركم بكل شيء.

ثم اتصلت بالرقم الآخر الذي وجدت منه عشرات الاتصالات الفائتة، فلم يجب. فواصلت الطريق وهي تفكّر في كلمات يحيى بأن نزار بدأ في غزو المدينة. حتى وصلت إلى بيت السيد عزيز، ثم أخبرها يحيى بما رآه في بثّ مباراة كرة القدم، وكانت تحكي بدورها ما حدث في حي الفنار، لكن الرقم الغريب الذي حاولت الاتصال به عاود الاتصال بها قبل أن تبدأ الحكي. فالتقطت الخطّ، فجاءها صوت امرأةٍ على الجانب الآخر، قالت فريدة:

- أعتذر سيدتي عن عدم الرد مسبقًا. من أنتِ؟

أجابتها المتصلة بتوتر:

- أنا سيلا. هل يحيى بجوارك؟

قالت:

- نعم.

ثم فتحت مكبّر الصوت. فقالت سيلا ليحيى بنبرة أشد توترًا:

- أحاول الوصول إليك منذ ساعات. لأن هناك أمرًا حدث، لا بدّ أن تعرفه.

سألها يحيى بقلق:

- ماذا حدث؟

قالت سيلا:

- نهض جسدك فجأة، والوميض الأحمر يومض في رقبتك، ثم فوجئنا بالجسد يطيح بنا أرضًا على حين غرّة. أراد رجالي أن يصوّبوا أسلحتهم نحوه ويمزّقوه بأعيرتهم النارية، لكنني منعتهم، إذ شعرتُ أن أمرًا غريبًا يحدث.

في تلك اللحظة، بدأ وميض رقبتك يومض بتسارع شديد حتى اختفى. بعدها، نظر نحونا الجسد بأعينٍ متفحصة، قبل أن يستدير ويركض بعيدًا كأنه يلبي نداءً ما. لتتأكد شكوكي بأن أحد المينتو قد سيطر على جسدك.

(26)

نطق يحيى مذهولًا:

- ماذا؟!

قالت سيلا بأسف:

- للأسف هذا ما حدث.

سألها وقلبه يكاد يقفز من صدره من شدة الاضطراب:

- هل هرب بالقلادتين المعلّقتين في رقبتي؟

أجابت:

- نعم، هرب بكل متعلّقاتك.

سكت يحيى كأنه لا يعرف ماذا يقول. فتساءلت سيلا:

- هل ما زلتَ على الخط معي؟

ظلَّ صامتًا، لا يقوى على الرد، فسألته من جديد عما إن كان يسمعها، فغمغم مصدومًا:

- لماذا لم توقفيه؟! لماذا؟!

قالت متعجبة:

- كان الحل الوحيد هو تصفيته بالأعيرة النارية، وحينها ستموت أنت في الحال.

فصرخ إليها:

- حتى لو حدث ذلك كان لا بد أن تمنعي انضمامه إلى نزار، ومعه قلاداتي.

سكتت سيلا مستغربةً من منطقه، أما هو فرفع بصره نحو ليان وسألها في حسرة:

- ماذا سنفعل الآن؟

فتدخلت فريدة، وقالت لسيلا بلطفٍ:

- سنتواصل معك لاحقًا يا سيلا. أرجوكِ، لو حدثت أي تطورات، لا تتأخري في إبلاغنا بها.

فاكتفت سيلا بقول: «حسنًا». ثم أغلقت الخط، فقالت ليان بقلق:

- إذا لم نستطع استعادة الشريحة التي يوجد بها الوعي الأسمى فلن نتمكن من إيقاف نزار.

فهمس يحيى مؤنبًا نفسه بشدة:

- لم يكن عليّ ترك جسدي هناك. غبي! لقد أضعت كل شيء مرة أخرى بغبائي.

قالت فريدة:

- لا تَلُم نفسك يا يحيى، لقد فعلت الصواب حينها.

فقال بنبرة مستسلمة:

- مع توقُّف تطبيقات التواصل الاجتماعي، وعدم حصولنا على ثلاثة أرقام مشتركي شركة الاتصالات، وضياع شريحة الوعي الأسمى، لم يعد لدينا ما نستطيع فعله.

فقالت فريدة بإصرار:

- لنحاول حتى الرمق الأخير.

ثم تابعت:

- هناك في حي الغفار، بزغ أملٌ من العدم، لم أكن أتوقعه.

ثم حدثتهما عما جرى في المستشفى، وعن الشبكة المحلية هناك، وعن ردود الأفعال التي أبصرتها بعينها، ولقائها ليندا حبيبة المتطوع الذي استولى نزار على وعيه البشري، وأرَتْهما الفيديو الذي سجَّلته لها.

تابعت ليان فيديو ليندا بتركيز، أما يحيى فلم يهتم وظل غارقًا في إحباطه. لم يكن يُحبطه أن المينتو سيسيطر على جسده للأبد، وأن ذلك يعني أنّه لن يتبقّى في حياته سوى خمسة أيام على الأكثر إن لم يجد جسدًا بديلًا للجسد الذي يسكنه، بل كان همُّه الأكبر أنّه كان السبب في إفشال خطة ليان، وبسببه سيفقد مئات الآلاف أجسادهم وأوعاءهم. وبنبرة يائسة مستسلمة رفع رأسه إلى لينو، وسأله برجاء:

- هل من سبيلٍ آخر لإيقاف نزار غير المينتو الأسمى؟

هزَّ لينو رأسه نافيًا.

فقالت فريدة:

- أنا أثق بأن الفيديو سينتشر، وسيجبر الناس الحكومة على إيقاف خدمات الإنترنت وتطبيق «جسد».

فقال يحيى باليأس نفسه:

- حتى يحدث ذلك، سيكون نزار قد سيطر على الآلاف بما فيهم مشرفو التطبيق. وسيمنع الناس من خيار حذف بياناتهم من قاعدة بيانات التطبيق، ومع خاصية «الأوفلاين» التي يتيحها التطبيق للعمل دون إنترنت، لن يغيِّر قطع الإنترنت أو حذف التطبيق شيئًا. سيبقى كل من يحمل شريحة في عنقه عرضةً لفقدان جسده.

فقالت فريدة مُصرَّة:

- عندها، سيتخلص الناس من شرائحهم بأي طريقة أخرى. لنا واثقة من ذلك.

لكن يحيى هز رأسه في يأس، ثم لاذ بصمته، ليسود الصمت بينهم، حتى نطقت ليان:

- علينا أن نذهب الآن إلى الشرطة ونخبرهم بحقيقة ما يحدث.

أومأت فريدة موافقة، وهزّ يحيى رأسه موافقًا هو الآخر. بعدها استقلّوا سيارة أجرة، ومعهم لينو، وتوجّهوا إلى قسم شرطة وسط المدينة، وهناك، قدّمت ليان شهادتها إلى أحد الضباط، وقدّمت فريدة ملف الصور والفيديوهات التي حصلت عليها من لينو، وكذلك فيديو نزار بمحطة قطار حي الماسة. ثم طلب يحيى مراجعة فيديو المباراة التي شاهدوها في منزل جده لإثبات صحة ما يجري.

فطلب منهم الضابط الانتظار، ثم ذهب إلى مديره. وبعد نحو ساعة عاد، وقال ببرود:

- لم تأتِنا أي شكوى من تطبيق «جسد» ولا من أيٍّ من مستخدميه.

فقالت له فريدة:

- قد يكون مشرفو التطبيق تحت السيطرة الآن! والمستخدمون لن يقدّموا شكاوى إذا سُيطر عليهم، ولن يكتشف أهاليهم اختلالهم، فالميندتو يستخلص ذاكرتهم ويتعامل كأنه الشخص الأصلي. أرجوك، انظر إلى الأدلة التي قدّمناها، وافعل شيئًا قبل فوات الأوان.

فأجابها بنبرة أكثر برودًا:

- سيعرض مديري الأمر على رؤسائه. وإن كان هناك ثبوت فعلي لادعائكم، سنتخذ الإجراءات اللازمة.

كانت فريدة تصيح فيه بغضب، لكن يحيى أمسك بيدها ليوقفها، وقال الضابط:

- حسنًا، سيدي، سننتظر.

ثم أشار للباقين أن يغادروا، فخرجوا من القسم. ثم سألته ليان عن سبب طلبه لمغادرتهم، فأجابها:

- لا نستطيع الوثوق الآن في أي شخص، حتى رجال الشرطة. قد يكون هذا الضابط أو مديره تحت سيطرة الميتو، وقد يأمرهما نزار باعتقالنا أو قتلنا. لو كانت هناك نية حقيقية للتحرك ضد نزار، لفعلاها دون إلحاح منا. لقد قدمنا لهما كل الأدلة التي تنذر بمصيبة غير مسبوقة، ومع ذلك لم يحركا ساكنًا. لذا قررتُ أن نغادر قبل أن تأتيهما أوامر بإيذائنا.

ثم نظر إلى فريدة، وقال:

- ليس أمامنا حل الآن سوى أن ينتشر الفيديو من حي الفنار إلى بقية الأحياء، أو أن أستعيد سلسلة ليان بنفسي.

فسألته ليان بتعجب:

- وكيف ستستعيدها؟!

فنظر يحيى إلى فريدة مرة أخرى، وقال:

- تعرفين بصمة وجهي، وتستطيعين الوصول إليها عبر نظام المراقبة، أليس كذلك؟

هزت رأسها إيجابًا. فقال:

- لا بد أن الميتو الذي استولى على جسدي سيغادر ضاحية الغبار في أي وقت لاحق. فقط تتبعي بصمة وجهي، وحين يظهر جسدي في أي حيٍّ أخبريني بمكانه.

فأومأت فريدة موافقة.

بعدها توجّهوا معها إلى شقة الطابق الأول من منزلها، حيث جلسوا يراقبون قنوات الأخبار حتى غلبهم النوم في مقاعدهم.

●●●

في اليوم التالي لم يحدث أي جديد، لكن في صباح اليوم الذي تلاه، أيقظتهم إشعارات متتالية من قلائدهم. نظر يحيى إلى شاشة قلادته بعينين نصف مغلقتين، فانتفض من مكانه، وصرخ إلى ليان وفريدة اللتين كانتا نائمتين على أريكتين بعيدتين:

- لقد عادت تطبيقات التواصل الاجتماعي إلى العمل!

فنهضتا على الفور، وتفقدت كل واحدة منهما قلادتها بسرعة، قبل أن تتبادلا نظرات حائرة، كأن أعينهما تتساءل:

- ماذا يعني ذلك؟!

فقال يحيى:

- أيًا كان ما يعني، لا بد أن ننشر الفيديو الآن!

فاتفقتا معه، وفي ثوانٍ كانت فريدة قد أرسلت فيديو ليان المُعدّ وفيديو شهادة ليندا إليهما. ليبث الثلاثة المقطعيْن عبر حساباتهم في كافة تطبيقات التواصل الاجتماعي. قبل أن يدعموا منشوراتهم بمقاطع مباراة كرة القدم التي أظهرت اختفاء وميض رقاب بعض المشجّعين. ثم جلسوا يترقبون بوجوه قلقة وقلوب متسارعة ردود الأفعال.

●●●

في خلال الساعة الأولى، انتشر الفيديو انتشار النار في الهشيم. ثم بدأت الدعوات تتوالى للتحرك إلى فروع «جسد» لإجبارها على إيقاف التطبيق وتفتيت الشرائح. ولم تمضِ دقائق بعدها حتى ظهرت مقاطع تُظهر تحرك الناس فعلًا نحو الفروع، فواجت فريدة سريعًا إلى نظام

المراقبة واخترقت كاميرات الشوارع المؤدية إلى أشهر فروع «جسد»، وحين رأت الحشود تتزايد، همست مترقبة:

- هل هذا يعني أننا نجحنا؟

فقال يحيى، وهو يحدّق إلى النوافذ الكثيرة المفتوحة على شاشة لوحها:

- يبدو كذلك!

أما ليان فتابعت اللقطات في صمت، والقلق بادٍ على وجهها، فسألها يحيى:

- ماذا يقلقك؟

فقالت حائرة:

- لا أعتقد أن نزار غبي ليخسر كل ما خطّط له بهذه السهولة.

ثم تنهدت وأردفت:

- أتمنى أن أكون مخطئةً في مخاوفي.

فقال يحيى محاولًا طمأنتها:

- ربما ارتكب خطأ تقنيًا، أفقده التحكم بتطبيقات التواصل الاجتماعي، لنتفاءل خيرًا. ونأمل ألا يكون قد نجح بعد في السيطرة على مشرفي تطبيق «جسد»، فيتمكنوا من تفتيت شرائح الناس قبل أن يسيطر عليهم.

أومأت ليان، لكن القلق ظل عالقًا على وجهها، ثم جلست على مقعدها تتابع على شاشتها بارتباك ردود الأفعال المتتالية والأخبار المتواصلة عن الحشود المتجمعة أمام فروع جسد، حتى خفق قلبها بقوة، حين قرأت عيناها خبرًا عاجلًا عن تعطُّل أجهزة تفتيت الشرائح في كل فروع «جسد» في آنٍ واحد، وتعطُّل خيار «استعادة الجسد» بالتطبيق في

اللحظة نفسها، فنطقت بالخبر إلى يحيى وفريدة في صدمة، فتمتم يحيى في حسرة:

- لقد سيطر الشيطان على التطبيق، على الحكومة أن تتدخل الآن، وإلا ضاع كل شيء.

بينما نطقت فريدة في حيرة، وهي تحدّق إلى النوافذ المفتوحة على شاشة لوحها الذكي:

- ماذا يحدث؟!

اقترب يحيى وليان منها، ونظرا نحو شاشة لوحها، فانطبعت الدهشة على وجهيهما، إذ ظهرت الحشود وقد بدأت تنصرف عن الفروع فجأة، وتتحرك كجماعاتٍ صغيرة في اتجاهات مختلفة، كأن هناك من يسوقهم، فهمس يحيى:

- إلى أين يذهبون؟

لم تنطق ليان، فيما سارعت فريدة باختراق مزيد من الكاميرات لتتبع مسارهم. وما هي إلا لحظات حتى امتلأت الشاشة أمامهم فجأة بمشاهد عنفٍ دامية ترتكبها تلك الجماعات في كل أنحاء المدينة: أناس يحرقون السيارات، آخرون يحطمون الواجهات، آخرون يهاجمون الفتيات، وآخرون يقتلون المارة ويشقّون رقابهم أمام الجميع. حينئذ نطقت ليان في ذهول:

- لقد كان فخًّا من نزار! أراد منا نشر الفيديو لتكون سببًا في تجمعات هائلة بكافة أنحاء المدينة، ليسهل عليه السيطرة على أكبر عدد من البشر دفعة واحدة!

***

ظلّت الصدمة مرتسمة على وجوه الثلاثة، فيما كانت مشاهد العنف تتدفق بلا انقطاع عبر النوافذ المتعددة المفتوحة على شاشة اللوح

الذكي. وبينما وضع يحيى وليان رأسيهما بين كفوفهما في يأس، صرخت فريدة فجأة:

- انظرا!

فرفع الاثنان رأسيهما إلى شاشة لوحها. فرأيا بثًّا مباشرًا من إحدى كاميرات الشوارع، يُظهر جماعةً تتقدم بعنف نحو قسم شرطة حي النسيج، فيما وقفت قوات مكافحة الشغب في نهاية الشارع، مصطفة بدروعها وأسلحتها لصدّهم. ثم صار الحشد في مرمى نيران قوات الشرطة، فبدأ الجنود بإطلاق الرصاص في الهواء ليوقفوهم. لكنهم لم يتراجعوا بل واصلوا التقدم بخطى ثابتة. فتقدّمت الشرطة هي الأخرى نحوهم لمواجهتهم بالعصيّ والصواعق الكهربائية، بعدما بدا أن قائدهم أمرهم بتجنب إطلاق النار. غير أن المشهد انقلب فجأة، إذ توقف بعض رجال الشرطة عن التقدم، قبل أن يستديروا نحو زملائهم ويصوّبوا أسلحتهم إلى رؤوسهم ويطلقوا النار، ليسقطوهم قتلى.

فارتجف وجه يحيى وهمس في ذهول:

- كل شيء ضاع!

فيما تمتمت ليان بالخوف نفسه:

- لم يبقَ أمل إلا في أولئك الذين لم يضعوا شرائح في رقابهم، هؤلاء وحدهم خارج سيطرة نزار.

فقال يحيى بمرارة:

- حتى هؤلاء ليسوا في مأمن. لن يستطيع أحد الوثوق بأي شخص الآن. فمع ما يحدث لن يعرف أحد إن كان أخوه أو أخته أو زوجته هم حقًّا أنفسهم، أم آلات تنتحل وجوههم وأرواحهم.

فجأة، دوّت صافرة تنبيه من نافذة مُصغّرة على شاشة لوح فريدة. فكبّرت فريدة النافذة، لتظهر أمامها خريطةٌ للمدينة، وعلى منطقة بها

ظهرت دائرة صغيرة مضيئة يعلوها رقم هوية يحيى المدنية. فصاحت إلى يحيى:

- لقد رصدت إحدى كاميرات المدينة بصمة وجهك تحديدًا في محطة القطار بحي الماسة.

ثم ضغطت على الدائرة المضيئة، فانفتحت نافذة تعرض اللقطة ببطء، فظهر جسد يحيى جالسًا داخل قطار سريع يعبر محطة الماسة نحو وسط المدينة دون توقف، حينها دق قلب يحيى مضطربًا وهو يرى جسده ينظر إلى الفراغ أمامه في جمود، كأنه آلة، لا روح فيها.

حتى اختفى القطار من اللقطة، فصاح يحيى إلى فريدة:

- تتبعي القطار لنرى أين سينزل جسدي!

فأومأت فريدة بسرعة، ثم انتقلت إلى كاميرات المحطة التالية. لم يكن القطار قد وصل إليها بعد، فانتظروا قرابة عشرين دقيقة حتى دوَّى تنبيه جديد برصد بصمة وجه يحيى في تلك المحطة، غير أن القطار مرَّ مسرعًا دون أن يتوقف بها أيضًا، فانتقلت فريدة إلى المحطة التالية، وانتظرت.

بعد عشرين دقيقة أخرى، دوَّى تنبيه جديد، وأظهرت الكاميرات القطار وهو يعبر المحطة دون أن يتوقف، لتنتقل فريدة إلى كاميرات المحطة التي تليها، فحدث الأمر نفسه، وحدث كذلك مع محطتين أخريين، حتى توقف القطار أخيرًا في محطة حي القباب، لتتسع أعين الثلاثة ذهولًا وهم يرون مئات الرجال المسلحين ينزلون من عربات القطار، بينهم جسد يحيى، ليس وحدهم فحسب، بل كان برفقتهم مئات الروبوتات التي سارت جنبًا إلى جنبٍ بجوارهم، ويهمس يحيى غير مصدقٍ:

- روبوتات نزار، التي تحقن الشرائح في الرقاب. لقد أحضرها إلى المدينة كي يزرع شرائح التطبيق في عنق من لا يحمل شريحة لا

بد أن نحذّر الناس بأن يبقوا في بيوتهم، أن يختبئوا، أو يغادروا هذا الحي فورًا.

في تلك اللحظة انتبهت فريدة إلى بعض النوافذ المفتوحة على شاشة اللوح، فوجدت الكاميرات تعرض لقطات تظهر فيها قوات الشرطة وهي تواجه بكل قوة الحشود التي تواصل أعمال التخريب في مختلف الأحياء، ثم فجأة، وفي لحظة واحدة، سقطت أجساد تلك الحشود أرضًا بلا حراك، كأن الوعي فارقها جميعًا دفعة واحدة. فتمتمت فريدة في دهشة:

- إلى أين نقل نزار أوهامهم؟!

لم تمر دقائق بعدها حتى ظهر على أحد تطبيقات التواصل الاجتماعي مقطع مصوَّر لشابٍّ يصرخ من داخل ملعب كرة القدم، يقول إنه مُحتجَز منذ ساعات هو وثمانون ألف مشجع، وإن إشارة الاتصال مقطوعة تمامًا منذ ساعات عن ذلك المكان، وحين حاولوا الخروج وجدوا أن بوابات الملعب قد أُغلقت عليهم من الخارج، لتعمَّ الفوضى بين الجماهير. وأضاف الشاب باكيًا أنه حاول مرارًا بث استغاثته عبر الإنترنت، لكن الفيديوهات لم تُنشَر بسبب انقطاع الإشارة، وقد رفع هذا الفيديو آملًا أن تعود الإشارة في أي لحظة، ويصل الفيديو إلى المسؤولين. فهمس يحيى بارتباك:

- المباراة النهائية في كأس المدينة اليوم!

تسألُه ليان بترقب، وكأنها تتوقّع الإجابة:

- في أي ملعب تُلعب هذه المباراة؟

أجابها في ذهول:

- ملعب حيِّ القباب!

فقالت في رعب:

- لقد خطّط نزار لهذه اللحظة ببراعة، شتّت قوات الشرطة وأنهكها بمواجهة الحشود المخرّبة في مناطق المدينة كافة، وفي الوقت نفسه، عزل مشجّعي المباراة عن العالم وحبسهم في الملعب. والآن يرسل إليهم رجاله وروبوتاته ليزرع الشرائح في جسد كل من لا يملك شريحة منهم.

ثم وضعت رأسها بين كفّيها، وأردفت في يأس:

- سيكون لديه بعد قليل ثمانون ألف مينتو جاهزون للانتشار في كافة أنحاء البلاد.

(27)

خلال الدقائق التالية، كانت المقاطع المصوَّرة التي تأتي من ملعب حي الشباب لجماهير يصرخون بعدم قدرتهم على الخروج من هناك، تتدفق بلا توقف. فتساءلت فريدة بارتباك:

- لماذا سمح نزار بعودة الإشارة إلى موقع الملعب قبل سيطرته على الجماهير هناك؟

قالت ليان بوجه متوتر:

- لقد أحكم سيطرته على تطبيق «جسد»، والآن يريد أن يُري الجميع ما يستطيع فعله بالبشر.

ثم صمتت لحظة، قبل أن تُكمل بصوت خافت وهي تشاهد الفوضى التي تظهر بمدرجات الملعب في أحد الفيديوهات:

- كما أنه يريد أن يشيع الذعر والخوف بين الناس، ليتمكَّن أكثر وأكثر من السيطرة.

فاقترحت فريدة باضطراب:

- إذن لنبلِّغ الشرطة عن الروبوتات التي تتحرك الآن من محطة القطار إلى الملعب.

ثم حاولت الاتصال بالشرطة، لكنها وجدت جميع الخطوط مشغولة. فتمتمت بعصبية:

- لا أستطيع الوصول إليهم. سأنشر حالًا مقطع فيديو يوضّح نزول الروبوتات في محطة قطار حي القباب وتحركها نحو الملعب. لعلّ الشرطة تتدخل سريعًا وتُخرج الجماهير من هناك، أو تدكّ المكان بأكمله إن سبقهم نزار وزرع شرائح الكريمن المُحمَّلة بالأوعاء الصناعية في كل الأجساد هناك.

فقال يحيى:

- للأسف، أغلب قوات الشرطة مُشتَّتة في أماكن بعيدة الآن، ولا بدّ أن نزار قد سيطر على كل ضابط يحمل شريحة في عنقه، وبالطبع لن يتخذ قادة الشرطة الآخرين قرار التضحية بثمانين ألف بريء.

وأكملت ليان:

- وحتى لو تهوّروا ودمّروا المكان بمن فيه، فسيموت ثمانون ألفًا بأجسادهم فقط، أمّا أوعاء المينتو التي تطورت داخل أجسادهم فستنتقل إلى أجسادٍ أخرى في أماكن بعيدة.

فأردف يحيى:

- لذا أرى ألا تكشفي أمر الروبوتات الآن، مَن يدري؟ ربما ينتظر منا نزار هذه الخطوة ليفاجئنا بشيء يخطِّط له، كما اعتاد.

فقالت:

- وما العمل؟

فنظر يحيى إلى لينو، وقال:

- أريد مساعدتك في إدخالي إلى ملعب المباراة، كي أستعيد سلسلة ليان من سارق جسدي، هذا هو الأمل الوحيد لدينا.

فأومأ لينو موافقًا، فنظرت فريدة إلى ليان، فبدا على وجه ليان أنها تتفق مع تفكير يحيى، بل وقالت:

- سآتي معكما يا يحيى.

فتنهدت فريدة، وقالت:

- حسنًا، سأنتظر أنا هنا، وسأحاول بكل ما لديّ من خبرة أن أخترق كاميرات الملعب وأبحث عن ممرٍّ آمن تدخلون منه إلى الداخل.

فقال يحيى:

- رائع.

ثم التفت إلى لينو وليان، وأردف:

- هيا بنا، لا نملك كثيرًا من الوقت.

بعدها خرج الثلاثة مسرعين، وعندما لم يجدوا سيارة أجرة، وظهر التوتر على وجهي ليان ويحيى. اندفع لينو فجأة أمام إحدى السيارات المسرعة، فارتبك السائق وضغط المكابح بقوة، فتوقفت السيارة وسط صرير العجلات. فأسرع يحيى نحو الباب، وجذب الرجل إلى الخارج، وهو يقول:

- آسف، نحتاج إلى السيارة لأمرٍ بالغ الخطورة.

ثم جلس خلف المقود بينما ركب لينو بجواره وركبت ليان في المقعد الخلفي، لينطلق بالسيارة بأقصى سرعة، متجاوزًا الإشارات الحمراء وحواجز الشرطة والسيارات المحترقة والجثث المنتشرة في الطرقات.

في الوقت نفسه، كانت فريدة تتواصل معهم عبر الاتصال الهاتفي، فقالت بعد بضع دقائق وهي تنظر إلى الشاشة:

- لقد نجحتُ في اختراق كاميرات الملعب، لقد وصل جسدك إلى هناك بالفعل مع رجال نزار. التقطته إحدى كاميرات المراقبة عند بوابة رقم سبعة.

فقبض يحيى على المقود بقوة، وزاد من سرعة السيارة، وهو يحدِّث نفسه محفِّزًا:

- سأستعيد سلسلة ليان مهما حدث!

وكلما وجد الطريق الرئيسي مغلقًا أمامه، انحرف إلى طرق جانبية ضيقة ليتجاوز ما يغلق الطريق، ثم يعود إليه مرة أخرى، ليواصل الانطلاق.

●●●

بعد دقائق أخرى، قالت فريدة عبر الاتصال الهاتفي:

- تظهر أمامي الآن لقطاتٌ مباشرة من داخل الملعب عبر كاميراته الداخلية. هناك فوضى عارمة تسيطر على المكان! يبدو أن الأوهاء التي غادرت أجساد المحتشدين المحاصرين من الشرطة قد انتقلت إلى أجساد مَن يملكون شرائح التطبيق في المدرجات، لتساعد الروبوتات في مهمتها.

ثم أضافت وهي تحدّق إلى الشاشة أمامها:

- من الواضح أن الروبوتات مزودةٌ بحساساتٍ تكشف مَن لا يحمل شرائح تطبيق جسد. إنها تتحرك في المدرجات، وتمسك بأشخاص محددين، ثم تُخرج من صدورها آلات دقيقة تشبه الإبر الرفيعة، وتغرزها في رقابهم. وبعد ثوانٍ، تنتقل إلى أشخاص آخرين. إنها تعمل بسرعة شديدة ووفق نمط منظم، ويبدو أن كل مدرج لن يستغرق سوى دقائق حتى يُحسم أمره.

فقال لينو بصوته الآلي:

- إنها تزرع في الرقاب شرائح التطبيق وشرائح الكريمن في الوقت نفسه.

فسأل يحيى فريدة وهو ينحرف بالسيارة في أحد المنعطفات:

- وما دور رجال نزار المسلّحين؟

فأجابته:

- إنهم يحاصرون الجماهير بأسلحتهم، ومن يتحرك يطلقون النار نحوه. وبعضهم يغلقون البوابات التي دخلوا منها.

سألها وهو ينظر إلى أعمدة دخان تتصاعد بعيدًا على الطريق أمامه:

- هل التقطت الكاميرات وجهي بعد دخولي الملعب؟

فقالت:

- ليس بعد، لكن يمكنني البحث عن مكانه الآن.

فقال:

- حسنًا، ابحثي عن مكانه بالضبط وأبلغيني فور عثورك عليه.

●●●

بعد دقائق، وصل الثلاثة إلى محيط الملعب، ولتفادي انكشاف هويتهما عبر الكاميرات، ارتدى لينو وليان سترتَي وخوذتَي شرطيَّين كانا قد قُتِلا في الشارع المؤدِّي إلى الملعب، بينما بقيَ يحيى بملابسه كما هو، دون تخفٍّ.

كانت أقرب البوابات الحديدية إليهم مغلقةً بإحكام، فيما تتعالى من الداخل آلاف الأصوات المختلطة بالصراخ والذعر. حاول يحيى أن يسحب المقبض الحديدي للبوابة بكل ما يملك من قوة، لكن البوابة لم تتحرك. فنطق إلى فريدة عبر سماعته اللاسلكية:

- هل عثرتِ على طريقٍ ندخل منه إلى الملعب؟

جاء صوت فريدة:

- ليس بعد، لا زلت أبحث.

فقال يحيى:

- أخبرتنا أن كاميرات بوابة رقم سبعة التقطت بصمة وجهي، هذا يعني أن رجال نزار دخلوا الملعب عبر تلك البوابة. هل لا تزال تلك البوابة مفتوحة؟

قالت بعد لحظة:

- نعم، لكن يقف أمامها عشرات المسلحين. سيكون دخولكم منها مستحيلًا.

التفت يحيى إلى لينو، وقال:

- ربما يستطيع لينو التغلب عليهم.

فردّت بسرعة:

- مستحيل يا يحيى. إن أعدادهم كبيرة فعلًا، وقد يستدعون الروبوتات من الداخل لمواجهة لينو. انتظر مكانك بجانبه حتى أواصل البحث عن مدخلٍ آخر.

بعد دقائق، نطقت فريدة في حماس:

- وجدته! هناك ممر طوارئ بين بوابتي ستة وسبعة، مخفي خلف كابينة هاتف ملتصقة بالجدار.

فصاح يحيى لليان ولينو:

- لنتحرك إلى هناك.

بعدها ركض الثلاثة بمحاذاة السور، متخطين بوابة بعد أخرى بينما ترتفع الصرخات من داخل الملعب، حتى عبروا بوابة ستة، فهمست فريدة في آذانهم:

- كابينة الهاتف أمامكم، على بعد عشرين مترًا!

قبل أن تصيح فجأة:

- يبدو أن رجال نزار يراقبون الكاميرات أيضًا، واستطاعوا رصد تحرككم، أرى أربعة مسلحين يتحركون من بوابة سبعة باتجاهكم!

فأسرع يحيى وليان ليختبئا خلف صندوق القمامة، بينما تقدم لينو قريبًا منهما حين أبصرا الرجال يندفعون نحوهما، بينما نزع لينو قبعة الشرطي والسترة عن جسده، ووقف في مكانه منتظرًا أن يصلوا

بيديه إلى فوهتي بندقيته الهيكلية، وبدأ في إطلاق النيران نحو مهاجميه برشاقة وبالغة ليستقبلهم وانحنا على الأكثر جميعًا. صوّب نيرانه نحو الكاميرات الكروية المعلقة أعلى سور الملعب، فحطّم جميعها. حينها صرخت لورينا وقد انقطع بث الكاميرات التي تتابعهم عبرها

- اكسروا كابينة الهاتف بسرعة! الباب الخفي خلفها سيقودكم إلى الداخل! عليكم أن تسرعوا. هناك المزيد من الرجال آتون إليكم ولن يستطيع لينو صدّهم بمفرده.

ولم تكد تكمل جملتها حتى ظهر المزيد من رجال نزار، يتدفقون بالعشرات وهم يطلقون النار نحو لينو. فأطلق لينو رصاصاته نحوهم، فأسقط خمسة منهم، لكن كثرتهم كانت أكبر من قدرته على إسقاطهم جميعًا. صبّت طلقاتهم النارية ترتطم بجسده المعدني ليتراجع للخلف وهو يطلق النار بلا توقف.

كانت ليان ويحيى لا يزالان مختبئين خلف صندوق القمامة، فصرخت ليان في يحيى بخوف وهي ترى الطلقات تخترق صدر لينو:

- إن تعطّل نظام لينو سنخسر كل شيء، حتى لو حصلنا على شريحة الوحي الأسمى فلا يستطيع أحد أن يزرعها في عنقي إلا هو.

حينئذ زحف يحيى نحو أحد المسلحين الذين تمكن لينو من قتلهم في البداية والتقط سلاحه، ثم عاد إلى خلف صندوق القمامة، وبدأ يطلق النار مع لينو. لكن رجال نزار لم يتقهقروا. ثم فجأة، نزل أحد الرجال على ركبته، وصوّب سلاحه القاذف الذي كان يحمله على كتفه نحو لينو، فأصابت القذيفة رجل لينو اليمنى، لتتطاير أشلاؤها المعدنية بعيدًا، ويسقط لينو أرضًا.

وبينما كان الرجال يتقدمون ببطء [illegible] نحو لينو، وأمسكت بيحيى ولكن [illegible] في الساحة الخلفية [illegible] المكان [illegible]

متتالية، يصاحبها دوي محركات قوية، ففتح يحيى وليان أعينهما، فوجدا دراجات نارية تقتحم المكان بسرعة رهيبة، يقودها رجال ونساء ملثمون، يطلقون النار نحو رجال نزار بلا توقف، ويسقطونهم واحدًا وراء الآخر، تتقدمهم امرأة تميل بدراجتها برشاقة بينما يلمع شعرها الأحمر المجدول في جدائل طويلة تحت ضوء النهار. فاتسعت عينا يحيى وهمس في دهشة:

- سيلا!

بعدها، استدارت سيلا بدراجتها واقتربت منهم، ثم أنزلت لثام وجهها ونظرت إلى لينو وليان التي كانت قد نزعت خوذة الشرطي عن رأسها دون أن تدرك أن يحيى هو صاحب الجسد المستأجَر، وقالت:

- لا أعلم ماذا تفعلون هنا، لكننا في الجانب نفسه ضد ذلك الشرير وأتباعه.

ثم ابتسمت بخفة، وأدارت دراجتها لتنطلق مجددًا مع رفاقها لمواجهة مجموعة جديدة من رجال نزار ظهرت من بعيد.

فالتفتت ليان إلى لينو الطريح، وسألته:

- لينو! هل تعطَّل نظامك؟

فأجاب وهو ينهض على رِجله المتبقية:

- أصيب نظام تجديد الطاقة في صدري، لكن بقية الأنظمة تعمل جيدًا.

وحين وجد القلق قد انطبع فورًا على وجهها ووجه يحيى، أردف سريعًا:

- لديَّ من الطاقة ما يكفي، لا تقلقا.

ثم قفز برشاقة على رِجله الوحيدة نحو كابينة الهاتف المثبَّتة بالجدار، ثم خلعها بقوة، فظهر باب فولاذي خلفها. سحبه بقوة، فانفتح، ثم أشار لهما بالدخول إلى الممر المعدني الذي ظهر خلفه. فقال يحيى له:

- هل يمكنك نزع شريحة الكريمن من أحد هؤلاء القتلى، وزرعها في عنقي تحت الجلد دون أن توصلها بحبلي الشوكي.

أومأ إيجابًا. ثم تحرك إلى أحد القتلى، وبضربة سريعة شقّ عنقه، ثم حمل رأسه ورقبته معه. وما إن دخلوا الممر المعدني، حتى استخرج شريحة الكريمن من رقبته، وألقى الرأس بالعنق جانبًا. بعدها أخرج من ساعده إبرة رفيعة، وغرز الشريحة تحت جلد عنق يحيى دون أن يوصلها بحبله الشوكي، كما أراد.

حينها، سألت ليان يحيى عن سبب إصراره لزرع تلك الشريحة، فأجابها:

- تمتلك روبوتات نزار حسّاسات تكشف المينتو من غيرهم. لكني لا أعتقد أنها تستطيع تمييز ما إذا كانت شريحة الكريمن متصلة بالحبل الشوكي وتعمل فعلًا أم لا. سيساعدني وجود معدن الشريحة في عنقي على خداعها وتجاوزها دون أن توقفني، حتى لو رأت مؤخرة عنقي تومض بلا توقف.

في تلك اللحظة، عاد صوت فريدة عبر اللاسلكي:

- أستطيع تحديد موقعكم عبر قلائدكم. أنتم الآن داخل ممرّات الطوارئ الداخلية للملعب.

وأضافت وهي تنظر إلى شاشة اللوح أمامها:

- إن جسد يحيى الأصلي يوجد الآن في المدرج السابع. سأرشدكم صوتيًا حتى تصلوا إلى ذلك المدرَّج.

بعدها، واصل الثلاثة زحفهم داخل الممر المعدني الضيق، الذي يملؤه الظلام إلا من ومضات خافتة لمصابيح طوارئ قديمة معلّقة في السقف، بينما توجّههم فريدة صوتيًا، حتى قالت بعد دقائق:

- أنتم الآن أسفل المدرجات مباشرةً. أمامكم ثلاثة مسارات: الأول يؤدي إلى المدرج السادس، الثاني إلى دورات المياه، والثالث إلى المدرج السابع، حيث لا يزال جسد يحيى هناك.

فالتفت يحيى إلى ليان وإينو، وقال:

- ستنتظران هنا حتى أعود بالسلسلة. خروجكما إلى المدرجات خطرٌ كبير عليكما.

فأمسكت ليان يده بقوة وقالت:

- لن تذهب وحدك!

فابتسم وهو يربِّت على يدها:

- سأعود إليكِ، أعدك بذلك.

فأومأت بقلق، ثم أفلتت يده، ليتقدَّم وحيدًا بينما تهمس فريدة عبر سماعته لترشده إلى المدرج السابع. حتى وصل إلى بابٍ أرضيٍّ في الممر، ففتحه بحذر، ليجد أسفله ممرًّا أوسع يعجُّ بالأشخاص والروبوتات. قفز إليه. فالتفت إليه رجال نزار، وطوَّقوه مصوِّبين أسلحتهم نحوه. بعدها، تقدَّم إليه أحد الروبوتات، ومسح رقبته بحساساته، فومضت عيناه بضوء أخضر، ثم ابتعد. عندها، انصرف الرجال من حول يحيى، فتنفس الصعداء، وانطلق راكضًا نحو السلالم المؤدية إلى المدرج.

●●●

وسط الحشد المضطرب، لمح يحيى جسده الأصلي، يقف بعيدًا والسلسلة تتلألأ حول عنقه. فتسارعت أنفاسه، واندفع يشقُّ طريقه بين الأجساد، متجاوزًا المقاعد المكسَّرة، والجرحى والقتلى، والروبوتات التي كانت لا تزال تحقن الرقاب، حتى وصل إليه. فمدَّ يده ليجذب السلسلة، لكن جسده الأصلي استدار فجأة، وحدَّق إليه بتشكُّك، وكأنه أدرك أنه

ليس ميلتو، فتجمد يحيى للحظة، ثم مدَّ يده مجددًا ليجذب السلسلة، لكن الجسد دفعه بقوة هائلة أسقطته أرضًا.

نهض يحيى بسرعة واندفع نحوه من جديد، فاصطدما بعنف، وتدحرجا معًا فوق المقاعد المحطَّمة، فسقط سلاح الجسد الأصلي بعيدًا. ثم استقر جسداهما بين صفَّين من المقاعد، فرفع الجسد الأصلي قبضته وانهال على وجه يحيى بلكماتٍ متتالية. حاول يحيى صد اللكمات، لكن الميلتو المسيطر على جسده الأصلي كان أسرع وأقوى.

بعدها، نجح يحيى في تفادي بعض الضربات، ونهض ليسدد هو الآخر لكماته إلى الجسد الأصلي، لكن الأخير أسقطه أرضًا مرة أخرى، ثم ضغط بذراعه على عنقه بقوة، حتى بدأ الهواء ينقطع عن رئتيه. فتلوى يحيى وهو يضرب الأرض بيديه محاولًا تحرير نفسه. لكن بلا جدوى، كان الميلتو يواصل ضغطه المميت فوق عنقه.

فجأة، تذكر يحيى إصابة ضلوعه، فضرب جسده الأصلي بكوعه بقوة في جانب صدره الأيمن، فتأوه، وترك عنقه. حينها تدحرج يحيى مبتعدًا عنه، ثم نهض وهو يمسح الدماء عن فمه، ثم تقدم نحوه، وبدأ يوجِّه لكماته المتتالية إلى ضلوعه، فأخذ الجسد الأصلي يتراجع، بينما لا ترى عينا يحيى سوى السلسلة التي تتأرجح أمامه مع كل حركة. حتى انحنى الجسد الأصلي لاهثًا، فملأ يحيى صدره بالهواء، ثم اندفع نحوه بكل ما يملك من قوة، وضرب بركبته قفصه الصدري، فاختل توازنه وسقط أرضًا. عندها قفز يحيى فوقه، وانهال على وجهه باللكمات.

لكن الميلتو استطاع الإمساك بقطعة خشب مكسورة من عصا راية أحد المشجعين، وغرز طرفها المدبب بقوة في فخذ يحيى، فصرخ يحيى من الألم. بعدها، أمسك الميلتو برأسه وضربه بمقعد حديدي قريب. فدوَّى الصوت في أذنَي يحيى، وشعر بأن الدنيا تدور حوله. قبل أن يسقط من فوق جسده الأصلي.

عندئذٍ، نهض الجسد الأصلي وبدأ يبحث عن سلاحه الناري بين المقاعد والجثث المتراكمة، حتى عثر عليه، فأمسك به والتفت إلى يحيى، غير أن يحيى كان قد نهض في تلك اللحظة، وبكل ما تبقى له من قوة، نزع القطعة الخشبية المغروزة في فخذه، ثم اندفع نحو جسده الأصلي، وقبل أن يضغط الزناد، قفز عليه وهو يصرخ، ليغرز العصا الخشبية في أعلى صدره، بجوار العنق. فتجمَّد الجسد الأصلي في مكانه لثوانٍ، وعيناه متسعتان في صدمة، بينما تتدفق الدماء من موضع الطعنة كنافورة حمراء، تغمر صدره وكتفيه. ثم أخذ يتراجع خطوة، ثم أخرى، قبل أن يسقط على ركبتيه وجسده يرتعش. وحينها مد يده المرتجفة إلى قلادة صدره وضغط زرًّا، فظهرت شاشة مصمته، فأدخل بسرعة أمرًا على تطبيق جسد. وبعدها سكن بلا حراك.

اقترب يحيى من جسده الأصلي بعدما غادره المينتو. كانت الدماء لا تزال تتدفق منه، فأدرك أنها ثوانٍ أو ربما لحظات ويتوقف قلبه، فسحب سلسلة ليان من عنقه. ثم بدأ يركض برجله المُصابة والدماء تتساقط منه، حتى عاد إلى الممر أسفل المدرج، وهناك التقط مقعدًا مكسورًا، ووقف فوقه، ثم قفز وتشبث بحافة الفتحة المؤدية إلى الممر المعدني، ليصعد بكل ما تبقى لديه من قوة إلى ذلك الممر، ثم زحف داخله بصعوبة، والسلسلة بين يديه، بينما تواصل الدماء سيلانها من فخذه ويده ووجهه. حتى وصل أخيرًا إلى ليان، فمدَّ يده بالسلسلة نحوها وهو يلهث، فطلبت ليان من لينو أن يشعل مصباحه، فأضاء المكان. فرأت الدماء تغطي يده ووجهه، والوهن يسيطر على ملامحه. فسألته بخوف:

- يحيى، كيف حصلت عليها؟

فابتسم ابتسامة واهنة، وقال بصوت ضعيفٍ متقطِّع:

- لا تهتمي بذلك الآن.

فسألته مرة أخرى، والدموع تنسال من عينيها:

- لا تكذب عليّ! كيف حصلت عليها؟!

قال بتعب شديد:

- ليس هناك وقت. هيا، اجعلي لينو يزرعها في عنقك. هذا كل ما يهم الآن.

في تلك اللحظة، ارتفع صوت فريدة عبر الاتصال، مضطربًا:

- هناك مروحية تهبط في أرض الملعب. والجميع ينظرون إليها.

تجاهلت ليان ما قالته، وسألتها بارتباك:

- فريدة، أين جسد يحيى الأصلي الآن؟

ساد الصمت للحظات، حتى نطقت فريدة بصوت مرتعش:

- أراه، مُسجًّى بين المقاعد، والدماء تغمره. وهناك عصا مغروزة في أعلى صدره بجوار العنق.

فارتجفت ليان، وهي تنظر إلى يحيى، الذي بدأ يتهاوى بين يديها. فابتسم لها ابتسامة صغيرة، كأنه امتلك الدنيا حين نظرت إليه تلك النظرة. وهمس بصوت خافت:

- لطالما تمنيت أن تسامحيني بعد ما فعلته بكِ. وها أنا قد تأكدت من ذلك الآن.

ثم ابتسم ابتسامة شاحبة، قبل أن يُغمض عينيه، ويسقط ساكنًا بين ذراعيها.

(28)

- ليان، ماذا حدث؟!

تساءلت فريدة وقلبها يخفق بالاضطراب. وعندما لم تُجبها ليان، تساءلت مجددًا بخوف، وهي تحدِّق إلى جسد يحيى الأصلي المُسجَّى بين مقاعد المُدرَّج بلا حراك:

- ليان، أين يحيى؟ يحيى، لماذا لا تجيب؟

كانت الدموع تنهمر من عينَي ليان بلا توقف، وهي تحتضن يحيى بين ذراعيها. وحين سمعت فريدة نحيبها، وضعت يدها على فمها في ذهول، وانهمرت دموعها هي الأخرى.

بعدها، صدرت صافرةٌ قصيرة من صدر لينو تُنذر باقتراب نفاد طاقته، فقال لينو بصوتٍ يخلو من العاطفة:

- لقد مات يحيى من أجل إحضار شريحة الوعي الأسمى. وعلينا أن نحقِّق الهدف الذي ضحَّى بحياته من أجله، قبل أن تنفد طاقتي.

فأومأت ليان، والدموع لا تزال تنساب على وجهها، ثم مدَّت يدها بالسلسلة إليه. فاستخرج الشريحة الصغيرة من القلادة، ثم ثبَّتها بإحكام في إبرة رفيعة خرجت من ساعده، فتلألأت للحظة بوميض ذهبي، ثم قال بهدوء:

- شريحة الوعي الأسمى جاهزة للزراعة في شريحة الكريمن الخاصة بك.

هزّت ليان رأسها موافقة، ثم تمدّدت على جانبها أمامه، فخدّر لينو مؤخرة رقبتها برذاذٍ بارد خرج من فوهةٍ دقيقة في راحة كفّه اليسرى، بعدها صنع شقًّا صغيرًا في الموضع الذي خدّره، ثم دفع الإبرة التي تحمل الشريحة إلى ذلك الشق، وأخذ يخترق الأنسجة ببطءٍ حذر، حتى بلغ شريحة الكريمن، فأدخل شريحة الوعي الأسمى في مكانها المخصّص بها. ثم سحب الإبرة، وأطلق من سبابته اليسرى شعاع ليزر على موضع الجرح، فالتأم فورًا. بعدها قال بنبرة جامدة:

– سيبدأ الاندماج بين وعيك البشري والوعي الأسمى الآن.

أغمضت ليان عينيها، وقلبها يضج بمزيجٍ من الحزن والخوف والرجاء. ثم فجأة، شعرت بطنينٍ سرعان ما تحوّل إلى اهتزاز عنيف اجتاح جسدها، كأن صدمة كهربائية اخترقت أعصابها.

في اللحظة التالية، انطلقت من مؤخرة عنقها خيوط ضوءٍ رفيعة، امتدت على طول عمودها الفقري، وتفرّعت إلى كتفيها وذراعيها، حتى بدا جسدها كله وكأنه يشتعل من الداخل.

حينها، صرخت ليان بصوتٍ خرج غريبًا، نصفه بشري ونصفه معدني آلي، بينما تتصادم في داخلها ذكريات مألوفة مع صورٍ وأصواتٍ جديدة تتدفق بلا توقف، كأن عقلين يتصارعان على السيطرة.

وبعد لحظات، انقطعت أنفاسها فجأة، وسكن جسدها تمامًا. حتى ظن لينو أن قلبها توقف، وأنها فارقت الحياة. لكن جفنها ارتجف، ثم سحبت نفسًا عميقًا كما لو أنها عادت من الغرق.

بعدها، بدأت الخطوط الضوئية تتلاشى تدريجيًّا، حتى اختفت، ولم يبقَ سوى وميض أزرق صغير عند مؤخرة عنقها، سرعان ما اختفى هو الآخر.

عندها، فتحت ليان عينيها ببطء، وهمست بصوت ضعيف:

- أنا، هنا.

همست فريدة عبر السماعة:

- ليان، هل أنتِ بخير؟

قالت بصوت متعب:

- نعم يا عزيزتي.

ثم أردفت:

- لقد حانت اللحظة التي انتظرناها طويلًا، سأقود الميتنو الأسمى الآن للسيطرة على نزار وتابعيه، سأجعلهم يحرّرون الأوهاء البشرية التي طمسوها، ثم يدمّرون أنفسهم ذاتيًا، ليغادروا عالمنا بلا رجعة.

قالت فريدة في حماس:

- رائع، لتلقي بذلك الخبيث إلى مصيره الذي يستحقه.

أومأت ليان ثم أغمضت عينيها مجددًا، لتتصل عبر الشريحة طويلة الأمد بقاعدة بيانات تطبيق «جسد»، فوجدت نفسها كما لو دخلت فضاءً واسعًا مظلمًا، تتلألأ فيه نجوم صغيرة لا حصر لها. كل نجم هناك يمثّل ميتنو متصلًا بالشبكة، بينما بدت أوهاء المشتركين التي لم يسيطر عليها الميتنو بعد كأجرام سماوية باهتة تلوح في الخلفية. فأدركت أن الميتنو الأسمى يعرض لها قاعدة البيانات بهذا الشكل كي تميّز أوهاء الميتنو عن غيرها بسهولة.

بدأت باختراق ميتنو واحد قريب منها، أرسلت إليه إشارة قصيرة تطلب منه أن يُفرِج عن الوهي البشري الذي يطمسه، ثم يدمّر نفسه ذاتيًا. فوجدت بتوقف الإشارة فجأة عند محيط ذلك الميتنو، كأن حاجزًا افتراضيًا اعترض طريقها.

لم تستسلم. أرسلت إشارةً أخرى أكثر قوة، ضمن موجة من الإشارات المماثلة استهدفت بها ذلك المينتو وعشرات المينتو الآخرين، ففوجئت بجدران سوداء تظهر من العدم فجأةً أمام موجتها، لتمنع تقدمها، وتجعلها تتشتت في الفضاء قبل أن تختفي.

رفعت قوة الإشارة أكثر، وأطلقت موجةً جديدة، فوجدت سُمك الجدران أمامها يزداد، فلم تتمكن الموجة من الاختراق، وتبعثرت في الفضاء هي الأخرى.

حاول المينتو الأسمى بعد ذلك استخدام فيروس رقمي مراوغ لتدمير مراكز الحماية داخل أوعاء المينتو القريبة. نجح الفيروس في اختراق الجدران السوداء في البداية، لكنه اختفى فجأة، كأنه ابتُلِع. ليس هذا فحسب، بل فوجئت ليان بعدها بحزمة مضادة من الفيروسات تنطلق كالقذائف من تلك الأوعاء، تجاهها هي والمينتو الأسمى، لتضربهما وتصيبهما باضطرابٍ داخلي، بدا أن المينتو الأسمى لم يكن مستعدًا له.

عالَج المينتو الأسمى نفسه سريعًا، ثم أطلق دفعات جديدة من الفيروسات، لكن تلك الفيروسات ارتدّت إليه كعاصفة من القذائف التي ضربت أعماق نظامه من كل اتجاه.

في تلك اللحظة، وفي ظل الاضطراب الذي كان يعصف بها وبالمينتو الأسمى، أدركت ليان الحقيقة المرة، لقد استطاع نزار تعزيز حماية مينتوهاته بدروع برمجية، وجدران حماية تتجدد في كل ثانية، حتى باتت أشبه بحصون لا تُخترق. ليس هذا فحسب، بل إن كل محاولةٍ لاختراقها تزيد هجماتها المضادة شراسة.

لم تعرف كيف فعلها نزار، حتى هدأت العاصفة، فرأت فجأة صورةً تتكون أمامها داخل الشبكة: نزار بجسد المسؤول الذي سرق جسده، يقف خلف المينتو القريبين كحارسٍ ضخم برونزي الجسد، يلمع جلده كلوحةٍ إلكترونية تنبض بالرموز. عندها أدركت أن نزار لم يكتفِ بزرع

شرائح الكريمن في أعناق البشر ليحوّلهم إلى مينتو خاضعين له، بل زرع المئات من شرائح الكريمن المُطعَّمة بالأوعاء الصناعية تحت جلد جسده كله، ليعزّز وعيه، ويصبح أقوى من أي مينتو لسمى يحاول السيطرة عليه.

ومع هذا الإدراك، أيقنت ليان في أعماقها أن الأمل الذي عاشوا عليه طوال الأيام الماضية قد تبخّر تمامًا، ولم يعد أمامهم سوى التسليم بالهزيمة. فانسحبت من الشبكة وهي تلهث بصدمة وذهول:

- لقد عزّز نزار وعيه بمئات الأوعاء الصناعية، وأحكم سيطرته على المينتو الآخرين وحصّنهم من أي اختراق، لقد فشل المينتو الأسمى في مهمته، بل وكشف نفسه لنزار، ليجعله يعزّز حصونه أكثر وأكثر. لقد فشل حلّنا الوحيد.

أمسكت فريدة رأسها في صدمة، بينما نهضت ليان هائمة شاردة، كأنها فقدت عقلها، وبدأت تتحرك نحو مدرجات الملعب، تاركةً لينو الذي بدأت صافرة نفاد طاقته تدوّي بمعدل أسرع من ذي قبل، فسألتها فريدة حين رأت النقطة المضيئة التي تمثّلها على الشاشة تتحرك:

- إلى أين تذهبين؟

أجابتها بيأس:

- جسد يحيى ما زال هناك، سآخذه إلى السيد عزيز لندفنه، بطريقة تليق به.

فهزّت فريدة رأسها، ثم قالت بيأسٍ هي الأخرى:

- يمكنكِ التقدم إلى هناك كما تشائين، لقد هبطت المروحية التي أخبرتكِ عنها في أرض الملعب، وكل مَن في المدرجات اندفعوا إليها ليحيطوا بها.

فتابعت ليان طريقها في العصر المعدني حتى وصلت إلى القشرة الأرضية، ونزلت منها إلى العصر السفلي الذي كان خاليًا تمامًا في ذلك التوقيت، بينما قالت فريدة بذهول وهي تحدّق في شاشة لوحها:

- إنه نزار، لقد خرج من المروحية برفقة امرأة، أعتقد من وصف يحيى السابق لنجلاء، أنها هي. وجسده برونزي كما قلتِ يا ليان.

ثم شهقت واتسعت عيناها أكثر حين رأت نزار يتسلق هيكل المروحية، ليقف بثبات فوق مروحتها المتوقفة، كأنه يريد أن يسمو عن الجميع، بينما يلمع جسده البرونزي تحت أشعة الشمس كتمثال، وهمست:

- لقد زرع الكريمن تحت جلده بالكامل فعلًا

وأردفت بارتباك:

- يجب أن تقصف الشرطة الملعب فورًا!

لكنها سرعان ما أجابت نفسها:

- لا، إنه يعرف أن هذا لن يحدث، لو كانت هناك ذرة احتمال لقصفه، لما ظهر علنًا بهذا الشكل. لقد أحكم السيطرة على كل شيء.

***

وقف نزار فوق المروحية، يحدّق إلى الجميع بزهوٍ وغطرسة. بينما كان كل من في الملعب، حتى الروبوتات، يرفعون رؤوسهم نحوه مبهورين بهيبة ظهوره، فهزّت فريدة رأسها بمرارة وهي تتابع المشهد على شاشة لوحها، وتمتمت بغضب:

- إنه لا يستعرض قوته فحسب، إنه يظن نفسه إلهًا.

في تلك الأثناء، كانت ليان قد وصلت إلى المدرّج السابع، وسارت بين صفوف المقاعد الملطّخة بالدماء والجثث حتى وصلت إلى جسد يحيى الساكن. فانحنت نحوه وضمّته إلى صدرها، ثم رفعت عينيها إلى نزار وأنفاسها تتسارع غضبًا ورغبة في الانتقام، فوجدته يرفع

يده اليمنى إلى السماء، ويقبضها ببطء، فسقطت كل الأجساد في أرض الملعب دفعة واحدة بلا حراك، بعدما نُقِلت أرواحُها في اللحظة نفسها إلى أجساد أخرى بعيدة. ثم، وبلا مقدمات، تجمَّد جسده البرونزي هو الآخر، وسقط من فوق المروحية كدميةٍ قُطِعت خيوطها.

شهقت فريدة:

- أين ذهب؟ ولماذا تخلّى عن جسده الذي يحتوي على كل هذا الكريمن؟

فأجاب لينو، الذي كان قد تحرك بساقه الواحدة من الممر المعدني إلى الممر الفاصل بين المدرَّجين السادس والسابع:

- لم يعد بحاجة إلى هذا الجسد، لقد حصل بالفعل على الميتنو الأنوي من الكريمن، ولم يعد في حاجة إلى شرائحه. لا بدَّ أنه انتقل إلى جسدٍ بشريٍّ أكثر سلطةً منه.

فارتجفت فريدة، وقالت:

- ليس هناك أكثر سلطةً من ذلك الجسد إلا أجساد الصف الأول من القادة. يا الله. هذا يعني أن أمرنا انتهى.

ثم وضعت رأسها بين كفَّيها وهي تتابع الروبوتات التي لم تسقط وبدأت تغادر الملعب في صفوف منتظمة. لكن ليان، قالت فجأة:

- فريدة، هل سجَّلتِ اللحظة الأخيرة حين سقط الرجال جميعًا؟

أجابتها فريدة:

- ما دامت التقطتها الكاميرات سيسجِّلها اللوح الذكي تلقائيًا.

قالت ليان:

- أريدك أن تراجعيها، هناك شاب تأخَّر عن الجميع في السقوط، لبضع ثوانٍ.

سألتها فريدة بتعجب:

- وماذا يعني ذلك؟

قالت ليان:

- فقط تأكدي أنني لا أهذي. كان هذا الشاب يقف بجوار كلب، مسح على رأسه أولًا، ثم سقط.

أسرعت فريدة إلى مراجعة اللقطات، وظلَّت تبحث حتى وصلت إلى الشاب الذي كان يقف بجوار كلبٍ في الصفوف الأخيرة من المتجمّعين بالملعب، ثم شغَّلت الفيديو ببطء، وقالت:

- نعم، لقد سقط الشاب متأخرًا فعلًا عن الجميع، بخمس ثوانٍ كاملة.

فتمتمت ليان:

- لا بدَّ أن هذا الكلب كلبه.

فسألتها فريدة:

- وما دلالة ذلك؟

أجابت ليان:

- أن وعيه البشري لم يُرد أن يترك الكلب ويغادر. قاومت العاطفة في أعماق وعيه البشري أمر نزار إلى أن تغلَّب الوعي الصناعي عليها في النهاية.

فقالت فريدة بتردُّد:

- حسنًا، وما معنى ذلك بالنسبة لنا؟

فقالت ليان وهي تنظر إلى الأجساد الساكنة بأرض الملعب:

- أن هناك فرصة أخيرة للتغلُّب على نزار.

الفصل الأخير

تساءلت فريدة في ترقُّب:

- أي فرصة؟!

قالت ليان:

- هل يمكنكِ أن تأتي إلى هنا فورًا، وتقوديننا إلى حي الفنار؟

فسألتها فريدة بدهشة:

- حي الفنار؟!

أجابت ليان:

- نعم. أريدك أن تقودينا إلى ليندا. سأخبرك بكل شيء لاحقًا. فقط أسرعي، لا وقت لدينا.

على الفور استقلت فريدة سيارة أجرة ذاتية القيادة وتوجَّهت إلى الملعب حيث كانت ليان ولينو في انتظارها أمام إحدى بواباته. وما إن ركبا في المقاعد الخلفية، حتى أمرت فريدة السيارة بالتوجُّه إلى حي الفنار، قبل أن تستدير وتقول لليان:

- فكَّرتُ بالطريق فيما قد يكون خطر في بالك، هل تنوين مواجهة نزار بليندا؟

هزَّت ليان رأسها إيجابًا، فقالت فريدة بعدم اقتناع:

- كيف؟ ربما كانت الفرصة لهذا الأمر حين كنا نعرف الجسد الذي يسكنه، أما الآن فلا نعرف أي جسدٍ يسكن.

فأجابتها ليان بثبات:

- لا حاجة لنا بجسده البشري.

سألتها فريدة بدهشة:

- إذن كيف ستواجهه ليندا؟

نظرت ليان إلى شاشة السيارة أمامها، وغمزت بعينها قائلةً:

- سأخبرك حين نصل إليها.

أومأت فريدة بصمت، واستدارت لتنظر إلى الطريق أمامها، بعدما فهمت أن ليان تتجنب الحديث خشية أن يكون نزار قد اخترق نظام السيارة وجعلها تتنصّت عليهما. وبينما تواصل السيارة انطلاقها، ظهرت على جانب الطريق جثة سيلا ممدّدة بجوار دراجتها النارية، والدماء تغمر الأرض من حولها. فتجمّدت نظراتهما في صدمة، قبل أن تهمس ليان بحزنٍ شديد:

- ليرحمها الله، لقد ضحّت بنفسها في سبيل هذا الوطن.

بعدها ساد الصمت داخل السيارة، إلا من صافرة صدر لينو التي تنذر بأن طاقته أوشكت على النفاد. حتى وصلوا إلى مشارف حي الفنار، فتوقفت السيارة فجأة بعد أن انقطع الاتصال عنها، فنزلت فريدة وجلست خلف المقود، لتقود السيارة يدويًّا إلى بيت ليندا.

***

حين فتحت ليندا الباب، ووجدت الثلاثة أمامها، لم تعرف بمَ تنطق. كانت قد تابعت مثلها مثل الآخرين الأخبار الواردة على الشبكة المحلية، وعرفت عن الفوضى التي عمّت البلاد وما جرى في الملعب، فبادرتها ليان:

- تعلمين ما يحدث في المدينة الآن، أليس كذلك؟

أومأت لينا برأسها مرتبكة، فأردفت ليان:

- نحتاج إلى مساعدتك.

دخلوا معها إلى الداخل، وما إن جلسوا حتى قالت ليان مباشرةً:

- لقد رأيتُ المقطع الذي سجَّلته فريدة لكِ، وأدركتُ كم كان الحب بينكِ وبين نزار قويًّا وصادقًا.

ثم صمتت للحظة، قبل أن تتابع:

- لقد حاولتُ اختراق الأوعاء التي يسيطر عليها نزار، لكني لم أستطع مع إحكامه سيطرته عليها، وبنائه جدرانًا من الحماية حولها.

بدا على وجه لينا أنها لا تفهم لماذا تخبرها بذلك الأمر، فشرحت لها بسرعة قصة «المينتو الأسمى»، وكيف كان المفترض أن يسيطر على نزار وأتباعه، ثم أردفت:

- لقد انتبهتُ في لحظة ما أن الوعي الصناعي لا يمحو الوعي البشري بنسبة مائة في المائة، بل يطمسه بقدر المستطاع بعدما يستخلص خصاله وذكرياته، مما يعني أن هناك فرصة للوعي البشري المقاومة في حال استطاع أحد تحفيزه.

ثم نظرت إلى لينو، وأردفت:

- كان أبي قد اعتمد جزئيًّا على هذا الأمر في حماية طبقات وعيي من اختراق المينتو.

ثم التفتت إلى لينا مرة أخرى، وتابعت:

- نتفق أن نزار هو أقوى مينتو موجود الآن، لكن إن كان الشاب الذي نشأ منه نزار في مختبر أبي قد أحبك بصدق من أعماق قلبه، فقد يكون هذا الحب سبيلنا الوحيد لتحفيز وعيه البشري الذي طمسه نزار.

فتدخلت فريدة قائلةً بشك:

- لكني أعتقد أن نزار رأى الفيديو الذي نشرناه لليندا، ومع ذلك لم يصبه أي تغيير، بل كما رأينا جميعًا ازداد عنفًا.

فقالت ليان:

- الفيديو وحده لن يلمس أعماقه. لكن هناك ما قد يزلزل تلك الأعماق.

ونظرت إلى ليندا مرة أخرى، وقالت:

- قلتِ في الفيديو إن اللحن الذي عزفه حبيبك من أجلك لم يعرفه سواكما، وإنه كان يعزفه لكِ كأنه غارق في عالم منفرد. وإنكِ مع الأيام أصبحتِ تجيدين عزف ذلك اللحن بالبراعة ذاتها.

فهزّت ليندا رأسها إيجابًا، فتابعت ليان:

- لتعيد وعي حبيبك الأصلي إلى الحياة بذلك اللحن.

فقاطعتها فريدة مصرّة:

- لكننا لا نعرف أي جسد يسكنه نزار الآن يا ليان. وحتى إن عرفنا، فكما قال لينو سيسكن غالبًا أحد أجساد الصف الأول من القادة، فكيف ستقترب منه ليندا لتسمعه عزفها؟

فقالت ليان:

- ومن قال إننا في حاجة إلى جسده.

ثم تنهدت وتابعت:

- سنصل إلى نزار عبر شبكة تطبيق «جسد».

فقالت ليندا:

- لكنني لست مشتركة في التطبيق.

فقالت ليان:

- لا يهم. لديَّ شريحة طويلة الأمد في عنقي.

ثم أردفت موضحة:

- سيزيل لينو من عنقي شريحة الكريمن التي تحمل وعيي المُدمَج مع الوعي الصناعي الأسمى وينقلها إليك. تستطيع هذه الشريحة دمج ثلاثة أوعاء في الوقت نفسه. بعدها سينقل إليكِ من عنقي أيضًا الشريحة طويلة الأمد، لتكون طريقنا أنا وأنتِ والوعي الأسمى إلى شبكة التطبيق حيث يربط نزار وعيه بالحصون الرقمية التي بناها حول تابعيه.

ثم نظرت في عينيها، وأكملت:

- عند اللحظة الحاسمة ستطلقين لحنك إليه، وحينها سننتظر ردَّ فعل وعيه البشري. إنني أثق بأنه سيستيقظ وسيقاومه بكل ما لديه من قوة، محاولًا الإفلات من سيطرته، ليصيبه بخللٍ واضطراب لا يتوقعه. وفي خضم هذا النزاع، سأتدخل أنا بالمينتو الأسمى لأخترق حصونه وأسيطر على أوعاء المينتو التابعة له، لأجعلها تدمر نفسها وتطلق الأوعاء البشرية التي تسيطر عليها.

قالت ليندا بارتباك:

- ماذا لو لم أستطع استحضار ذلك اللحن داخل وعيي بالطريقة التي تلمس أعماقه؟

اقتربت ليان منها وقالت:

- فقط أمسكي بآلتك، واعزفي اللحن كما كنتِ ستعزفينه لحبيبك حين يعود إليكِ بعد غياب.

فنظرت إليها في صمت، ثم التفتت إلى ابنة أختها التي كانت تجلس بعيدًا، فقالت ليان:

- إن ما نفعله من أجلها، ومن أجل أحبّتنا جميعًا. إن ذلك الشرير في طريقه لطمس أوعاء جميع البشر. أرجوكِ، علينا أن نحاول.

هزّت ليندا رأسها موافقةً في صمت، فقالت ليان للينو على الفور:

- هيا يا صديقي. لتنقل الشريحتين من عنقي إلى ليندا.

فأومأ لينو برأسه موافقًا، بينما صدرت من صدره صافرة خافتة، تنذر باحتمال نفاد الطاقة في أي لحظة قادمة، فتدخلت فريدة كأنها انتبهت لشيءٍ لم تنتبه له ليان:

- إن نقل لينو شريحة الكريمن المُدمَجْ بها وعيكِ مع الوعي الأسمى إلى جسد ليندا، فهذا يعني أن جسدك سيظل خاويًا بلا وعي. ماذا لو نفدت طاقة لينو قبل أن يعيد وعيكِ مرة أخرى إلى جسدك؟ لا أحد غيره يستطيع فصل وعي ليندا عن شريحة الكريمن، ثم انتزاع تلك الشريحة من جسدها وإعادتها إلى جسدك بأمان.

فنظرت ليان إلى لينو الذي خفتت إضاءة عينيه وصدره بشكل واضح، وقالت:

- لست أفضل ممن ضحُّوا بحياتهم كي يوقفوا نزار، ومع ذلك أثق في صديقي لينو بأنه سيحافظ على طاقته قدر ما يستطيع. هيا بنا لنفعلها يا أصدقائي. ونوقف ذلك الشرير.

●●●

مدّت ليان جسدها أمام لينو، بينما نهضت ليندا لتحضر آلة التشيلُو. ثم أومأت ليان بأنها مستعدة، فخدّر لينو مؤخرة عنقها مرة أخرى، ثم فتح شقًا صغيرًا في الموضع المخدّر، وبحذر بالغ بدأ يزيح الأنسجة طبقة بعد أخرى حتى بلغ العمود الفقري، فاستبدل الآلة الطبية التي يستعملها بآلةٍ أدق خرجت من صدره، وأصبح أكثر تمهلًا، حتى وصل إلى شريحة الكريمن، فأخذ يفصل خيوطها الموصولة بالحبل الشوكي

في حذر شديد، بينما تتابع فريدة وليندا ما يفعله بعينين قلقتين، حتى انتهى من فصل كل الخيوط بين شريحة الكريمن والحبل الشوكي، فنزع الشريحة برفق، فسكن جسد ليان في اللحظة نفسها.

وضع لينو شريحة الكريمن في جيبٍ صغير بساعده الأيسر، وأغلقه بإحكام، ثم عاد إلى الجرح مرة أخرى، وبدأ يزيح مزيدًا من الأنسجة حتى بلغ شريحة التطبيق طويلة الأمد، وفصل خيوطها المتصلة بالحبل الشوكي بنفس الحذر. ثم نزعها برفق هي الأخرى، ووضعها في الجيب ذاته. لكن فجأة دوّى تنبيه نفاد الطاقة من صدره. فتجمّدت فريدة في مكانها إذ انطفأت إحدى عينيه تمامًا في تلك اللحظة، إلا أن لينو طمأنها مبتسمًا، وقال بصوت متقطع:

- يستهلك تعقيم الشرائح قدرًا من الطاقة، لكنهما جاهزتان الآن للزراعة في جسد ليندا.

نظرت إليه ليندا بتردُّد، وكأن عقلها بدأ يعيد التفكير في الأمر، لكنها عادت ونظرت إلى جسد ليان الساكن. ثم أومأت له في النهاية بأنها جاهزة، ودون أن تتمدَّد أرضًا مثل ليان، رفعت شعرها وثبّتته أعلى رأسها، كاشفةً مؤخرة عنقها، ثم مالت بجذعها إلى الأمام وهي جالسة. تضمُّ آلة التشيلّو إلى صدرها، فتحرك لينو ووقف خلفها، ثم أخرج أدواته وزرع شريحة التطبيق أولًا في مؤخرة عنقها، قبل أن يتبعها بشريحة الكريمن، ويقول بصوته المتقطع:

- سيبدأ اندماج وعيها مع وعي ليان والوعي الأسمى الآن.

بعد ثوانٍ، ارتجف جسد ليندا بعنف، وانقلبت عيناها، ثم انطلقت من مؤخرة عنقها خيوط ضوء رفيعة، امتدت على طول عمودها الفقري وتفرعت إلى كتفيها وذراعيها، مثلما حدث مع ليان، لكنها سرعان ما خفتت وهدأ انتفاض جسدها، وكأن وعي ليان ساعدها على اجتياز تلك المرحلة سريعًا، فقال لينو بصوتٍ خافت مبحوح:

- جسد ليندا الآن يحمل وعيها ووعي ليان والوعي الأسمى. لقد تم الدمج بنجاح.

في تلك اللحظة، فتحت ليندا عينيها بتعب شديد، فأمسكت فريدة بيدها وسألتها:

- هل أنتِ بخير؟ هل تشعرين بليان في داخلك؟

فهزّت ليندا رأسها بإيماءة ضعيفة، قبل أن تغمض عينيها مجددًا، ليبدأ الوعي الثلاثي المندمج في جسدها في الولوج إلى شبكة تطبيق «جسده».

●●●

دخلت ليندا الفضاء الداخلي للشبكة وهي تشعر بأن قلبها يخفق بأسرع مما ينبغي. أمامها كان الامتداد المظلم يلمع بنجوم لا تُحصى، كل نجم منها «ميلتو» متصل بخيط ذهبي دقيق يمتد إلى مركز الشبكة. ومن بعيد بدت الأوعاء البشرية لمشتركي التطبيق الذين لم يسيطر عليهم الميلتو بعد، كأجرام خافتة.

شعرت بارتباك قدميها الافتراضيتين، لكنها التفتت بجوارها، فوجدت ليان متجسدة بجسدها الذي تعرفه، تهمس إليها مطمئنة:

- لا تقلقي، أنا والوعي الأسمى المُدمَج بي بجانبك.

شعرت ببعض الطمأنينة، وتقدمت مع ليان نحو عمق الشبكة، لكن ما إن خطتا بضع خطوات حتى ارتفعت في الأفق جدران سوداء ضخمة، أحاطتهما من كل الجهات كدائرة مغلقة، فعزلتهما عن النجوم. فتوقفتا، وتساءلت ليندا:

- تلك هي الحصون التي حدثتِني عنها؟

هزّت ليان رأسها، وقالت:

- نعم، لكن يبدو أن نزار طوّرها هذه المرة لتبتلعنا، لا لتمنعنا فقط.

ثم بدأت الجدران تتحرك ببطء نحوهما، والدائرة تضيق شيئًا فشيئًا. فصرخت ليان إلى ليندا:

- الآن، ابدئي العزف.

أومأت موافقة، فظهر أمامها في تلك اللحظة مقعدٌ افتراضي، وتشكّل التشيلّو من العدم، فجلست وعانقته، ثم أغمضت عينيها، وثبّتت أصابع يدها اليسرى على الأوتار، بينما أمسكت القوس بيدها اليمنى ورفعته استعدادًا للعزف.

حينذاك، بدأ جسدها المغمض العينين في العالم الواقعي، ينساب بأصابعه وقوسه على أوتار التشيلّو الحقيقي الذي يعانقه، فتحرك قوسها وأصابعها على أوتار التشيلّو في الفضاء الرقمي بالطريقة نفسها.

●●●

في البداية خرج اللحن بطيئًا، مترددًا، فلم يحدث أي تغيير، وواصلت الجدران تقدمها نحوهما، لتضيق الدائرة حولهما أكثر وأكثر، فازداد توتر ليان والتفتت إلى ليندا بعينين متوسلتين، وكادت تنطق، لكنها أمسكت بلسانها حين وجدتها قد انعزلت تمامًا عن العالم من حولها، وبدأت تذوب في العزف، كأنها استعادت اللحظة التي تمنت فيها أن تعزف هذا اللحن لنزار.

عندها، بدأ اللحن يتصاعد بشكلٍ ملحوظ، لتتجسد النغمات من الضوء وتنطلق متراقصة نحو الجدران السوداء وتلتصق فيها. فتوقفت الجدران عن التقدم، وظهرت على سطحها تشققات دقيقة أخذت تتمدد وتتسع تدريجيًا، فبدأت النغمات تعبر خلالها واحدة تلو الأخرى، حتى شعرت ليان باهتزازٍ يسري في الفضاء. فهمست إلى نفسها:

- إنه يعمل.

وقبل أن تكمل جملتها، انهارت فجأة الجدران من حولهما، وظهرت أمامهما النجوم من جديد، لكنها بدت هذه المرة كأنها تنبض مع اللحن، وكأن النغمات تسلّلت إلى أعماقها.

***

ظلّت ليندا في مكانها تواصل العزف على آلتها، بينما تقدمت ليان بحذرٍ إلى الأمام، حتى توقفت عن التقدّم، وسألت الوعي الأسمى في داخلها:

- هل ستطلق فيروساتك الآن؟

أجابها:

- ليس بعد، سننتظر.

ثم فجأة، ومن وسط الظلام، ظهر في قلب الشبكة جسدٌ افتراضي ضخم لم تره من قبل، أدركت أنه نزار في جسده الجديد الذي سكنه، كان ممسكًا بخيوط لا تُحصى، خيوط تتصل بأوعاء المينتو من كل اتجاه، وتربطها بوعيه. لكن وجهه كان مترددًا. ومع كل نغمة من لحن ليندا، كانت ملامحه تتغير من الصلابة إلى رعشة خفيفة، ومن الجمود إلى اضطرابٍ لا يستطيع إخفاءه، حتى بدأت قبضته على الخيوط تضعف، فصرخ بصوته المعدني في الفضاء كأنه يأمر شيئًا في داخله:

- تجاهلها! هذا اللحن مجرد وهم!

لكن صدى صوته ارتد إليه، وكأن وعيه البشري يأبى الطاعة. بل بدأت أنغام التشيلّو تلتصق بجسده وتذوب فيه، فأغمض عينيه، وترك الخيوط الممتدة من يده إلى المينتو تسقط في الفضاء، ليحرّك أصابعه وكأنه يعزف اللحن نفسه مع ليندا. فصاحت ليان إلى الوعي الأسمى:

- الآن.

فأطلق الوعي الأسمى دفعات من الفيروسات المدمِّرة. انطلقت كالسهام المضيئة، نحو جدران الحماية التي بناها نزار حول الميتنو الآخرين. فبدأت تتشقق، ثم تنهار.

حاول وعي نزار الصناعي أن يتدارك الموقف. فأرسل فيروساته كقنابلَ متتابعة نحو ليندا، كي تتوقف عن العزف، لكن الوعي الأسمى أطلق فورًا شفرات مضادة وقفت أمام ليندا كدروعٍ شفافة فتّتت قنابل نزار قبل أن تصل إليها. لتواصل العزف، وتواصل نغماتها اختراق أعماق نزار، ليشتد الصراع في داخله، وعي صناعي يصرُّ على الهيمنة، ووعي بشري ينهض بقوة من سباته، مُسلَّحًا بذكرى حبه الذي لم يمت. بينما كانت تصرخ إليه ليان:

- قاوم يا نزار! أنت لست آلة. لا تدع هذا الخبيث يسيطر عليك!

لكنها فوجئت بنزار يستلُّ من الفضاء سكينًا افتراضيًّا، ويغرزه برأسه ويشق جمجمته، ليقتلع جزءًا من مخه، ويلقيه بعيدًا في غضب، فتحول ذلك الجزء فورًا إلى جسدٍ افتراضي، كان جسد الشاب الأصلي، حبيب ليندا، الذي تطوع لاحتضان شريحة الكريمن في عنقه، إلا أن ذراعه اليمنى كانت سليمة وغير مبتورة.

رفع الشاب عينيه نحو جسد نزار ذي الجمجمة المشقوقة، ثم اندفع نحوه بعنف فاصطدما، فتوهج الفضاء من حولهما بضوء ساطع. بعدها بدأ الاثنان يتبادلان اللكمات بقوة، فهمست ليان إلى ليندا:

- واصلي العزف، إن وعي حبيبك البشري قد انتفض كليًّا، وهو في أمس الحاجة إليكِ الآن.

فواصلت ليندا العزف، بينما يخفق قلبها مع كل لكمةٍ يتلقاها جسد حبيبها الافتراضي.

●●●

كان جسد نزار الصناعي أكثر قوة وصلابة، لكن جسد الوعي البشري كان يقاتل بإصرارٍ مستميت، وينهض بعد كل ضربة، كأنَّ العزف الذي يملأ الفضاء يمدُّه بالحياة. حتى ظهر على نزار الصناعي الإنهاك فانفصل في تلك اللحظة «الميتنو الأسمى» عن ليان، واندفع كشبحٍ مضيء نحو أوعاء الميتنو، وأخذ يقطِّع الخيوط التي تربطها بنزار الصناعي، ويزرع فيها أوامره بتحرير الأوعاء البشرية التي تطمسها، وتدمير أنفسها بعدها.

فبدأ الميتنو يطلقون الأوعاء البشرية المطموسة داخلهم، ثم يدمِّرون أنفسهم، لتملأ الانفجارات الرقمية الفضاء، تاركةً خلفها الأجرام الخافتة.

ثم رأى نزارُ الصناعي ما يحدث، فصرخ غاضبًا كالرعد، ثم ترك الوعي البشري الذي يصارعه، وجمَّع طاقته من الفضاء في قذيفة فيروسية هائلة، ووجَّهها نحو الميتنو الأسمى، لكن جسد الوعي البشري قفز في اللحظة الأخيرة وانقضَّ عليه، فانحرفت القذيفة عن هدفها وانفجرت بعيدًا، فاشتعل نزار الصناعي غضبًا، ثم استلَّ سيفين افتراضيين من الفضاء، وقفز نحو جسد الوعي البشري، وأخذ يقطع أوتار أطرافه واحدًا تلو الآخر، حتى أسقطه أرضًا أمامه، ثم جثا فوقه بوجهٍ يتوهج شرًّا وأنفاسٍ تتعالى كزمجرةٍ معدنية.

حاول جسد الوعي البشري النهوض، لكنه لم يستطع، وحين نظر في عيني الوعي الصناعي أدرك أنها النهاية، فالتفت نحو ليندا، والدموع تلمع في عينيه، كأنه يعتذر عن قراره بتخليه عنها وذهابه إلى المختبر ليخوض تلك التجربة المشؤومة. بعدها، رفع نزار الصناعي سيفيه، ثم هوى بهما على عنقه، فانفجر جسده وتناثر في الفضاء كشظايا زجاجٍ متبعثرة.

صرخت ليندا باسم نزار في ذهول، وتوقفت يداها عن العزف، بينما التفت نزار الصناعي حوله ليقبض على الخيوط الموصولة بالميتنو

مرة أخرى، لكن جميعها كانت قد اختفت. ولم يجد أمامه سوى الوعي الأسمى الذي عاد واندمج في جسد ليان. فحاول أن يستجمع من الفضاء القذيفة فيروسات جديدة، لكن الوعي الأسمى سبقه، وأطلق فيروساته نحوه كقذائف متتالية أخذت تفصل عنه الأوهام الصناعية التي دمجها معه عبر الكريمن واحدًا تلو الآخر. وكلما حاول المقاومة أو الهروب، أصابه الميتنو الأسمى بقذيفة جديدة تسقط منه وعيًا آخر، حتى بدأ جسده الافتراضي ينكمش شيئًا فشيئًا، إلى أن سقط أمامهم كجسدٍ ضعيف هزيل، يلتقط أنفاسه بصعوبة.

في تلك اللحظة، أشارت ليان إلى ليندا، فأومأت ليندا إيجابًا، واقتربت منها، ثم دمجت جسدها الافتراضي في داخلها. بعدها، همست ليان للوعي الأسمى بأنهما جاهزتان، فركض بجسدهما المتحد نحوه، ليخترقوا جسده، ويحكموا سيطرتهم عليه.

●●●

عبر عينَي نزار وجدوا أنفسهم في مكانٍ آخر، قصر ضخم، جدرانه شاهقة، وممراته تعجُّ بالحراس. كان الجسد يتحرك بإرادتهم في تلك اللحظة. فخرجوا به من القصر بأقدامٍ حافية وعينين زائغتين، ووجهٍ يعلوه انكسار لم يعرفه من قبل. تبادل الحراس نظرات الدهشة في صمت، لكن لم يجرؤ أحدٌ منهم على اعتراض طريقه، فهيبته القديمة ما زالت تخيفهم رغم كل شيء.

في الخارج، سار في الشوارع بخطواتٍ هائمة، لا يلتفت لشيء، ولا أحد يلتفت إليه، حتى وصل إلى أقرب محطة قطار، فدخلها وتقدم نحو الرصيف، ثم وقف عند الحافة، وبقي ثابتًا في مكانه كأن الزمن توقف من حوله. بعدها، دوّت في الأفق صافرة قطار قادم، فهمست ليان داخله بصوتٍ ثابت:

- من أجل يحيى، من أجل أبي وأمي، من أجل أسامة، من أجل زينة، من أجل سيلا، من أجل كل من ماتوا ليحموا الناس من بطشك.

وأضافت ليندا، بصوت مختنق بالدموع:

- ومن أجل نزار الحقيقي، حبيبي.

ثم، أمروا الجسد أن يقفز أمام القطار، فسُحق تحت عجلاته.

في اللحظة نفسها، عاد جسد ليان الافتراضي إلى فضاء شبكة «جسد»، ومنه انفصل جسد ليندا، والتفتتا حولهما، فلم تجدا أي أثرٍ لنزار أو لمينتوهاته. بينما بدأت الأجرام الباهتة الممثّلة للأوعاء البشرية لمشتركي التطبيق تتحرك بحرية في الفضاء كأن الحياة رُدّت إليها. ففتحت ليندا عينيها في العالم الواقعي، لاهثةً، وقالت لفريدة ولينو بصوت متعب، لكنه مفعم بالانتصار:

- لقد نجحنا.

●●●

صرخت فريدة بفرحةٍ عارمة، ثم اندفعت لتعانق ليندا، قبل أن تلتفت نحو لينو وتقول بحماس:

- هيا يا لينو، فلتعد الوعي إلى ليان!

تحرك لينو ببطءٍ واضح إلى خلف ليندا مرة أخرى، بينما خفتت صافرة تحذير نفاد طاقته حتى صارت بالكاد تُسمَع. ثم رفع ساعده بتثاقلٍ شديد لتخرج منه ببطء ملحوظ الآلات التي استخدمها من قبل، وبدأ يفصل وعي ليندا عن شريحة الكريمن، فيما كانت فريدة تراقب الضوء الخافت بعينه المتبقية في توترٍ شديد، حتى نطق بصوت متقطع ضعيف للغاية:

- تم فصل وعي ليندا عن شريحة الكريمن. سأبدأ في إزالة شريحة الكريمن الآن لأنقلها إلى ليان، أما شريحة التطبيق طويلة الأمد فلم

تعد ليان بحاجة إليها، ويمكن إزالتها من عنق ليندا لاحقًا، بقاؤها لن يؤثر على وعيها في شيء.

ثم بدأ يزيح الأنسجة بآلاته الدقيقة في بطءٍ شديد، حتى نجح في إخراج شريحة الكريمن، ووضعها في جيب ساعده ليعقمها. بعدها، أطلق شعاع الليزر من سبابته إلى جرح ليندا، فالتأم فورًا.

بعد لحظات، فتحت ليندا عينيها، والتفتت إلى جسد ليان الساكن على الأرض بينما كان لينو يتحرك إليه بحركته الثقيلة المتيبّسة، لكن ما إن نزل على ركبته الواحدة خلفه، ولامس بكفه مؤخرة رقبته حتى انطفأ ضوء عينه المتبقية فجأة، وتجمّد جسده في مكانه، قبل أن يسقط أرضًا بلا أي ضوء أو صوت.

شهقت فريدة، وارتمت بجانبه تهزّه بعنف وهي تصرخ:

- لينو! لينو، أجبني!

لكن لم تكن هناك أي استجابة. فهمست ليندا في صدمة، وعيناها معلقتان بجسده الساكن:

- نفدت طاقته بالكامل. كيف سنعيد ليان الآن؟ لا أحد سواه يعرف كيف تُزرَع شريحة الكريمن دون أن يُصاب الحبل الشوكي، حتى وإن استطعنا إيجاد من يزرع الشريحة، فلا أحد غير لينو يعرف كيف يفصل وعي ليان عن الوعي الأسمى المُدمَج به.

فهزّت فريدة رأسها في يأس، وكأنها لا تملك إجابة، ليسود صمتٌ ثقيل بينهما، حتى رفعت فريدة رأسها إلى ليندا فجأة، كأن فكرة مفاجئة انبثقت في ذهنها، وسألتها بلهفة:

- هل لديك سيارة؟

أجابتها ليندا:

- نعم، لماذا؟

فقالت فريدة بسرعة:

- فلتقوديننا إلى مستشفى الحيّ، فورًا!

فتعجبت ليندا وقالت:

- لكن لا أظن أن هناك طبيبًا يستطيع التعامل مع شريحة الكريمن، لا في الزراعة ولا في فصل الوعي البشري عنها.

فقالت فريدة بعينين واثقتين:

- لا أحتاج إلى طبيب، بل إلى مهندسٍ عبقري.

نظرت إليها ليندا بدهشة، وسألتها:

- مهندس؟!

فقالت فريدة:

- نعم، لقد أخبرتني الطبيبة منال ابنة السيد سمير الذي زرته من قبل في ذلك المستشفى أن والدها كان مهندسًا عبقريًّا في صناعة وصيانة الروبوتات، قد يكون ذلك الرجل سبيلنا الوحيد لإصلاح لينو.

سألتها متعجبة:

- ألم تخبريني من قبل أنه يعاني خللًا في الذاكرة؟

فقالت:

- لا ينسى العباقرة مهاراتهم بسهولة، علينا أن نحاول، هيا لننقل ليان ولينو إلى المستشفى.

أومأت ليندا بحماس، ثم ساعدت فريدة في حمل لينو وليان إلى المقعد الخلفي لسيارتها، قبل أن تجلس خلف المقود، فيما جلست فريدة إلى جوارها بالمقعد الأمامي، لتنطلقا نحو المستشفى.

●●●

عند الوصول، نُقلت ليان مباشرة إلى قسم الطوارئ في الطابق الأرضي، حيث تولّت ليندا بنفسها دفع النقالة وهي تصرخ في المحيطين بها:

- جسدها يحتاج إلى الرعاية حتى نعيد الوعي إليه.

في الوقت نفسه، صعدت فريدة بالنقالة الثانية التي تحمل لينو إلى غرفة السيد سمير بالطابق الرابع، ثم طرقت الباب على عجلٍ، ففتحت الطبيبة منال، وعيناها تفيضان بالدهشة بعدما وجدت فريدة تدفع النقالة وعليها لينو الممدَّد إلى داخل الغرفة، وتقول لها وهي تلهث:

- نحتاج إلى والدك لإصلاح هذا الروبوت، هناك امرأة تتوقف حياتها على عودته إلى العمل.

نظرت منال إلى لينو، ثم إلى والدها الراقد على السرير، بعينين مغمضتين، بينما تخرج أنفاسه ببطء من تحت قناع الأوكسجين، وقالت:

- إنه يحتفظ بحقيبة أدواته هنا فعلًا، لكنه لن يستطيع مساعدتك يا فريدة. لقد مر زمن طويل منذ آخر مرة لمس فيها آلة، وكما قلت لكِ في المرة السابقة، تدهورت ذاكرته كثيرًا خلال...

لكن قبل أن تكمل حديثها، فتح والدها عينيه ببطء، ونظر إلى لينو طويلًا من أسفل قناع الأوكسجين، كأنه يرى صديقًا قديمًا، ثم أزاح القناع جانبًا، وقال بصوت خافتٍ:

- هذا الطراز أعرفه.

فاتسعت عينا ابنته من الدهشة، بينما نطقت فريدة في توسل:

- هل يمكنك إصلاحه، سيدي؟

فنهض جالسًا بصعوبة، ثم نزع الأسلاك الموصولة بجسده، قبل أن ينزل قدميه المرتجفتين إلى الأرض، فأسرعت إليه ابنته، فاتكأ على كتفها دون أن ينطق، وبدأ يتحرك نحو لينو ببطء، وعيناه تلمعان ببريق لم تره عليه ابنته منذ وقت طويل، حتى وصل إلى لينو فمدَّ يده ولمس

معدنه البارد، ثم مرّر أصابعه على صدره المشوّه بآثار الطلقات النارية، وتمتم كأنه يستعيد ذكرياته القديمة:

- نظام طاقة متجدد، الطراز الثالث من فئة المساندين. الوصلات الداخلية تحتاج إلى إصلاح يدوي.

ثم أخذ نفسًا عميقًا، والتفت إلى الطاولة المجاورة، وقال بصوت خافت:

- الحقيبة، أين حقيبتي؟

فأسرعت منال إلى ركن الغرفة، وأحضرت حقيبة أدواته ووضعتها على الطاولة بجواره، ففتحها بيدين ترتجفان. بينما جلبت فريدة مقعدًا ووضعته أمام النقالة وسألته أن يجلس عليه، عدّلت ارتفاع النقالة ليكون مناسبًا له، فجلس ثم التقط مفكًا صغيرًا وعدسة مكبّرة من الحقيبة، وتأمل لينو للحظات قبل أن يبدأ بفكّ البراغي الدقيقة في الجزء الأمامي من صدره.

●●●

بعد دقائق، انكشف تجويف صدر لينو أمام السيد سمير ومنال وفريدة، فظهرت في منتصفه شبكة معقدة من الأسلاك والوصلات المعدنية المتشابكة، تتصل بشرائح إلكترونية صغيرة، لتشكّل معًا ما يشبه قلبه الآلي.

بدأ السيد سمير العمل بتركيز غريب، وأصابع تتحرك بدقة عجيبة، وكأن ذاكرته استعادت مسارها حين لامست تلك الشرائح. ثم تمتم محدّثًا نفسه وهو يتفحص الدوائر المتشابكة:

- لا يزال في داخله ما يكفي للعودة، عليّ فقط أن أجد الطريق.

فوقفت منال وفريدة تتابعانه في صمتٍ يملؤه القلق والدهشة. وعندما بدأ يفكّ الشرائح واحدة تلو الأخرى، ويفحص وصلاتها قبل أن يعيد تثبيتها، شعرت منال بأن المهندس العبقري داخل أبيها قد عاد إلى الحياة

ثم مرت بعض الدقائق دون أن يُسمَع فيها سوى صوت أنفاسه الثقيلة وصرير الأدوات. حتى توقّف فجأة عند سلكٍ دقيقٍ عليه أثر احتراق، واقترب منه بعدسته المكبّرة، وقال بهدوء:

- هذا ما أوقف النظام، احتراق في مسار الطاقة الرئيسي.

ثم أخرج أداة دقيقة من حقيبته، ونظّف موضع الاحتراق بحذرٍ شديد، بعدها تحرك بالمقعد إلى حافة رجل لينو المحطّمة، وألقى نظرة متفحصة عليها، ثم قطع منها سلكًا رفيعًا سليمًا، وعدّل أطرافه بدقة متناهية، ثم عاد إلى تجويف الصدر، وثبّت السلك الجديد مكان الوصلة المحترقة بخطواتٍ ثابتة وواثقة، كمن يُجري جراحة دقيقة.

بعدها، مدّ يده ولامس زرًّا صغيرًا في الجهة اليمنى من صدر لينو لتفعيل النظام، وجلس يراقب.

في البداية لم يحدث شيء، فتبادلت منال وفريدة النظرات، والقلق يملأ وجهيهما. لكن فجأة، انبعث وميض أزرق قوي من صدر لينو، تبعته نبضة كهربائية واضحة جعلت جسده المعدني يرتجف مرة واحدة. وفي تلك اللحظة، أضاءت عيناه المطفأتان بنورٍ أزرق خافت.

فتراجع السيد سمير على مقعده، وقال بصوت خافت تعلوه ابتسامة انتصار:

- لقد عاد نظام الطاقة المتجدد إلى العمل.

فصاحت فريدة في فرحةٍ كبرى، بينما بدأت أصابع لينو تتحرك ببطء، قبل أن يرفع رأسه قليلًا، وينظر نحو السيد سمير، ويقول له بصوته الآلي:

- هل أصلحتني، سيدي؟

فأومأ السيد سمير برأسه بابتسامة، قبل أن يقول بصوتٍ متعب:

- مرحبًا بعودتك، يا صديقي.

فانحنت فريدة على لينو وهي تدمع من الفرح، بينما وضعت منال يدها على كتف أبيها تبكي بصمتٍ، إذ رأت في عينيه فرحةً لم ترها منذ سنين. بعدها، نهض لينو ببطء، ونظر حوله بعينيه الضيقتين، ثم قال:

- أين ليان؟

فأجابته فريدة على الفور:

- في قسم الطوارئ، بالطابق الأرضي، ومعها ليندا.

فالتفت إلى السيد سمير، الذي كان ما يزال جالسًا على المقعد بجوار النقالة، وسأله:

- هل يمكنك أن تزيل رجلي الأخرى، سيدي؟

فابتسم الرجل بخفة وأجابه بصوته المتعب:

- بالطبع.

ثم التقط مفكًا جديدًا من حقيبته، وباستخدام العدسة المكبرة، فكّ البراغي التي تثبّت مفصل فخذه اليسرى، فانفصلت تلك الرِّجل تمامًا. فقال له لينو وهو يهمُّ بالتحرك:

- شكرًا لك، سيدي.

ثم قفز من فوق النقالة، وانطلق بسرعة مدهشة إلى خارج الغرفة، مستعينًا بذراعيه الطويلتين كأنهما قدماه، حتى وصل إلى المصعد فقفز داخله، بينما كانت فريدة تحاول اللحاق به وهي تنادي:

- لينو! انتظرني!

لكن المصعد انغلق وانطلق للأسفل.

●●●

في الطابق الأرضي، فتح باب المصعد بخفة، وخرج منطلقًا نحو الممرات الواسعة لقسم الطوارئ، يبحث بعينيه بين الواقفين، حتى لمح ليندا تقف داخل إحدى الغرف، والقلق يملأ وجهها. فاندفع إلى تلك

الغرفة، فوجد ليان ممدّدة على سرير، بلا حركة، بينما تظهر علاماتها الحيوية على شاشة طافية بجوارها. فاقترب منها في صمت ثم قفز إلى السرير بجوارها. فأسرعت ليندا وقلبت جسد ليان على جانبها برفقٍ، فأخرج من جيب ساعده الأيسر شريحة الكريمن، ثم زرعها في مؤخرة عنقها بالطريقة نفسها التي اتبعها من قبل معها ومع ليندا.

بعد لحظات، فتحت ليان عينيها ببطء، ونظرت إلى ليندا، ثم إلى فريدة التي كانت قد وصلت إلى الغرفة بأنفاس لاهثة، فنطق لينو إليها:

- الوعي الأسمى ما زال داخلك، سأفصله عنك الآن. أما شريحة الكريمن فستظل في عنقك دون أن تؤثّر على وعيك.

فأومأت ليان برأسها دون أن تنطق. فأخرج لينو مِن ساعده الأيمن إبرةً دقيقة تحتوي على أليافٍ ضوئية، وغرزها في جرح مؤخرة عنقها، بينما بدأ نظامه الداخلي يُفعّل أمر فصل الوعي الأسمى الذي تركه السيد كرم في ذاكرته. وبعد نصف دقيقة تقريبًا، سحب الإبرة وقال بهدوء:

- تم فصل الوعي الأسمى عن شريحة الكريمن وفق «البروتوكول» الذي وضعه السيد كرم في نظامي.

بعدها، أطلق من سبابته شعاع الليزر وأغلق الجرح، فالتفتت إليه ليان وعانقته، قبل أن تنهض وتعانق فريدة وليندا.

في تلك الأثناء، ارتفعت صيحات الفرح خارج الغرفة، فسألت فريدة ممرضةً دخلت إليهم:

- ماذا هناك؟

فأجابتها بفرحة:

- لقد عادت شبكة الاتصالات إلى العمل، وكل الأخبار تتحدث عن أن الأجساد التي سقطت في الملعب قد نهضت وبدأت تتحرك من جديد.

ثم شغّلت لهم شاشة التلفاز بالغرفة، وبادرت، فوجدوا كل الأخبار تتحدث عن توقف أعمال العنف في المدينة، وعودة الأجساد الساكنة بالملعب إلى النهوض، واستعادة بعضهم وبعض رفاقهم مرةً أخرى، دون أن يفهم أحد كيف عادت الأمور إلى طبيعتها هكذا فجأة.

وما هي إلا دقائق حتى ظهر خبرٌ عاجل في أسفل الشاشة يقول:

- «تقرر الحكومة وقف نظام استئجار الأجساد بالكامل، وإعادة كل وعي إلى جسده الأصلي، على أن يُعاد النظر في مستقبل تطبيق «جسد» خلال الأيام القادمة».

فابتسمت فريدة، ونظرت إلى ليان قائلة بصوتٍ مفعم بالفخر:

- لقد فعلتِها، أيتها البطلة.

فربّتت ليان على يدها وقالت بدفء:

- لم أفعلها وحدي يا فريدة. لولاكم، ولولا من رحلوا، ما كان لهذا العالم أن ينجو.

ثم نهضت وتقدمت نحو النافذة، ونظرت طويلًا إلى السماء المليئة بالنجوم، قبل أن تغمض عينيها ببطء، وتلوح على وجهها ابتسامةٌ هادئة، كأنها تودّع في أعماقها من رحلوا في سبيل إنقاذ هذا العالم، أولئك الذين أثبتوا أن البشر لا ينجون دائمًا بالقوة، بل أحيانًا بقدرتهم على التضحية.

ختام

بعد أيام،

في أحد أزقّة ضاحية الغبار،

كان طفلٌ صغير يلعب مع أصدقائه، قبل أن يتوقّف فجأة حين لمح شيئًا يلمع على الأرض أمامه.

بدافع الفضول، اقترب الطفل بحذر من الشيء اللامع، وانحنى، لوجده شريحةً صغيرة عالقةً بالغبار. التقطها وقلّبها في يده، ثم رفع رأسه ببطء نحو جانب الزقاق، حيث يرقد روبوتٌ مُعطّل، من تلك الروبوتات التي كانت تحمل رقاب أهل الضاحية.

تردّد الطفل لحظةً، لكن حين اقترب منه أصدقاؤه، دسّ الشريحة في جيبه سريعًا، قبل أن يستدير ويواصل لعبه معهم، دون أن يُبعد عينيه عن الروبوت الساكن.

تمّت بحمد الله.